بيرل بك

رجـال الـلّـه

روايـة

تقديم ومراجعة
سامي عبد الرحيم

الكتاب: رجال اللّه (رواية)

الكاتب: بيرل بك

تقديم ومراجعة: سامي عبد الرحيم

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف: ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس: ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www. bookapa.com **E-mail:** info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

بك ، بيرل

رجال اللّه / بيرل بك، تقديم ومراجعة / سامي عبد الرحيم

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٢٥١ ص، ١٨*٢١ سم.

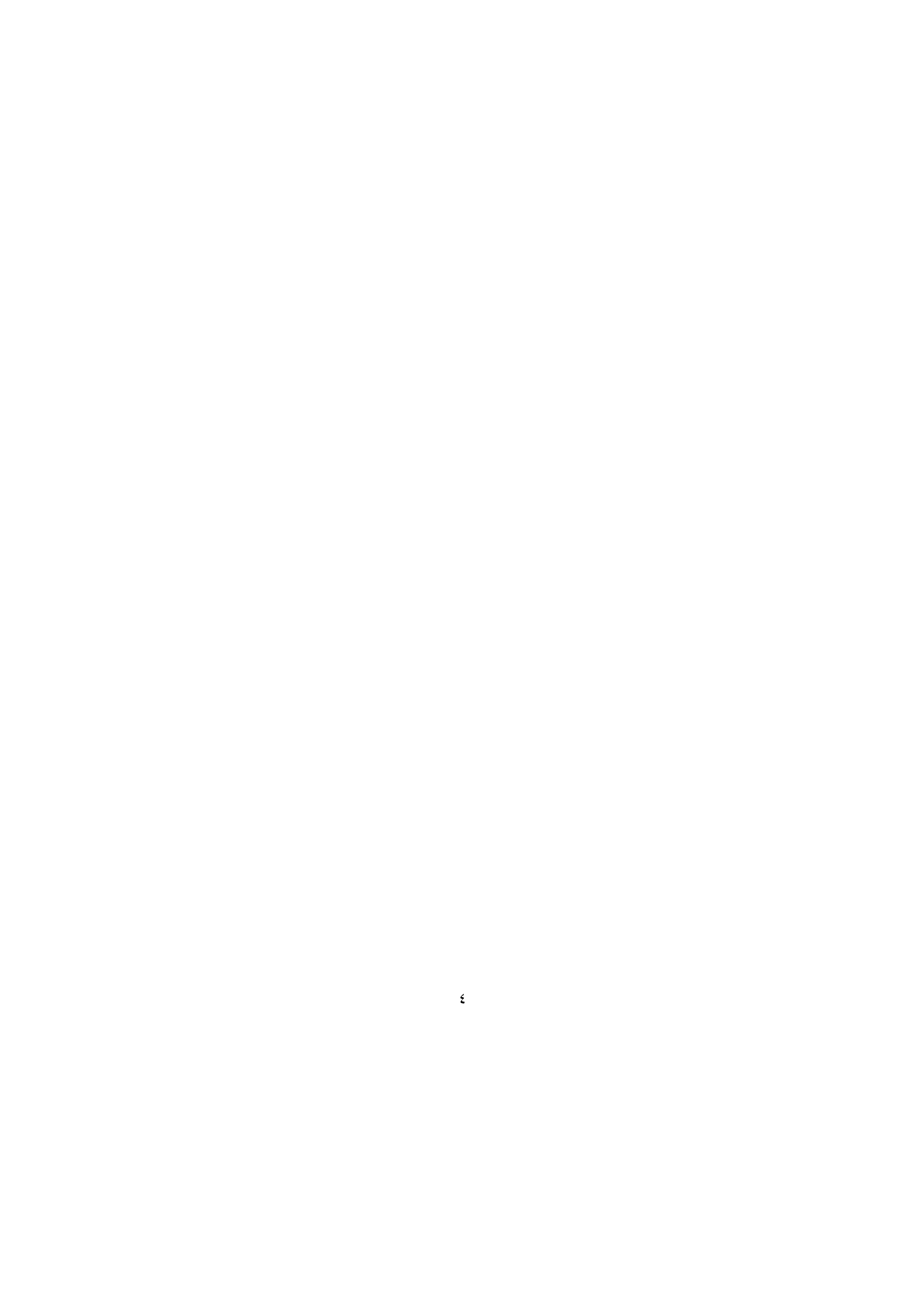
الترقيم الدولي: ٤ – ٥٢٣ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان   رقم الإيداع: ١٠٧٥٨ / ٢٠٢٢

رجال اللّه

روايــة





مقدمة

وَلِدت الروائية الأمريكية بيرل باك في ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٢ في (هيلز بورو) بولاية فرجينيا الغربية، وقبل أن تبلغ مِن العمر خمسة أشهر، عادَ بِها والداها إلى الصين، حيث كانا يعملان في التبشير الدِّيني، واشتريا منزلا في حي صيني في مدينة شين كيانج، في هذا الحي مكثت بيرل (اسمها بالكامل هو: بيرل سيدنستريكر بك) معظم سني طفولتها، حيث قالت فيما بعد: «لم أشعر بأي فرق بيني وبين الأطفال الصينيين».

وعند بُلوغها الرابعة عشرة مِن عمرها، التحقَت بمدرسة لتعليم اللغة الإنجليزية في مدينة شنغهاي، وبعد عامين سافرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية، والتحقَت بمدرسة التعليم العالي (راندولف– ماكون) في ولاية فرجينيا، وفي تلك الفترة بَدَأت بِنشر كتاباتها، حيث حازت على بعض الجوائز، وعند بلوغها الثانية والعشرين، عَمِلَت بالتدريس، ثُمَّ ما لبثت أن تلقت خبرًا بمرض والدتها في الصين. فعادت إلى الصين قضَت سنوات في شمالها، ثُمَّ انتقلت إلى مدينة نانكين، حيث عَمِلَت مُدَرِسة للآداب الإنجليزية بجامعة نانكين، ثُمَّ في الجامعة الجنوبية الشرقية، ثُمَّ في جامعة (شنج – يانج).

وهناك – في الصين – عَمِلَت بالتدريس، وفي عام ١٩١٧ تزوجت مِن رجل إقطاعي أمريكي، كان منتدبًا لتعليم الفلاحين في الصين، واستقرَ الزوجان في "نانكين". وهي بلدة صغيرة شمال الصين، حيث عانَيا شظف

العيش وصعوبة الحياة، ووصَفَت الكاتبة حياتها في تلك البلدة في كتابها «الأرض الطيبة»، ثُمَّ انتقلت مع زوجها إلى بلدة أخرى، ومنها إلى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث أنهَت دراستها بتفوق في الأدب الإنجليزي، وفازَت بجائزة (لورا مسنجر) للتاريخ عن بحثها الصين والغرب.

تأثرت «بيرل باك» بحكايات ألف ليلة وليلة، وهي كاتبة غزيرة الإنتاج، ومُعظَم قِصصها ورواياتها مستوحاة مِن حياتها في الصين، لِذا لُقِبَت بالكاتبة الصينية، وقد حصلت على جائزة نوبل سنة ١٩٣٨، وقد منحتها جامعة (بيل) في سنه ١٩٣٣ درجه الأستاذية الفخرية في الآداب، وفي السنة التّالية اِنتقلت إلى أمريكا، حيث أقامت بها ومُنِحَت ميدالية هويلز سنة ١٩٣٥، وأُختيرت عضوًا في المعهد الوطني للفنون والآداب سنة ١٩٣٦. ثُمَّ منحتها الأكاديمية السويدية جائزة نوبل للآداب سنة ١٩٣٨ «لوصفَها الدقيق الواضح للحياة الصينية الريفية»، كما مُنِحَت درجة الدكتوراه الفخرية في الآداب من جامعة فيرجينيا الغربية وجامعة سانت لورنس. وكانت روايتها "الأرض الطيبة" قد فازت بجائزة بوليتزر عن فئة الأعمال الخيالية لسنة ١٩٣٢وتوفيت في ٦ مارس عام ١٩٧٣.

وقد فازت بيرل باك بجائزة نوبل في الآداب «لوصفها الغني والملحمي لحياة الريف بالصين، علاوة على تحفها الثرية في سيرها الذاتية»، وفي كلمتها أثناء حفل توزيع جوائز نوبل قالت: «حينما أتكلم بينكم الآن، فمِن الخطأ ألّا أذكر الصين، رغم نشأتي وأُصولي الأمريكية، لكن أذكر

الصين حينما أذكر لكم بداياتي مع القصة، لأن أصل الحكي والرواية يرتبط بالصين، لحضارتها العريقة المتسمة بعناصر الحكي الثري، ومِن الخطأ أن يتأثر كُتّاب الصين الحاليون بعناصر الأدب الغربي، ولا يستقون أعمالهم مِن موروثاتهم الثرية، التي هي في الأصل جذر الأدب الغربي، مِن حيث العناصر الفنية».

ولذلك كَتَبَ عنها الأديب عباس محمود العقاد، بعد إعلان فوزها بجائزة نوبل في الآداب: " كانت الجائزة من نصيب الكاتبة الأمريكية بيرل بك لأن القضية التي كانت تشغل الأذهان في السنة الماضية هي قضية الصين، وقد اشتهرت الكاتبة الأمريكية برواياتها الصينية العديدة، حتَّى أوشكت أن تقصر على موضوعات الصين كُل مَا كتبت مِن الروايات والقصص والمقالات. وفي اعتقادنا أنَّ المحكمين في جائزة نوبل الأدبية والسلمية يلاحظون القضايا العالمية عِند اختيار صاحب الجائزة، إذا لم يكن لها مُرشح مِن طراز برناردشو وأناتول فرانس ومترلنك ونظرائهم. الذين يستحقونها بشهادة العالَم قبل شهادة المحكمين".

رواية "رجال الله"

تدور أحداث الرواية في الصين، كأغلب أعمال بيرل بك الروائية، ولكنَّها لم تنقل الكثير من ثقافة الصين، إلَّا أن هنالك بعض الأشياء التي تعزلها عن بقية ثقافات العالم، وأتفهم أنَّه لا يوجد الكثير للحديث عنه، عندما تدور أغلب الأحداث في بيئة طبيعية.

فمِن بين اِثني عشرة شخصية تتحرك في فضاء الرواية لم نَرَ إلَّا صينيًا واحدًا فاعلًا، هو طيب القلب، بوذي الديانة. وهو ليس مِن الشخصيات الرئيسية. والثقافة الصينية حاضرة بشكلٍ سطحي، ولم يتم التركيز عليها، لا يوجد ذِكر دقيق للأماكن والتواريخ وما إلى ذلك، فلاح في حقل ما في الصين، هذا ما ستحتاج لمعرفته في الغالب.

ولم يعتمد البناء الروائي على الوصف إلَّا في حدود قليلة، بينما زاوَجَت كثيرًا بين السّرد، والحوار، والرواية لا تحمل تفصيلًا لا في الأماكن ولا في أوصاف الشخصيات. تُخبرك ما تحتاج معرفته، والصورة التي ستكون عن مكان ما سيكون جزءًا كبيرًا منها مِن خيالك، الرواية تقع أحيانًا في مشكلة المساحات البيضاء، حيث تشعر أنَّ الشخصيات تتحدث في فراغ، أو في مساحة بيضاء بدون تفاصيل أو حياة، حيث استخدمت الكاتبة أسلوبًا مباشرًا، السرد ينقِل القارئ بين الأحداث للأمام دائمًا، ستتابع تقدم الشخصيات بالحديث عنها في الحاضر، الوصف لا يتدخل إلَّا نادرًا ما يُبقي القصة في وضع التحرك.

وقد برعت الكاتبة كعادتها في سرد الأحداث بشكل يُشعِر القارئ أنّ الرواية أطول بكثير ممّا هي عليه، الأحداث تسير على أجيال، والوقت لم يُبنى على أساس، القفزات في الزمن متكررة، وقد يتم بالوصول لحدثٍ مهم أن ترمي بِكَ الكاتبة بعيدًا في المستقبل وتُواصل مِن هناك، هذا ما جعل الشخصيات أكثر حياة، شخصيات واقعية ومثيرة للاهتمام، كما أنَّه

بالتّركيز على شخصيات قليلة أُعطيت الفرصة لتحديد أوصافها وطباعها، وتقلباتها بشكل أفضل.

رواية "رجال الله" وهي مِن أواخر إبداعات كاتبتها. تمثل مشكلة الصراع المستمر بين الإيمان والقوة. وقد أصدرتها لأول مرة عام ١٩٥١، وتُعد مِن أكثر روايتها انتشارًا وعمقًا اجتماعيًّا، وتَمتَدُّ أحداثها مِن الصين إلى أمريكا إلى انجلترا، وعَبرَ زمن يَمتدُّ مِن انتفاضة الملاكمين فى الصين أو حركة يهيه توان، وهي انتفاضة شهدتها الصين ضد الإمبرالية، وضد التّدخل الأجنبي، وضد المسيحية بين عامي ١٨٩٩ ١٩٠١، في أثناء الفترة الأخيرة من حكم سلالة تشينغ.

أعمالها الأخرى:

قامت بيرل بك طوال حياتها الأدبية بإلقاء العديد مِن المحاضرات، سواء في الصين أو الولايات المتحدة أو بريطانيا، وقد طُبِعَ بعض المختارات منها في ثلاثة مجلدات، كما طُبِعَ بعد ذلك مجلدان شملا قصصًا قصيرة كتبتها، فضلًا عن أربعة كتب ألفتها خصيصًا للأطفال. وقد أسّسَت (جمعية الشرق والغرب) وتولّت رئاستها، وغايتها التقريب بين الشرقيين والغربيين. وكانت تكتب كل شهر نقدًا للكتب في مجلة (آسيا وأمريكا)، كما أنّها عمِلَت كمستشارة لشركة (جون داي) وتولّت مراجعة ما يكتبه لها الروائيون المبتدئون.

أبدعت بيرل بك أربعين رواية، بدأتها بإصدار «ريح الشرق» التي ألّفتها خلال رحلتها الثانية لأمريكا، ثُمَّ تبِعَتها رواية «ريح الغرب» في سنة ١٩٣٠ وفي السنة التّالية أصدرت رواية «الأرض الطيبة»، ثُمَّ أتبعتها في سنة ١٩٣٢ برواية «الأبناء». وهي بمثابة جزء ثانٍ مِن «الأرض الطيبة» الثلاثية التي اكتملت برواية عن أسرة وانج صدرت في سنة ١٩٣٥ باسم «بيت منقسم على نفسه». وقد أُصدرت الروايات الثلاثة معًا في مجلد واحد عنوانه «بيت الأرض».

وفي خلال ذلك ظهرت لها في سنة ١٩٣٤ رواية قائمة بذاتها باسم «الأم». كما نشرت لها قبل ذلك ترجمة لأشهر قصة صينية وهي قصة (شوي هو شوان)، وقد جعلت عنوانها بالإنجليزية: «كل النَّاس أخوة» وفي سنة ١٩٣٦ نشرت لها روايتا «المنفي» و«الملك القاتل»، وكانتا ترجمة لحياة أمها وأبيها. وفي سننه ١٩٣٨ كتبت لأول مرة عن الحياة الأمريكية في رواية «القلب الفخور»، وكانت الحلقة الأولى لسلسلة روايات عن النساء الأمريكيّات.

وفي سنة ١٩٣٩ نشرت لها رواية "الوطني" وأعقبتها في سنة ١٩٤٠ بروايتها الثانية عن الحياة الأمريكية، واسمها «آلهة أخرون». ثُمَّ أثَّرَت فيها الحرب فنشرته في سنة ١٩٤٢ رواية عن أهوالها باسم «بذرة الفول». وأخرجت تكملة لها في سنة ١٩٤٣ باسم «الوعد».

سامي عبد الرحيم

عظيم في برجه العاجي

كُنَّا في أحد أيام شهر مارس سنة ١٩٥٠، وللريح في ذلك اليوم عنفوان أحسّ له «وليم لين» هَزّة تحت قدميه في الطابق الأعلى مِن ناطحة السّحاب في مدينة نيويورك. وكان وليم واقفًا أمام النافذة الضخمة خلف مكتبه والمدينة مُمتَدّة أمام بصره كالبساط الممدود، وعلى أفقها البعيد تراءت له إنعكاسات الضوء على التلال وعلى سطح البحر.

ووليم مِن أهل الصَّلاة على طريقته، يبدأ أيامه المكتظة بهذه اللحظات القليلة من السكون، أمام نافذته والعالم الممتد وراءه. وليس معنى هذا أنَّ فؤاده كان ينطَوي على أُمنية أو توسل، أو أنَّه كان يسأل الله شيئًا. كلّا، وإنّما الصّلاة عنده تأكيدًا لِذاته، فقد كان يَرى نفسه رجلًا ذا قدرة على الخير لا يشق له غبار في وطنه على الأقل.. وعلى أديم الشوارع من تحته تراءت له كالنّمال أشكال النَّاس التي يوجه أفكارها وينير عقولها ويهدي ضمائرها. ولئن لم يعرِفوا هذه الحقيقة التي لم يقف عليها إلّا القليلون، فذلك من دواعي استفحال قوته. فهو قد تخلّى مُنذُ زمنٍ طويل عن الأمل في أن يغدو زعيمًا شعبيًا لأنَّه لم يوهب ملكة اِكتساب المحبة الشعبية. وأكرهته التجربة أخيرًا على أن يفطن إلى أنَّ سحنته السّمراء الصّارمة المتجهمة تستثير الخوف أكثر ممّا تبعث الثقة. ولهذا لاذَ بنفسه في ذلك الصّرح العظيم ينشر منه على الأُمة شبكته الهائلة مِن الصّحف

اليومية التي يملكها. ولهذا الغرض كان يشتري خدمات الرجال الموهوبين ويشتري أسمى ملكاتهم.

وكان يعتقد أنَّه مَا مِن رجل يستعصي على الشراء. ولكن مَا مِن شيء يمكن أن يقنعه بشراء ملكة لا حاجة له بها، أو لا يستطيع أن يصُوغها في قالب مذهبه الخاص. فأعظم الكُتَّاب ما كانوا ليجدوا مُتّسع لأقلامهم في صحفه ما لم يروا ما يرى. وقليلون جدًا مِن هؤلاء الكُتَّاب العظام مَن لم يملك ناصيتهم إغراء خمسين ألف دولار، وهو الرّاتب الّذي كان يدفعه للواحد منهم. بَل لم يكن هناك سوى كاتب واحد عظيم، لم يفلح ضعف هذا المبلغ في استقطابه. ومع هذا كان يعتقد أنَّ هذا الواحد لابُد لَه من ثمن يمكن أن يشتريه به إن تراءى له أن يجود به. فالّذي كان يشتريه ليست الألفاظ والكلمات فقط، بل الأرواح والعقول أيضًا. فكل كاتِب معروف بنزاهة الرأي وصلابة العُود له قيمته الكبيرة حين ينضم إليه ولو لأمد محدود. لأن وليم كان يشتري بهذا المبلغ الضخم ثقة النَّاس في هذا الشخص أيضًا وإيمانهم بنزاهته. وهذا هو ما يدفع ثمنه.

جالت هذه الأفكار برأسه، وهو واقف أمام النافذة يشعر باهتزاز ناطحة السّحاب تحت قدميه يفعل الرياح. فلم يضطّرب لذلك الاهتزاز لِعلمه أنَّ البناء الصّلد تقصِفه العواصف، أمَّا البناء الذي يميل قليلًا فلا يُصاب بسوء. ومع هذا شعر بشيء مِن الضيق لتلك الهزة لأنَّها ذكَّرته بأشياء بغيضة عفى عليها الزمن، اِرتجف لها يومئذٍ رعبًا.

حينها كان غلامًا في بلاد الصين، رأى الغوغاء في شوارع بكين، وقد همّوا أن يفتكوا به، لا كراهة للونه وشخصه؛ بل كراهة لجنسه. فاستولى عليه الرعب يومئذٍ. وإنَّه لرعب شديد كلَّمَا تَذكّره اليوم وهو في مأمن تجدّدت لديه إحساسات الضيق. فكلّ زحام مِن النَّاس، وكل جمهور من الغوغاء يُذكِّره بذلك اليوم العصِيب. مع أنّه اليوم رجل لا خوف عليه من أحد، ولا مِن شيء، فهو أغنَىَ مِن سائر مَن يعرفهم مِن النَّاس. وأصدقاؤه نخبة مِن أغنى رجال العالم الغربي. وهو من دونهم رجل لا مطعن عليه في حياته الخاصة. وأمَّا أنّه طلّق زوجته الأولى ليتزوج الثانية، فمَا مِن إنسان يرى في هذا خطأ بمجرد أن يرى «إمروى» فهي مخلوق لطيف، صافٍ كأزهار الثلج. وجمالها الإنجليزي ورشاقتها، وطيبتها تجعل لها سحرًا لا يُقاوم. فإذا قورنت بزوجته الأولى «كنداس» اِتَّضَح مِن أوّل وهلة أن «إمروى» سماء الروح و«كنداس» كالثرى.

ولمّا وصلت خواطره إلى زوجته ورقّ لذكرها قلبه، انفتح الباب مِن خلفه فلم يلتفت، لأنَّه ما مِن أحد غير سكرتيرته يجسر على الدخول عنده بغير إذن. وانتظر إلى أن قالت سكرتيرته بصوتها الخافت:

– يؤسفني أن أُزعجك يا مستر لين. ما كنت لأدخل لولا أن زوج شقيقتك مستر «كليم ميلر» حضر.

– وهل لديه موعد؟

– كلّا. ليس لديه موعد. وقد ذكّرته بهذه الحقيقة فقالَ إنَّه يعتقد أنّكَ ستقابله على أي حال لأن لديه فكرة هائلة.

وكان وليم على وشك أن يقول في حدة إنّ أفكار «ميلر» الهائلة لا تُعنيه. لولا أنّه لا يُريد أن يتيح للآنسة سمث موضوعًا للغط مع المرؤوسات فينعت بجمود القلب والقسوة، وإنَّه لنعت يعلم يقينًا أنَّه كثيرًا ما رمى به، لا لشيء إلّا لأنَّه يدين بمبدأ عدم الخلط بين العدل والرحمة. ولكن نفسه لا تطيب برؤية «كليم ميلر» يدخل مكتبه هكذا في يوم مزدحم بالعمل، وهو يعتقد أنَّه يقابله بغير موعد سابق، ويضيع وقته في الإصغاء لفكرة من أفكاره الخرقاء. ثُمَّ إنَّه لا يحب أن يتذكَّر أنَّ زوج «هنرييتا» قد أصبح أيضًا رجلًا ناجحًا جدًا. فقد أثرى كليم مِن أغرب الطرق. وأثرى من حيث لم يفكر مُطلقًا في الثراء. وبالرغم مِن هذا الغنى الطائل، ما زَالَت شقيقته وزوجها يعيشان في بيت حقير في منعطف بمدينة أوهيو. وما مِن أحد في الدنيا يعلم ماذا يصنع كليم بأمواله.

– أخبري زوج شقيقتي أنّني أمنحه خمس عشرة دقيقة. فإن تجاوزها أخرجيه يا سمث.

ولم يكن اسمها سمث. لكن وليم لين كان يدعو جميع سكرتيراته على السواء بِاسم سمث. وكانت سكرتيرته الأولى تكره ذلك لِمَا فيه من معنى التنكير. إلّا أنّها كانت تتقاضى مرتبًا من الجسامة بحيث لا تجرؤ على إبداء الإستياء.

ولَمَّا سمع الباب يغلق دار وليم مبتعدًا عن النافذة وجلس في مقعده الكبير وراء مكتبه نصف الدائري. فبدا هيكله للداخل يتوسط المستطيل الزجاجي الكبير، الذي هو النافذة، فكأنه تمثال قد من الصخر. لأنَّه كان جامدًا في جلسته، وعيناه إلى الباب. وعلى هذه الصورة واجهه كليم حين دخل بخطوته السريعة العصبية ولم يبدِ عليه الاضطّراب أمام عينى وليم بلونهما المعدني الذي يتراوح بين الرمادي والأخضر، كأنهما عينا ضبع. وكان كليم رجلًا قصيرًا نحيفًا يغلب لون الرمال على شعره وعلى بشرته، أمّا عيناه فزرقتهما صادقة وفيهما بريق أخاذ ولمحهما ثاقب سريع.

وقال كليم بصوت عالٍ مرح:

– هالو وليم. ما أبدع المنظر مِن نافذتك! وكيف حال زوجتك؟

– إمروى في خير حال.

– وكذلك هنرييتا. وقد ذهبت اليوم لزيارة كنداس.

– وما الذي أتى بك لزيارة نيويورك؟

– خطرت لي فكرة فأسرعت إلى واشنطن. ذلك أن وزير التغذية في نيودلهى بعثَ إليّ خطابًا يُخبرني أن لديهم في الهند كميات كبيرة مِن القمح المخزون. وحسبته في مبدأ الأمر يهرف بما لا يعرف، وهو متربع هناك في مكتبه بنيودلهى. فقمت بتحرياتي الخاصة وتبيّن لي صدق قوله. بيد أن

القمح ليس في أيدي التجار بل في أيدي الزراع، وقد خبأوه بأنفسهم كما أخفي أنا أو أنت حسابًا مِن حساباتنا في البنوك ليوم عصيب..

ولم يعلق وليم. لأنَّه لا يتصور نفسه يخفي رصيدًا مِن ماله، كما لا يتصور أن يمر به يوم عصيب. ولكن كليم شخص ما زالَ عاميًا. وحكّ كليم ذقنه الشاحب واستطرد:

– ورأيي أنني إن استطعت إقناع هؤلاء المختزنين للقمح عندنا في وشنطن أن يصدروا جانبًا من مخزونهم إلى الهند نفسها لأخرجَ المختزنون في الهند قمحهم، لأن القاعدة أن وفرة السلعة تقضي على دوافع التخزين، كما أن الثمن سيهبط في السوق هناك، ويجد الشعب ما يأكله.

– وماذا قال لكَ في وشنطن؟

– الهذر المعهود، أن هذا يكون تدخلًا في شئون الهند الداخلية. ومُرادهم طبعًا أن حصول الشعب الهندي على الطعام بثمن رخيص سيجعلهم يؤيدون حكومتهم الحالية.

فانتّهز وليم هذه الفرصة ليعرف شيئًا عن هذا الرجل العجيب نهرو، الذي لم يستطع خلال زيارته الوحيدة لأمريكا أن يفهمه حق الفهم.

– وهل تراهم في واشنطن لا يحبون نهرو؟

– بل يحبونه إلى حد محدود. ولكن عيبه أنَّه ليس متمشيًا في سياسته إلى أقصى ما يذهب إليه الجمهوريون عندنا. فهُم يريدونه أن يقسم على

الإنتقام الأبدي مِن الروسيين وعلى الإخلاص الأبدي لنا. ونهرو لا يريد أن يحلف على هذا أو ذاك. ويؤثر أن يحتفظ باستقلاله في الرأي وصداقته لنا. ومَا مِن رجل عاقل في مكانه يمكن أن يحلف على ما يريدون. ولكن هذا لا يهمني وإنَّما المهم عندي أن يأكل النَّاس لا لشيء إلَّا لأن الجوع عار ووصمة للعالم كله. وهو كذلك عار لا لزوم له، ولا مبرر في عصرنا الحديث. حيث سبل نقل المؤن مِن أقصى الأرض إلى أقصاها ميسرة كل التيسير. وأنا لا أُقر أبدًا استخدام الطعام للضغط على الشعوب. وإنَّما عقيدتي أن نطعم كل النَّاس، ثُمَّ بعد ذلك ندعوهم للتفكير في المذاهب. ومتى امتلأت البطون فلن تجد النَّاس يؤيدون هذا الرأي أو ذاك. سعيًا وراء لقمة هنا أو لقمة هناك. وهذه هي االديمقراطية الصحيحة. ولكنَّنا للأسف لا نُطبقها ولا نُمارسها.

والحقيقة أنَّ الطعام والديمقراطية هي شغل كليم الشّاغل ولا حديت له إلا عنهما. ومُنذُ زمن طويل سئم وليم من زوج شقيقه بسببهما. ولهذا قال بفتور:

– لستُ أُريد أن أستعجلك. ولكنّي في الواقع مرتبط باجتماع هام بعد ربع ساعة، لشأنٍ عاجل مِن شئون العمل.

فارتدَّ بصر كليم عن الأفق الممتد وراء النافذة الكبيرة، وتحول فواجه وليم قائلًا:

– وصلتني خطابات من الصين يا وليم. بواسطة شخص كنت أعرفه في بكين.

قطب وليم حاجبيه، وقال بحدة:

– إنّك ستورط نفسك في المتاعب باختلاطك بالشيوعيين.

– لا أظن ذلك. فالولد العجوز يعرف الحقيقة عني.

والولد العجوز في لغة كليم هو دائمًا رئيس جمهورية الولايات المتحدة.

– وماذا يقول عن رأيك؟

– قال لي أنَّه غير موافق. أتعلم يا وليم أنّ هناك مجاعة شديدة في الصين؟

– وهذا شيء مفيد لتعليم الشعب الصيني. أنَّ الشيوعيين لا يستطيعون إنقاذهم.

– وهذا لا يكفي يا وليم، فهو نصف الحقيقة فقط، وعلينا نحن النصف الثاني بأن، نوصل الغذاء إلى هناك. وبذلك نُريهم أنَّنا نستطيع لهم مَا لا يستطيعه الحمر، وإلَّا اعتقدوا أنَّنا لا نملك لهم أكثر مما يملكه الحمر. ولن يُفكروا بعدها في إتاحة الفرصة لنا.

– إنَّ الشعوب يجب أن تعاقب على سوء اِختيارها.

– لا ينبغي أن نتلذّذ بمعاقبة الشعوب يا وليم. وليس هذا ممّا يجدر برجل في عظمتك. تلك آراء تُذكّرني بأفكار العهد القديم التي نسخها العهد الجديد.

– لست مستعدًا للتناقش معك في الدّين.

– وأنا لا أُريد أن أناقش فيه أيضًا. ولا شأن لي بأنّك أخترت الكثلكة. فأنا لا أُبالي بعنوان عقيدة الرجل، ما دامَ رجلًا طيب النّفس. وهذا ما أقوله دائمًا لهنريتا. كان أبي يعتقد في قوة الإيمان، ولكن الإيمان لم ينقذه. ولست أنصح أحدًا أن يتعلق به. لأنّني لا أُبالى كثيرًا بالدّين.. وإنَّما إعتقادي أنَّ المرء إذا لم يكن مليء البطن..

– أعرف رأيك هذا تمام المعرفة.. فدع ذلك، ولندخل في الموضوع..

– يا وليم. في استطاعتي أن أدفع بالطعام دفعًا وأوصله إلى الهند، بل وإلى الصين أيضًا. فنحن متخمون هنا بالطعام حيث يستطيع رجالي أن يشتروه بسهولة بمئات الأطنان. ولا أُريد مِن «الولد العجوز» أن يصنع شيئًا لمساعدتي في ذلك، سوى أن يشيح بوجهه إلى الجهة الأخرى.. ولكنّي محتاج إليك يا وليم. لأنّي محتاج إلى أن تسند حركتي قوة الصحافة، حتَّى لا يجسر على التعرض لي أعضاء مجلس الشيوخ ومن إليهم. فالجميع في أمريكا يقرأون صحفك، وهناك ملايين لا يقرأون سوى صحفك. وأعضاء الشيوخ يخافون قوة هذه الملايين من القراء والناخبين. وما أريده منك أن

تقول لقرائك هؤلاء أن إرسال الطعام الفائض مِن أمريكا إلى آسيا أنفع بكثير من صنع أي عدد من القنابل الذرية منها، والأيدروجينية، و..

– مستحيل! إن كانت هذه هي فكرتك الهائلة حقًا..

– إنَّ فكرتي هي تيسير الطعام للمتضورين جوعًا يا وليم! ولست أطلب منك أن تفعل ذلك. بل كل ما أطلبه منك أن تشرح للناس أهمية ذلك العمل. الذي سأعرف كيف أقوم به.

– مستحيل! هذا هراء عاطفي مبتذل. هذه سخافة وجنون..

– وكيف ذلك؟ إنَّ النَّاس في آسيا لا يجدون القوت الضروري. فإذا وجدوه على يدِنا سوف يسألون من أين أتَى الطعام. فيُقال لهم مِن أمريكا. وإنَّ أمريكا تُطعم جميع الجياع، ولا تسأل عن مذهبهم السياسي. وهذه أكبر دعاية لديمقراطيتنا..

– مستحيل! أنَّ هؤلاء النَّاس سيأكلون الطعام ولن يعنوا بالسؤال عن مصدره. بل أن معظمهم سيظنون أنَّ الشيوعيين هم الذين أتوهم بالطعام.. أنت ساذج جدًا..

– ولنفرض هذا جدلًا.. ألَا يساعدهم الشبع على الإحساس بالطغيان والتمرد عليه؟ إنَّ الجائع لا يميز الخطأ من الصواب. إنَّه لا عين لديه إلَّا للطعام، ولهذا لا يثور الجياع..

وسكت كليم بُرهة، حملق فيها في وجه وليم الذي ظلَّ صامتًا، ثُمَّ هتف به:

– لا أظنّك جربت الجوع يا وليم.. ولكنّي جربته..

ولم يجد وليم حاجة للرد، فقد فتحت مس سميث الباب بهدوء وقالت:

– آسفة للإزعاج يا مستر لين، ولكن أعضاء اللجنة ينتظرونك في حجرة الاِجتماعات.

فنهضَ كليم وهو ينظر للسكرتيرة باسمًا:

– لا حاجة لاِتباع هذه الوسائل معي يا آنسة. أنيّ منصرف. والآن يا وليم؟

– لا أستطيع أن أجيبك إلى طلبك، لأنيّ لست متفقًا معك في الرأي..

– أتتركهم يتضورون وأنت هادئ البال؟

– نعم. يتضورون إلى أن يعرِفوا خطأهم ويعتذروا عنه.. مع السلامة. وتحيتي لهنريتا.

ورد كليم التحية، ثُمَّ دار على عقبيه منصرفًا. ولم يفكر أحد منهما في مد يده للآخر مُصافحًا عند الاِنصراف أو اللقاء. وليس ذلك غريبًا على

وليم، الذي يندر أن يصافح أحدًا.. ثُمَّ إنَّ عنده من الأسباب ما يجعله يكره قبضة يد كليم، إذ ذاق قوها مُنذُ سنوات.

وبعد انصراف كليم، أخرج وليم منديله فمسح جبينه، ثُمَّ صبّ لنفسه قدح ماء مثلج من الترموس الفضّي. الموضوع دائمًا على مكتبه، وهو يعجب لأغرب عمل مِن أعمال القضاء والقدر في حياته، ألَا وهو زواج كليم ميلر بالذّات من شقيقته – كليم هذا الذي رآه مُنذُ نصف قرن في شوارع بكين، وظنَّ أنَّه لَن يراه أبدًا بعدها. كان يومئذٍ فتى حافيًا جائعًا، ابن مبشر يدين بمذهب الإيمان، يعيش في كوخ حقير، في أفقر أحياء المدينة.. فكيف أصبح هذا الغلام زوج شقيقته؟

إنَّها حكاية قديمة.. قديمة جدًا، ولكنَّها مِن أعاجيب المصادفات وتصاريف القدر حقًا.

قبل نصف قرن

كان وليم لين مضطجعًا بكل راحة في «الريكشا»، عربة والدته الخاصة، عندما لمح على مسافة ربع ميل شرذمة مِن العامة. وهذا أمر يدل حدوثه في شارعِ صيني على وقوعِ اِضطّرابات. وإن كان يحدث أحيانًا أن يتجمع المارة في شوارِع بكين؛ للفرجة على ألعاب الحواة مثلًا. ولا يضيرهم مهما كانوا مشغولين أن يقفوا حيث هم ساعات طويلة. ولمّا كان الوقت ربيعًا، فربما كان سبب تجمعهم وجود الممثلين القادمين من الجنوب..

ومالَ وليم إلى الأمام، وسألَ خادمه قائلًا:

– ماذا هناك يا لاولي.

وكانت لهجته الصينية نحوية سليمة المخارج، مع أنّه لم يجاوز السابعة عشرة. ولكنَّه لم يكن فخورًا جدًا بسلامة لغته الصينية، لأن ذلك يدل على أنَّه ابن مبشر مرسل. ففي المدرسة الإنجليزية الداخلية في تشيفو كان الأرستقراطيون الإنجليز من أبناء كبار التجار والدبلوماتيين ينظرون نظرة خاصة إلى أبناء المرسلين ويضعونهم دائمًا في الدرجة الثانية.. وهذا يحز في نفس وليم أكثر مِن كُل شيء، ويجعله يسخط على والده الذي أختار هذه المهنة، مع أنَّه مِن سلالة كريمة وكان في إستطاعته أن يدخل السلك

السياسي مثلًا. ولكن ما حيلته وقد نشأ وولِدَ في بكين. ونحن الآن في عطلة عيد القيامة؟

وأجابه «لاولى» بعد أن نظرَ صامتًا برهة:

– شيء عجيب يا سيدي الصغير.

ثُمَّ جذب فضل سترته القطنية، ومسح بها العرق الذي يتصبب مِن وجههِ، وقال في نفسه:

– إنَّ هؤلاء الأجانب أثقل وزنًا. فهذا الفتى مع أنّه ما زالَ يافعًا إلَّا أنَّه أثقل وزنًا من رجل صيني كامل النّمو. وإنّي لأذكره حين حملته طفلًا مُنذُ سنوات! أف! لم أكن أجسر على التمهل أو التلكؤ وإلَّا ثار، ألَا ما أثقل عمل رجل الريكشا في بيت أبيض. ولكن العمل الثابت عندهم شيء لا يجازف بضياعه المرء، مهما كان وزن الأطفال! فلأنتهز الفرصة لآخذ نفسي..

– هل أذهب وأستجلى لك الخبر يا سيدي الصغير؟ أم نقف عندهم لترى بنفسك؟

فشمخ وليم رأسه كعادته، وقال:

– وماذا يعنيني ما يشغل غوغاء الطريق؟..

– إنَّما سألت عن رغبتك فقط..

وأسرع «لاولى» فحث الخطى عندما أقترب من الزحام، حتَّى لا يتهمه سيده الصغير بالتلكؤ، وإذا وليم يصيح به فجأة فذعر، وكاد يسقط بين عجل العربة الخفيفة: «قف!».

ومن مجلسه المرتفع كان وليم قادرًا على النّظر من فوق أكتاف المزدحمين. فرأى في وسط الحلقة منظرًا فظيعًا. كان هناك غلام أبيض يصارِع غلامًا صينيًا. والنَّاس مِن حولهما لا يضحكون، بل يبدون اِهتمامًا شديدًا وقد خيم عليهم الصمت. فصَاحَ وليم بلهجة آمرة: «أنزلني!».

فخفض «لاولى» الريكشا وهبط منها وليم فدخل وسط الزحام وصاحَ بالنَّاس في لهجته الآمرة التي خاطب بها «لاولى»:

– دعوني أمر. أفسحوا الطريق!

فأنفرج النَّاس له فمرَّ مِن وسطهم إلى أن بلغ المركز. حيث الوجه الأصفر والوجه الأبيض يتبادلان الضربات، في جد وصرامة وهدوء. فصَاحَ وليم بالإنجليزية بصوت مرتفع:

–كف عن هذا، يا هذا!

فلتفت إليه الغلام الأبيض وسأله بحدة:

– وما شأنك أنتَ بهذا؟

وكان قصيرًا ضئيلًا شاحبًا يدل شكله على نقص التغذية. أمّا ملابسه القطنية الرمادية اللون التي أبلاها تكرار الغسيل، فكانت لاصقة

بعظامه. ومع ذلك كانت في وجهه المربع صلابة، ولعينيه تحت شعره الأحمر الرملي بريق أزرق خاطف. وأجابه وليم قائلًا:

– إنَّه مِن شأني بالطّبع..

قالها بثقة ناجمة عن إحساسه بالفارق الذي يتمثل في بدلته الكحلية الصوفية التي حاكها أرقى خياط في المدينة، وفي حذائه اللامع الذي يطليه كل ليلة خادم البيت الصينى. أمَّا هذا الغلام الأبيض فقد راعه أن يجده منتعلًا خفين صينيين من القماش ممزقين عند الكعب. فقال له في غلظة وحنق ظاهرين:

– إنّه ممَّا يحط من قدر شاب أجنبي أن يُقاتل صينيًا. وهذا السلوك خليق أن يجعلهم ينظرون إلينا جميعًا نظرة إزدراء. فليس مِن حقك إذن أن تتصرف على هذا الوجه المزري بنا أجمعين..

فطرف الفتى الشاحب بعينيه وطوح بقبضته صائحًا بصوت مجلجل:

– سأُقاتل كلّ من أشاء..!

– إذن سأرفع عنك تقريرًا إلى القنصل..

ثُمَّ سمح لعينيه الباردتي النظرة أن تقيسا طول الفتى وعرضه الهزيل، ثُمَّ سأله:

– ولكن من أنت على كل حال؟.. إنّي لم أركَ من قبل مطلقًا..

– أنا «كليم ميلر»..

فانفرجت شفتا وليم عن شيء ليس إبتسامة على كل حال، وقال:

– أتعني ميلر عضو إرسالية «الإيمان»؟.

فلاقت نظرات كليم عيني وليم في تحد، وقال: «هو بعينه».

فهزّ وليم كتفيه المنظرانيين وقال: «في هذه الحالة..» ثُمَّ دار على عقبيه كمن يهم بالإنصراف، إلَّا أنَّه تمهل، وقال:

– ومع هذا فمِن واجبك بوصفك أمريكيًا أن تُفكِّر في شرف وطنك.

– أبي يقول لي دائمًا إن العالم كلّه هو وطننا!

ولم يكن هناك ما هو أبشع مِن هذا الرأي في نظر وليم لين، نجل المرسل «الأسقفي» الذي يُعد مِن الأرستقراطية الكنسية، فاتَّجه إلى كليم ثائرًا وصاحَ به:

– ولكنّكَ أمريكي يا هذا أيًا كانت عقيدتك، وأيًا كان سلوكك في نظر الجميع. وهذا مِن سوء حظَّنَا نحن الذين نُحسن السلوك! ثُمَّ لماذا تقاتل هذا الغلام الصيني؟

– قال هذا الصيني، إنَّ أبي متسول..

– وإنَّه لكذلك، مِن بعض الوجوه!

فجمع كليم قبضته وراحَ يلوح بها في وجه وليم وهو يصيح:

– كلّا. إنَّه ليس متسولًا..

فتراجع وليم خطوة إلى الوراء، وأجابه بحزم وحدة:

– تعقل يا هذا! أنتَ تعلم كمَا أعلم أنا أنَّ والدك ليس له مرتب ثابت مِن الإرسالية. وليس له تعيين للجراية أو مَا إلى هذا.

فقال كليم في صوت قوي واضح:

– أجل ليس لنا شيء مِن هذا كُلّه. ولكن الله لنا..

فابتسم وليم إِبتسامة كالحة، وقال:

– أنت تسميه «الله»، ووالدتي تسمية «تسولا»، فكُلَّما فرغ مَا عندكم مِن الخبز يأتي والدك إلى بيتنا ويخبرنا بذلك فتعطيه مِن خبزنا. وهو لا يستنكف أن يخبر كل مَن يصادفه أن ليس لديكم خبز، وأنَّ الله سيبعث لَكُم بحاجتكم منه، ويعطيكم مِن كرمه. ولكن مَن الذي يعطي في الواقع؟ إنَّها أمي مثلًا، أو مَن يقوم مقامها من كرام المحسنين.! فنحن لا نستطيع أن نحتمل رؤية أمريكي يتضور جوعًا، لأنَّ ذلك يَحُط مِن قدرنا في نظر هؤلاء الصينين. أفهمت؟

وجاءه الجواب مِن حيث لا يحتسب. فقد أحسَّ بضربة تحت ذقنه، ووجد نفسه يخرج على ما تعلَّمه مِن آداب السلوك الراقي، فرفس برجله اليمنى. وكان حذاؤه مِن النّوع الجيد المدبب، فصدم مقدمة ساق كليم تحت الركبة مباشرة؛ فسقط الفتى يتلوى في التُّراب مِن الألم.

ولم يتلبث وليم ليرى مَا حدثَ للفتى، بل دار على عقبيه وشقَّ لِنفسه طريقًا بين زحام الصينيين الصّامتين في اِستطلاعٍ مُبهَم، ثُمَّ أقتعد مكانه مِن الريكشا وصاحَ بلاولى: «أنطلق!».

ومِن وراء ظهره اِرتفعت همهمة الجماهير المستاءة، ثُمَّ راحوا يرفعون كليم مِن الأرض، وفي مقدمتهم غريمه الصيني الذي نسى الخصومة، وراحَ يصيح ساخطًا:

– إنَّ هذا الشاب الأمريكي يستحق الموت!. أنتما مِن جنسٍ واحد، كِلاكما أتى مِن وراء البحر، فكانَ ينبغي أن تكونا أخوين..

ولم يجب كليم. وبعد لحظات مِن الألم الحاد، اِنصَرفَ وهو يعرج. وتَصايح النَّاس:

– إنَّ هؤلاء الأجانب قساة الأكباد لهم بأس شديد، حتَّى فيما بينهم ثُمَّ أنحي فريق مِنهم باللائمة على الغلام الصيني، الذي كان يُقاتل كليم:

– واسمع أنتَ يا ابن هان. خُذ حذرك في المرة القادمة. واعلم أنَّه مَا مِن إنسان يطيق أن يسمع أحدًا ينعت والده بالمتسول. حتَّى ولو كان كذلك فعلًا.

فراحَ الفتى يوضح لهم الأمر، قائلًا:

– كنَّا في الواقع نتكلم عن الإله الأجنبي حين سألَ والده والدي أن يعطيه رغيف خبز. قائلًا: إنَّه ليس في بيتهم شيء وأنَّ الإله الأجنبي أوحى

إليه أن يذهب ويطرق باب أبي لأنَّه خبّاز. فأعطاه أبي ثلاثة أرغفة، قال والده: «شكرًا لربي، فإنَّه دائمًا يُدبّر ويعطي». فقلت أنا: «وكيف لا يُدبّر الإله الأجنبي ويعطي مِن عند عباده الأجانب؟»، وكان هذا الغلام الأجنبي وراء والده وسمعني أقول هذا الكلام، فطلبَ منّي أن آتي معه، فلمّا صرنا وحدنا هنا اِنهال فوقي ضربًا كما رأيتم..

وأصغى الجمهور لهذا البيان بكلّ اِهتمام، ثُمَّ أختلفوا في الرأي، ففريق مِنهم يرى أنّ الفتى لم يُخطىء فيما فعل، وأنّ تعليقه على الإله الأجنبي تعليق صائب. وفريق آخر يرى أنّ الصمت دائمًا خيرٌ مِن الكلام الذي يجرِ وراءه عداوة البيض وغضبهم.. فالسّكوت مِن ذهب، إن كان الكلام عن الأجانب مِن فضة، أو مِن نحاس...

وارتفع صوت رجل تدل ملابسه الطويلة الفضفاضة على أنَّه مِن العلماء:

– من العجيب حقًا أن جميع المسيحيين أغنياء، ما عدا هذه الأسرة التي تعيش بيننا نحن الفقراء في حيّنا المتواضع، وعلى طريقتنا تقريبًا..

فأجابه جزار كان يحمل كمية مِن مصارين الخنازير ليعمل منها سجقًا، وقد ضربتها الشمس وهو واقف يتفرج، فبدأت تفوح رائحتها:

– ومَن الذي يمكن أن يفهم هؤلاء الأجانب أو يسبر غورهم؟.. إنَّهم هنا أكثر مما يجب، وأساليبهم ملتوية، وتفكيرهم غريب..

وأخذ الزحام يتبدد، فسرعان ما أقفر المكان، ولم يبق مِن أثر يدل على ذلك التجمع والشجار، اللّهم إلّا آثار الأقدام الكبيرة في التّراب المتراكم على أرض الطريق الجاف..

خرج كليم ميلر من وسط الزحام بأسرع ما استطاع. وكان يتمنى لو أمكنه الجري، لولا أن حذاءه المصنوع من القماش البالي، وركبته التي تؤلمه، جعلا ذلك الجري من المستحيلات.

ولعلّ أهم ما يذكره مِن أمر وليم لين هما حذاءاه القويان اللامعان من الجلد البني المتين الذي يحمي الأصابع، والكعب ويجعل الرفسة تترك أثرها المحتوم.. ولهذا غمغم لنفسه متحسرًا:

– ومع هذا فمِن المحال أن يكون لي يومًا ما حذاء أمريكي كهذا الحذاء..

وكان حديثه إلى نفسه دائمًا بالصينية لا بالإنجليزية. بتلك الصينية الركيكة التي يستعملها البحارة والرعاع، لا الصينية البكينية السليمة الراقية التي يتكلمها وليم لين. وسبب ذلك أن كليم ولد في زورق!

ففي تلك الفترة خطر لوالده أن يبدأ في تعاليمه وتبشيره على طريقة السيد المسيح، فيبشر من زورق يمخر به ماء الشواطئ الصينية ويخاطب منه مَن يتجمعون على اليابسة ليسمعوا، وما أكثر السّامعين الصامتين في بلاد الصين!

وكم مِن مرة جلس الغُلام يصغي لوعظ والده حينًا، ويحملق في وجوه النَّاس لاهيًا بالنَّظر عن السمع حينًا آخر. حتَّى إذا اِنصرف الصينيون وجنَّ الليل، أتى الأجانب إلى الزورق واجتمعوا بأبيه يلومونه على هذا السلوك المزري بالأمريكيين المحترمين، وعلى تلك الحياة التي تشبه التسول..

أجل. إن كليم ميلر لا يسعه وهو يعرج عائدًا إلى بيته أن ينكر ما في ملاحظة الغُلام الصيني من صواب. فهم حقًا أشبه بالمتسولين. واِتهامات وليم لين أيضًا لها وجاهتها. وكم مِن مرة رأى ببصره من خلال بوابة البيت الكبير ذي الحديقة الغناء كيف عاشَ فيه وليم مع آله وكيف يختار أرقى أحياء المدينة، حيث رجال السلك السياسي.. وما أبعد الفرق بين هذه الحياة، والحياة الزرية التي يعيشها هو مع آله في الكوخ ذي الحجرات الخشبية الأربع في الحارة الصينية القذرة..

ألا ما أعظم شجاعة أمه! إنَّها لا تشكو ولا تتذمر، وتتشبث دائمًا بالإيمان. ولكنّه مع هذا يذكر جيدًا أنَّها رفضت أن تستمر في الحياة في ذلك الزورق يومًا واحدًا بعد أن سقط في النّهر طفلها الأصغر فغرِقَ. ونشب بين والديه بخصوصه نقاش حامي الوطيس، فقال بول ميلر:

– ماري! ماري! لكأني بك وقد تزعزَعَت ثقتك في الله تحت وطأة التجربة!

فحاولت ماري أن تَكُف عن بُكائها ونحيبها، وقالت له:

– بل أثق بالله كما وثقت دائمًا، ولكنِّي لا أستطيع أن أحتمل منظر الماء بعد ذلك..

ولم تنجح المحاولات الجبارة في استخراج جثة أرثر الصغير. وبعد اليأس التَّام رحلَت الأسرة مِن شنغاي إلى بكين. أمَّا عن مصاريف السفر إلى شنغاى بالدرجة الثالثة، فقد أستشار بول الله فأمره أن يلجأ إلى زملائه المرسلين الأثرياء. وكان هؤلاء المرسلون على أتم اِستعداد لِتحمل نفقات التّخلص من اِنتسابه إلى زمرتهم في بلدهم هذا. وتبارت زوجات المرسلين في جمع كمية من ملابس الأولاد القديمة للأطفال، ومن ملابسهنَّ لماري. حتَّى لقد أغرورقت عينا بول ميلر بدموع الاِمتنان وهو يرفع عينه إلى السماء ويقول لإمرأته:

– أرأيتِ إلى مراحم الله؟ أرأيتِ كيف أغدق علينا من كرمه؟

وعندما كان «كليم» يتشكك في رأي أبيه، كانت أمه تردّه عن ذلك بلطفها المعهود قائلة:

– إنَّ والدك على حق يا كليم! فالله دائمًا يتذكَّرَنا ويغدق علينا وإن كان أحيانًا نخن إيماننا.

فكان كليم لا يجيبها، ولكنَّه ينطوي على حزن ومرارة، ولا يستطيع لخجله أن يواجه النَّاس، أمَّا وهو مع أبيه فشعوره بالخجل لا نظير له. فالنَّاس كمَا يراهم ينقسمون فريقين: فريق الأغنياء الذين لديهم فوق كفايتهم مِن الطعام لا يحتاجون إلى الصلاة أو الاستجداء لتدبيره. وفريق

المحرومين الذين لا ينالون الموت إلّا بالصّلاة والتّوسل أو التسول، وإلى هذا الفريق الأخير ينتمي أبواه.

وإنَّه ليعجب كيف أنَّ الله يتوعد الأغنياء ويؤكد أن دخول واحد منهم في ملكوته أمر شاق جدًا، أصعب من دخول الحبل الغليظ في سم الخياط، ومع هذا فهو رحيمٌ بهم، مُتساهل معهم، لا يكلِّفهم في حياتهم هذا الإرهاق، في حين يشق على الفقراء ويجعل كل وجبة يملأون بِها بطونهم مِن الخبز القفار مسألة خطيرة ومشكلة تحتاج منه سبحانه إلى معجزة، وإلى تدَخل مباشر، كأنَّها حادث كوني!

وكم مِن مرة فكّرَ فيها أن يُفارق أُسرته خلسة، فيضرِب في الوديان الذهبية سائرًا على قدميه إلى أن يبلغ الشاطئ. وهناك يتسلّل إلى سفينة مبحرة إلى أمريكا، ويعمل فيها نظير نقله إلى هناك حيث الأرض التي ولِدَ فيها أبواه، الأرض العجيبة التي سمع عنها كما يسمع عن أخبار الجن وقصص علاء الدين، ومتى نزلَ تلك الأرض توجه من فوره إلى بنسلفانيا حيث جداه لأبيه في مزرعتهما.

ولكن قلبه يخذله في آخر وقت ولا يسمح له بمغادرة أهله في هذه الظروف، مع أنه قد تجاوز سن الخامسة عشرة وصارَ أمر مستقبله يؤرقه كثيرًا. ولكنَّه لم يكن يُصارِح والديه بهذا القلق، فهو يعرف سلفًا ما سيقولان له:

– لا تقلق. ودَع الأمر لله. توكَّل مِثلنا على الله، وهو لَن يتخلَّى عنك وهذا التوَّكل شيء جميل طبعًا. ولكنَّه لا يكفي لتعليمه اللاتينية، والرياضيات، وقواعد النحو الآنجليزي. وتلكَ الكتب القديمة التي اِشتراها مِن بائع الكتب الصيني؛ نظير تعليم ولده اللغة الآنجليزية (كلامًا لا كتابة) لَم يستطع الاستفادة منها بمفرده كما يجب؛ ولهذا فهو يشعر بحاجة شديدة إلى معلم. وهو لا يستطيع أن يستجدي التعليم مِن المرسلين، فلئن أكلَ مِن خبز الصدقة الذي يستجديه منهم أبوه، إلَّا أنَّه لا يجسر على اِستجداء شيء لنفسه شخصيًا. وها هو اليوم – وهو في طريقه مِن دكان «فونج» بائِع الكتب الصيني وقد رأى والده يستجدي من الخبَّاز، سمع تعليق ابن الخبَّاز، فنتجت هذه المشاجرة التعسة بمجرد اِبتعاد أبيه عن المكان.

وحين تَذكَّر «فونج» هدأت نفسه. فالنَّاس في هذا البلد لطاف المعشر، ومعظم مَن يعرفهم يبدون له المودة والعطف؛ ولهذا شعر بالأسف لمقاتلته هذا الغلام المسكين. بل أنَّه يراه الآن على حق.. فآل ميلر – على ما عرفوا به مِن تَوكل على الله – متسولون!

ودخل كليم من باب بيته وعلى وجهه نظرة حزينة، حتَّى أن والدته التي كانت تضع على المائدة الصينية المربعة آنية الطعام المصنوعة مِن الفُخَّار توقفت عن عملها ورفعت إليه بصرها، ثُمَّ سألته قائلة بصوتها العذب الذي يشبه صوت الأطفال: «ماذا بك يا ولدي؟»

بل إنَّ وجهها المستدير كان ينضح بالطفولة بالرّغم مِن كُل ما تقاسيه من شظف العيش، ومع أن شعرها الذي كان يومًا ما أحمر، ذهبيًا، ناعمًا، قد صَارَ في لونِ الرماد. وأنَّ كليم ليحبها جدًا، بالرّغم مِن اِنتقاده لمذهبها في الحياة، ومذهب والده أيضًا؛ لأنَّها شديدة الرّقة، فهي ينبوع الحنان للأسرة كلها. ومع ذلك فقد قوى قلبه في هذه اللحظة وصارحها بما يدور في صدرهِ. قائلًا:

– أُماه، لقد بدأت أتبين الحقيقة. إنَّنَا فعلًا متسولون!

فمالت فوق المائدة بدهشة شديدة وقالت له: «ولماذا يا كليم؟..»

فانطلقَ بغير روية يُفضي إليها بما عنده:

– لقد نعتنا غلام صيني بأنَّنَا متسولون؛ فتشاجرت معه. كلَّا! لا تنظري إلي هكذا يا أُماه! ومرّ بنا وليم لين في تلك اللحظة، فأوقفني عن الشجار، ولكنَّه أفهمني أيضًا أنَّ الغلام الصيني كان على حق فيما رمانا به. وهذا هو الواقع!

– أنِيّ أرتجف خوفًا عليك. فلو تخلّينا عن الإيمان، لَن يبقى لنا شيء..

– إنِيّ أُريد مَزيدًا مِن الأمان يا أُماه..

– كُن كأبيك. إنَّ إيمانه لم يتزعرع في أحلك الظروف والمواقف. حتَّى حينما فقدنا المسكين أرثر الصغير. وكان إيمانه مِن القوة حيث استطاع أن يُقويني أنا أيضًا.

وعندئذٍ تهدج صوتها، وارتعدت شفتاها، وأخذت الدموع التي تقف دائمًا عندها على أهبة الاِستعداد تنهمر مدرارًا. واِبتسامتها الخجولة تتلاعب على فمّها، وفي عينها الذهبيتين!

– بل يُمكنه أن يظهر إيمانًا أقوى مما عنده..

– وكيف يُمكن ذلك يا عزيزي؟

– بأن يمتنع عن الذهاب إلى أبواب النَّاس لخبزهم عندما يفرغ من بيتنا الخبز. بهذا يدل على أنَّه واثق بالله حقًا. أو على الأقل يجب ألَّا يستجدي مِن المرسلين الآخرين.

ورفعَ عينيه إلى وجهها لِيرى أثر كلامه، وكم كانت دهشته حين رأى في عينيها الرّعب الشديد، حتَّى لقد أخضرت وجنتاها الشاحبتان عادة. ثُمَّ مدت نحوه يديها، فلمَّا لم يرتم بين ذراعيها، أرتمت هي على الأرض راكعة بجوار مقعده الخيزران المنخفض، فصارَ وجهها في مستوى وجهه، وقالت له في ضراعة:

– ولدي العزيز. إنَّ ما تقولهُ الآن قلتهُ أنا فيما مضى، ولكن في قلبي..

– ولكن لماذا لَمَ تُخبري بهِ أبي؟

وشعر بمزيد مِن الحب لها لأنَّها لم تُحاول خِداعه. ومع هذا لم يجد في نفسه ميلًا للمسّها. لقد أصبحَ يكره اللمس والمداعبة. وأحسَّت هي منه هذا النفور فلم تَلمِسهُ ونهضت فعقدت يديها على صدرها ونظرت إليه في اِبتهال قائلة:

– لم أستطع ذلك للسبب الذي من أجله لا تستطيع أنت أيضًا أن تُصارحه بِما عندك. لأن ذلك خليق أن يحطّم قلبه. أنَّ مجرد تفكيره في أنَّنا نشُك في الله يقتله!

– إنَّ هذا ليس شكًا، بل مُجرد طلب برهان من الله!

– ولكن طلب البرهان لا يكون إلَّا عند الشك. والله لا ينبغي أن نشك فيه يا عزيزي. لقد شرح والدك لنا ذلك. ألَا تذكر يا كليم؟

أجل إنَّه يَذكُر، يَذكُر جيدًا هذا التفسير؛ الذي طالما كرّره على مسامعهما في الصَّلوات الطويلة العائلية التي يعقدها أبوه كل صباح وكل مساء. مؤكدًا لهما أن طلب البرهان من الله معناه الاِنقياد للشيطان، لأنَّه مكتوب «لا تجرب الرّب إلهك»! فالشَّك هو الرّماد الذي يلقيه الشيطان ليعمي به عيون أبناء الرَّب المتوكلين على الله!

واستطردت أُمه قائلة بصوتِها العذب الحنون:

– ثُمَّ إنَّني يا كليم أُحب أَباكَ جدًا، أُحبه بحيث لا أجسر على جرح شعوره. ويجب أن تُحبه أنتَ أيضًا مثل ذلك الحب يا كليم. فَلَيسَ لِأبيكَ في هذا العالم أحد سوانا.. أنا وأنت، لأنّ الأطفال الآخرين صِغار جدًا لا يفقهون.. فيجب أن يكون واثقًا مِن قوة إيماننا كي يتعزّى قلبه ويتقوى عزمه. وأبوك رجل طيب القلب جدًا يا كليم. ليسَ لِطيبته حد. إنَّه أطيبُ رجل رأيتَهُ في حياتي. إنَّه مثل السيد المسيح، لا يُفكر مُطلقًا في نفسه، وفكّرَ في كل إنسان آخر..

وكان هذا صحيحًا. وإن كان كليم يَكره أحيانًا إيثار أَبيهِ، وعدم أَنانيته إلى درجه التّواضع المُخجِل لكليم. بيد أنَّه كان يُدرك أنَّ التّواضع هو صورة الإيثار النّقي الخالص. فيستسلم ويتنهد..

وهذه المرة أيضًا تَنَهد كليم مُستسلمًا لطيبة قلب أَبيه ونقاء ضميره، ثُمَّ نهضَ قائمًا، وسَألَ أُمه قائلًا:

– هل والِدي هنا ؟

– كلَّا. لم يحضر بعد. فقد ذهب للتبشير بالرَّب في السوق..

ترك بول ميلر ميدان السوق حيث كان قد توجه ليبشر بنعمة يسوع المخلص بين هؤلاء النَّاس المشغُولين عن النعمة والخلاص بالبيع والشراء. تركهم يائسًا مِن اِهتمامهم بما يقول، وفي طريقه إلى البيت اِلتقى بالدكتور لين عائدًا مِن تدريس أصول الدّين كعادته بعد ظهر الأربعاء مِن كلّ أسبوع في الكنيسة. وفي الأحوال العادية كان هذا المرسل الطويل القامة، الوسيم

الطلعة يمر جالسًا في عربة الريكشا الخاصة به بكل اِرتياح، ووجاهة فلا يلقى بالاً إلى هذا الرجل القصير الذي يخوض في التّراب بحذاءيه العتيقين. وإن ألقى إليه بالًا فلا يعدو أن يلقى إليه بإيماءةٍ مِن رأسه في مضض. أمّا اليوم فقد خرجَ الدكتور لين بمن مألوف عادته وأوقف الريكشا وقال:

– يا ميلر. هل أستطيع أن أتحدّث إليك قليلًا؟

– بالتّأكيد يا أخي لين..

وابتسم هنري لين لهذا اللقب اِبتسامة هينة. فقد كان في الواقع أخًا بالرّوح طبعًا لجميع البشر؛ لأنَّه فيما يعتقد مسيحي صادق. ولكن كيف يستريح إلى سماع هذه الكلمة تنطلق عاليًا في شوارع بكين من فم رجل أبيض يرتدي هذه الملابس الزرية؟ إنَّه لا يُشجع زوجته أو ولده حينها ينقدان أسرة مرسل الإيمان. وكان يذكّرهما على الدّوام بأنَّ السيد المسيح يمكن التيشير برسالته بطرق متباينة. ومع هذا فقد كان مِن الصّراحة مع نفسه بحيث لم يُنكر أنَّ شعوره في هذه اللحظة بالذّات كان شبيهًا بشعورِهم. فممَّا لا شك فيه أنَّ الجالية الأجنبية في بكين يضع من قدرها وجود آل ميلر هناك. وأسوأ مِن هذا أنَّهم مرسلون يبشرون على الأقل بالمخلص الواحد الذي يبشر به سائر المرسلين. وكم أثارت أسرة مرسل الإيمان الدهشة والتساؤل بسلوكِها العجيب بين صفوف رعايا كنيسته الوطيدة الأركان.

وبدأت تتجمع حول الأمريكيين حلقة مِن النَّاس كَأنَّمَا اِنشَقّ عنهم وجه الأرض. ولَمَّا كان هنري لين واثقًا أنَّه مَا مِن صيني منهم يتكلم الإنجليزية فقد آثر أن يتجاهلهم!

– يا ميلر. خطرَ لي أنَّه يجب علي أن أُنذِركَ. فمِن المحتمل جدًا أن تثور هنا عمّا قريب قلاقل تستهدف الأجانب بالسوء. وما سمعته لا يُطمئن.

– وماذا سمعت يا أخي لين؟

فوضع ميلر يديه على حاجز الريكشا وراحَ ينَظُر بإعجاب إلى وسامة هذا الكهل، ورشاقته الروحية. ولم يخطر له بباله مُطلقًا أن يحسد فخامة مسوحه السوداء، أو بياض ياقته المنشاة، وحرير ربطة عنقه. والتَفَتَ الدكتور لين حوله، ثُمَّ قال بصوت منخفض:

– لقد نما إلي من بعض خدمي وله شقيق من خدم البلاط الإمبراطوري أن الإمبراطورة الوالدة ميَّالة لمساعدة الحزب الرجعي المتطرف مِن المشعوذين الدينيين. وقد اِستعرضت اليوم (شخصيًا) بعض حيلهم التي يزعمون فيها الحصانة ضد الرصاص والحراب. وكل ما تخشاه الإمبراطورة الوالدة هو أسلحتنا النَّارية. فمتى وثقت أن هؤلاء الأوغاد محصَّنُون ضد أسلحتنا فقد تشجعهم على القيام بحركة مسلحة لطرد الأجانب كلهم من البلاد بالعنف؛ ولهذا يجب أن تُفكر في أسرتك يا ميلر.

– وماذا عن أُسرتك أنتَ يا أخي لين؟

– سأُرسلهم إلى شنغاي. فبوارجنا هناك.

ورفع بول ميلر يديه عن الحاجز اللامع وأجال بصره في سجن الصينيين الواقفين من حوله بوجوههم الناحية، ثُمَّ قال ببساطة:

– إنِّي أضع ثقتي في الله واِعتمادى عليه لا على البوارج.

– واجبي على كل حال أن أُنذرك..

– شكرًا لك يا أخي..

ثُمَّ أشار هنري لين إلى قائد الريكشا فَانطَلَقَ به.

ووقفَ بول ميلر وقد غاصَ كعباه في تراب الرسع يرقب الريكشا، إلى أن غابت عن بصره. وكان وجهه مربعًا نحيفًا، وجلده مَا زالَ أبيض محمرًا، مع أنَّه قد اِنقَضَت عشرون سنة مُنذُ سمع أول نداء للرب وجهه إليه في اِجتماع للطائفة في بنسلفانيا. فتركَ مزرعة والِدَه مُتغاضيًا عن أسى هذا الشيخ وفجيعته؛ لفراقه، ثُمَّ رحلَ إلى الصين باِعتبارها البلد الكافر الوحيد، الذي كان قد سمع عنه. وقامَ الإيمان بتدبير كل ما لزم له ولماري في عبور القارة، ثُمَّ في عُبور المحيط الهادي في سفينة بضاعة. ولم يعد إلى وطنه مُنذُ ذلك اليوم، لأنَّه لم يَجد مِن المناسب أن يطلب من الرَّب إجازة طويلة في الوطن، مع أنَّ المرسلين الآخرين يأخذون إجازة عام كامل كل سبع سنين.

ولَمَعَت عيناه، واختلجَ فَمهُ؛ لأنَّه حتَّى ذلك اليوم لم يَكُن واجه اِحتمال الموت، لقد جاعوا أحيانًا كثيرة، ومرضوا في بعض الأحيان. وحزنه

على آرثر الصغير بقي كامِنًا في أعماقِهِ مع أنَّه اجتهد كثيرًا ألَّا يُفكر فيه. أمَّا الموت على يد هؤلاء القساة، وموت ميري والصِّغار أيضًا فشيء لم يحلم به حتَّى في تلك الليالي التي قام الشيطان يجربه فيها بالشكوك، وبالحنين إلى الوطن، وإلى حياة المزرعة النَّدية التي عاشها فيما مضى.

نعم إنَّه يشعر بالحنين إلى الوطن حتَّى الآن، ولكنَّه لم يعد يُصارِح ماري بذلك. لأنَّهما في البداية كانا يبكيان معًا من شِدة ذلك الحنين إلى أن يستغرقا في النوم. وقد كَتَبَت إليه أُمه مرّات كثيرة إلى أن طواها الموت مُنذُ عشر سنين. أمّا والِدَه فلم يكتب إليه كلمة واحدة. وهو لا يدري اليوم إن كان حيًا أو ميتًا.

وها هو يقف الآن في وسط الشارع الصيني، وقد أخذَ الظّلام يخيم رويدًا رويدًا يستمع إلى تلك الأصوات المألُوفة في كل مساء، مِن بكاء طفل مريض، أو صِياح أُم تُنادي أولادها ليعودوا مِن اللعب في الطريق إلى البيت. وأخذَ الفزع يَغمُرَهُ كمَا يغمر كل غريب في أرض غريبة. فأين يستطيع أن يفر هو وأُسرته؟ وتراءت له زوجته برقتها وحنانها، والبنتان الصغيرتان، الشاحبتان، وولده اليافع. إنَّ هؤلاء هم كل ما يملك مِن الدنيا. أَعطاه الرَّب إياهم. ولكن ماذا أَعطاهم هو؟ لقد حرَمَهُم مَن حقهم الموروث في المزرعة. ومِن الأمان الذي يتمتع به أبناء جِنسَهُم، بل ومِن سقف أمين يُظلّل رؤوسهم.

لئن قتلَ الأشرار هؤلاء الذين يرعاهم فلن يثق بعدها في الله. وفي ظلام الليل مدَّ ذراعيه في ضراعة نحو السماء. وكانت النّجوم المتلألئة تومض فوق رأسه. والقمر لم يظهر بعد، فلا يستطيع أن يراه في الظّلام أحد. وركعَ بول ميلر على ركبتيه، وراحَ يَصرُخ مُخاطبًا الرَّب ثُمَّ جمع يديه فوق صدره ورفع وجهه، وأَغمضَ عينيه عندما خُيّلَ إليه أنَّ النّجوم تضحك منه. ثُمَّ ناجى ربّه همسًا:

– يا رَب. يا مَن تَنظُر إلي في هذه اللحظة. وتَنظُر أيضًا إلى بيتي القديم العزيز في الجانب الآخر مِن البحر. ذلك البيت الذي تركته يا رَب على اِعتقاد أنَّ هذه إرادَتَك ورغبَتَك. أنَّك أنت تستطيع أن تنظر في القلوب، وتعرف هل حقًا يُريد الأشرار أن يمدّوا أيديهم إلى حياتنا. وبكل تواضع يا رَب أُخبرك إنَّني لاحظت بنفسي شيئًا مِن الاِختلاف، في هؤلاء الصينيين في الأشهُر الأخيرة. فصاحب البيت يُريد مِنَّا أن نرحل ولا يبدي الأسباب. وكنت أدفع له الإيجار بِاستمرار مع إنَّك أنت تعرف يا رَب أن النقود لم تكن موجودة في الوقت المعين. بيد أنذَك كنت تدبر الأمر برحمتك. أَنقذ يا رَب حياتنا، ونجنا، ولا سيما هؤلاء الأعزاء الذين أعطيتني إياهم. وفي الختام أقول لِتَكُن مشيئتك يا رَب. وإنَّني لا يُمكن أن أُحبهم أكثر منك. آمين.

وغاصت رأسه فوق صدره، وأستقرَ ذقنه فوق راحة يده الموضوعتين هناك، ولبث صامتًا ينتظر مدد الإيمان كي تنفجر ينابيعه في قلبه. وأخيرًا

جاء ذلك المدد فتدفقت الدماء حارة في عروقه وقوي قلبه كأنَّما شَرِبَ كأسًا مِن الخمر. وأوحى إليه أنَّه صوابًا فعل. وكَأنَّه يسمع بوضوح تلك الكلمات:

– لاتخف يا بول ميلر، لأنَّني معك دائمًا.

فأنحنى بول ميلر وقال بامتنان عظيم:

– آمين أيّها السيد الرّب الكريم..

ثُمَّ نهضَ وأخذَ يمشي بخطى حثيثة في الشوارع المقفرة، متجهًا إلى الحجرات الأربع حيث ينتظره أحبَاؤه. وكان يُقاوم بِاجتهاد حبّه المتزايد لهم، ويقول لنفسه أنَّهم لَيسوا كل ما يملك، لأن لديه أيضًا المحبة الإلاهية التي لا نهاية لها.

وبعد أقل مِن نِصف ساعة فتحَ باب البيت، ورأى المنظر الذي طَالما أدخلَ السرور إلى قلبه: رأى المائدة، وقد وضِعَت فوقها وجبة المساء. وجلست ماري بجوار مِصباح البترول ترتق ثوبًا. وبجوارِها كليم يدرس في بعض كتبه العتيقة. أمَّا الطفلتان فكانتا تلهوان بعروس من الطّين جادت عليهما بها إمرأة صينية.

ورفعَ الجميع أبصَارهم عندما دخلَ وسمع تحيتهم. وإذا به لا يستطيع مغالبة الدموع التي اِنهمرت مِن عينيه. ونَهضَت ماري للقائه واَتَّجَهَت نحوه. وسرّه أنَّ الضوء كان خافتًا، ولكنَّه على سبيل الاِحتياط أغلقَ عينيه حين

أحتضنها، وقبَّلها لكي لا تسقط دموعه على وجهها. وبعد ذلك اتَّجه نحو الصغيرتين فقبَّلهما، وتحاشى عيني ابنه. حتَّى إذا تغلَّبَ على هذه النوبة الفجائية مِن الحنان الدَّامع لكليم ابنه:

– أي كتاب هذا يا ولدي ؟

–كتاب تاريخ يا أبي. حصَلت عليه اليوم من دكان مستر فونج.

– أي تاريخ يا ولدي؟..

– تاريخ أمريكا..

ولم يُعلق بشيء لأنَّه كان مشغولًا بالسعادة التي غمرت قلبه وهو في وسط أولاده وزوجته. ومرة أخرى وضع ثقته في الله وعول على أن يكتم عنهم أنباء الخطر.

البيت الكبير

أُضِيئت المصابيح كلها في بيت الإرسالية الكبير. وكان الدكتور هنري لين في الطابق العلوي يرتدي ملابس السهرة اِستعدادًا للعشاء كعادته كل ليلة. فإنَّه تحت ضغط زوجته المتمسكة بأهداب هذه التكاليف لا يستطيع أن ينطلق على سجيته.

مُنذُ عشرين سنة حين غادر الكلية كان من ذلك الطراز الذي يسميه هو الآن الطراز الحالم. إذ كان يعتقد أن رجل الله يجب أن يتقشف. وسنوات الحرب الأهلية ساعدت كثيرًا على تكوين تفكيره وضميره، وإن كانت أُسرته لم تشترك في الحرب بأشخاصِها. وإنَّما ساعدوا على إيواء العبيد الفارين من الجنوب ومنحوهم القروض للإستقرار والعمل. ومع أن والده كان من شيوخ الكنيسة الأسقفية في كامبردج، إلَّا أنَّه اِستشاط غضبًا حينما أَعلنَ إليه ولده رغبته في أن يكون مرسلًا. وقال له:

– إنَّنا طبعًا يجب أن نبعث مرسلين إلى أراضي الكفار. ولكنِّي لا أرى أن نبعث إليهم بخيرة شبابنا. يكفي أن ننفق مِن مالنا على مَن يذهبون. وأنا في شبابي كنت أُريد أن أتطوع في الحرب. ولم يوافق أبي فأطعته.

– لأن الله لم يكن ناداك لتذهب إلى الحرب..

وقد أفاده الصّمود أمام والده كثيرًا حينما وقع في غرام هيلين، فاندفنت بعد بِضعة أشهر. وكانت يومئذٍ أوسم فتاة رآها، تدل طلعتها وقامتها على النُبل. وكان هو طويلًا، بيد أنَّها كانت أطول منه، بيد أنها كانت أطول منه. ذات خيلاء دنيوي كما اِكتشف فيما بعد. وخرّ هنري على ركبتيه يسأل الله المعونة كي يستطيع ترويضها، ولكنَّه لم يطلب منه المعونة كي ينساها أو يتخلى عنها. وظلّت هي تراوغه عامين تقريبًا، وكانت تُحبه واعترفت له بذلك. بيد أنَّها كانت غير مُستعدة فشاركته حياة المرسلين التي صمّم أن يحياها. وكانت تُعارضه في ذلك بشدة وتقول له:

– لست أُطالبك بالتّخلي عن الكهنوت. ولكنّي أقول إن لدينا في أرض الوطن أرواحًا تحتاج إلى من يُنقذها فامكث هنا.

هذا ما قاله مُنذُ عشرين سنة. وإنَّه ليذكُر تمامًا كيف ألقت إليه هذه الكلمات مِن طولها الشامخ، ومِن ثوبها الأزرق المشرف ومعطفها من نفس اللون. بل أن قبعتها أيضًا كانت محلاة بريش أزرق، بيد أنَّها مُحاطة بحرف أبيض. كانت هيلين تبدو كالملكات بهيبتها وبلهجتها الآمرة وثقتها بنفسها. وكان قلبه يَترنّح تحت قوة إرادتها. بيد أنَّه استجمع رباطة جأشه وقال لها:

– ولكي يجب أن أخدم الرّب حيث أمَرَني.

فهزّت كتفيها، وقاومته ستة أشهر أخرى. ظلَّ طول الليل والنَّهار يطلب مِن الرّب قوة لنفسه على مقاومتها، ومعونة على ترقيق قلبها. ومنحه الله القوة. أمّا رقة قلبها فلم يجد لها أثرًا. فاَنتزعَ نفسه منها في مساء

يوم من أيام الصيف، وكانا على الشاطئ، ومِن حولها كوكبة مِن الشبان يتبارون في خطب ودّها. وجمعَ شجاعته وسافرَ إلى الصين، وهو لا يدري هل تتبعه أم لا.

فلمَّا تأكدت أنَّها يمكن أن تعيش في بكين حياة متحضرة؛ بعثت إليه خلابًا تقول له إنَّها مُستعدة للزواج مِنه إذا نقل إرساليته مِن الريف في الداخل إلى العاصمة بكين. وأذعن لرغبتها. فجاءت إلى هناك، وأشرفت على إدارة البيت الكبير بكل حزم وتدبير.

وهو الآن لا يستطيع أن يمنع نفسه مِن الشعور بشيء مِن القلق على ولده. ففي هذا الغلام شيء جامد. وفيه زهو وكبرياء. أمَّا ضحكه فنادر جدًا. ومَا أسرعه إلى الغضب إذا تندروا عليه.

وابَتسم هنري لين عندما تَذكّر حادِثًا وقعَ لإبنه الوحيد، وهو في سن التاسعة. فقد أَصرّت أُمه أن يستأذن مِن الإمبراطورة الوالدة في اِصطحابه معها إلى هناك. وأَذِنَت الإمبراطورة الوالدة على غير العادة لأنَّها أرادت أن ترى كيف يكون الأطفال الأجانب. وفي يوم شديد البرد ذهب وليم مع أُمه، وانَتظرَ معها بضع ساعات في حجرة مثلوجة الهواء. وعند الظُهر أدخلهما حصى طويل القامة إلى الحضرة. ومشى وليم خلف أُمه. ثُمَّ انحنى كما أمره الخصى اِنحِنَاء عميقًا أمام المرأة العجوز، الجالسة فوق عرش التنين المُرَصَع بالجواهر السّاطعة. وكانت الإمبراطورة مُنشرحة المزاج. والشّمس تسقط على أَثوابها المذهبة، ويدها الغاصتين بالجواهر الثُمَّينة. وراحَ وليم

يُحملق في كل شيء فيها إلى أن ثبتت نظراته على وجهها المخطط، وعينيها الكبيرتين، وشعرها الحافل بالماسات البراقة. وتوقع الحاضِرون جميعًا أن يثُور غضب الإمبراطورة لهذه الجسارة. ولكن غضبها لم يثر لأنَّها قرأت في عيني الصبي الأمريكي الوسيم إعجابًا شديدًا، يصل إلى حد التقديس والذُهول. فسرَّها ذلك وضحكت. وإذا ضحكت الإمبراطورة وجَبَ على الجميع أن يضحكوا. وقد ضحكوا فعلًا فيها عدا وليم الذي ظلَّ يُحملق فيها إلى أن تغيّرت سحنة الإمبراطورة فجأة، وحركت أصابعها مِن فوق ركبتيها ثُمَّ أشاحت برأسها، فأسرعَ كبير الخصيان بإخراجهما.

وفي البيت راح وليم يسأل أباه:

– لماذا غضبت الإمبراطورة منّي؟

– ومَن الذي يستطيع أن يعرف سريرة الإمبراطورة؟

فأسرعت مسز لين تقول لولدها:

– يا وليم. تَذَكَّر جيدًا أنَّك الصبي الأمريكي الأوحد، الذي سمح له أن يرى جلالة الإمبراطورة الوالدة. هذا هو الشيء المهم. أليس كذلك؟

ولم يعجب الدكتور لين هذا الاتّجاه فذكّرها قائلًا:

– يا هيلين. الجميع في نظر الله سواسية.

– أنا أعرِف هذا طبعًا. ولكنّنا لسنَا الله. والإمبراطورة هي الإمبراطورة. ولا فائدة في أن نزعم أنَّ وليم لم يحظ اليوم بشرف عظيم. لأن الواقع أنَّه حظَى فعلًا بهذا الشرف.

وتنهد الدكتور لين حين فكّر في أمر ولده. وخشى أن يشب دنيويًا كوالدته. فهو قد سمى وليم على اسم والد هلين لا على اسم والده هو، وهو لا يدري إن كان للفتى قلب رقيق أم لا، فذلك شيء ألم يجربه. ولكن رُبَمَا لم تعرف قلوب الصبيان الرّقة إلَّا بعد أن يُرطبها ندى الشباب. وتَذَكَّر الدكتور لين نفسه، وكيف كان صبيًا عنيدًا جامد الحس، إلى أن ناهز العشرين وأدركَ فجأة أن الحياة مِنحة في يده أن يُحسن اِستخدامها ويهدرها. وفي تلك اللحظة مِن شبابه خاطبه الرَّب.

بدأ العشاء بدقات الطبل الصيني، فهبط الدكتور لين السلم الفخم المكسو بالسجاد، وهو لا يدري كيف يبلغ أخبار الخطر إلى أُسرته. إنَّ السفارة الأمريكية ستَتَخِذ التدابير، ولكن هل ينتظر حتذَى ذلك الحين؟ إنَّ وليم على أهبة دخول الكلية. وهيلين طالَ شوقها لقضاء الصيف في الوطن..

ودخلَ قاعة المائدة، حين كانت الأسرة في اِنتظاره، وجلسَ على رأس المائدة البيضاوية التي بسط فوقها مفرش مِن التيل الفاخر المُطرز بأيدي الرّاهبات الكاثوليكيات الصينيات بحيث لم يتكلف شيئًا كثيرًا مع أنَّه يُساوي الشيء الكثير. وهو ميّال دائمًا لإرضاء نِزعات التّرف والبذخ في

حدود العقول تقرّبًا إليها بعد الذي أقبلت عليه مِن التضحية في سبيل الزواج مِنه فقطعت نفسها عن مباهج نيويورك وعن أهلها وصديقاتها.

وطوى الدكتور لين منشفنه وردد طرفه بين أعضاء الأسرة. إن روث تزداد مع النّمو جمالًا، فهي أشبه بأهله. أمّا وليم وهنريتا فأشبه بأمهما. وهنريتا على الخصوص ذاتَ قلب طيب مُحب للخير. وهش في وجوههم مسرورًا ثُمَّ قال:

– ما رأي أسرتي في تمضية هذا الصيف في الوطن؟

فصَاحت زوجته مُتهللة:

– ولكنّك يا هنري قلت مِن قبل إنَّ هذا غير ممكن.

– يُمكننا أن نؤجر منزلنا الصيفي على الشاطئ ونستفيد بإيجاره في نفقات سفركم.

فقالت هنريتا بصوتها الخفيض:

– أنا لا أُريد أن أذهب.

أمّا مسز لين فقالت:

– أتعتقد أنَّ وليم على اِستعداد لامتحان دخول هارفارد؟

– أعتقد يا أُماه أنَّني مُستعد.

والواقع أنَّه كان سعيدًا بالتّخلص مِن مُعاشرة الطلبة الإنجليز المتعجرفين الذين مَا زالوا يُسمون الأمريكيين جميعًا بالعصاة. والمرسلين بالكلاب الصفر..!

وأخيرًا لم يستطع الدكتور لين أن يكتم الحقيقة فقال:

– يجدر بي أن أُخبِركُم، فالحالة الحاضرة لا تروقني كثيرًا. وهناك تدابير خفية تتخذ في الأقاليم. والإمبراطور الشاب اِختلف مرة ثانية مع الإمبراطورة العجوز فحبسته. والشّائع على الألسنة أنَّها قرّرت قتل أساتذته لتشجيعهم إياه على إعتناق الأفكار الغريبة. ولكنَّها مُضطرة مُقابل ذلك أن ترضي وزراءها الغاضبين لما منحته للأجانب مِن اِمتيازات ولا سيما للألمان. وليس من المُستبعد أن تنبت في رأسها الأحمق فكرة اِستئصال جميع الأجانب مِن بلاد الصين. ولهذا لا أُريد أن تكون أُسرتي هنا.

واَزداد شُحُوب وجهه الأبيض، مع أنَّه تظاهرَ بالاِستخفاف. فقالت زوجته:

– كان اِعتقادي دائمًا أنَّ الصينيين يكرهوننا.

– أنا لا أعتقد أنَّهم يكرهوننا.

– ألم يَقتِلوا المرسلين الألمان؟

– كان هذا حادثًا عرضيًا كما قلت لك يا هيلين مِن قبل. فقد صادفَ القراصنة مدينة بِها المرسلون الألمان. فقتلوهم فيمن قتلوا.

– ولكن حتَّى القراصنة ليس لهم حق في قتل الأجانب.

وعندئذٍ قالت روث الصغيرة بصوتها الرقيق العذب:

– إنَّ خادِمنا وانج صيني وهو لا يكرهنا يا أُمي.

– لأنَّنا ندفع له نقودًا..

وعندئذٍ وجدَ الدكتور لين نفسه مضطرًا التصحيح أخطاء زوجته حِرصًا على فهم أولاده:

– إن كان الصينيون يشعرون بالعداء للأجانب؛ فذلك في الواقع نتيجة لِسلوك الألمان. فقد اِستولوا على الموانئ، وطلبوا رخصة باستخدام الخليج كلّه، ثُمَّ طالبوا بغرامة ثقيلة جدًا مُتعلّلين بمقتل المرسلين الألمان. ثُمَّ هناك أيضًا سوء تصرف الروسيين، ثُمَّ الإنجليز، ثُمَّ حكومتنا نفسها. فهذه الأسباب كُلّها وراء كل ما يُسمى بحركة العداء للأجانب. والصينيون معذورون في كراهتهم لتجزئة بلاده والتهامها قطعًا.

فقاطعته زوجته مُحتدة:

– أنتَ طبعًا يا هنري ترى الصينيين دائمًا على صواب. وما دامَ هناك خطر فإنّي أُحب أن أُسافر فورًا. بيد أنّي لَن أُسافر بدونك. ولَن أسمح لك بتضحية نفسك في سبيل هؤلاء النَّاس، فواجبك الأول حو أولادك ونحوي.

– لا أظن أنِّي أستطيع السفر. بل لا أظن أنَّه يجوز لي أن أُسافر. فالصينيون المسيحيون يتوقعون منّي أن أبقى معهم. لأن عصابات الرجعيين ستكون حربًا عليهم كمَا هي حرب علينا حين يفلت الزمام. وبطبيعة الحال سيحمينا جنود القنصلية. ولكنّي لا أُريد لكِ وللأطفال أن تُواجهوا خطر الحصار. وفي الوقت نفسه لا يجدر بي أن أهرب. ذلك شيء يستحيل أن يهضمه ضميري. فواجبي نحو الله يأتي أولًا.

وسادَ الصمت بين الأولاد. فقد أدركوا مِن لهجة الحزم التي تكلم بها والدهم على غير عادته أنَّه قد وطد النفس على خوض ملحمة كلامية حادة مع أُمهم. وهم يعرفون بالتجربة المتكررة أنَّ الغلبة في النهاية لها. ولكن حين يحشر والدهم الله في الحديث مُنذُ بداية المناقشة فالنَّصر في النهاية سيكون له. فهو بمفرده ضعيف أمامها. أمّا تحت تلك القيادة الرَّبانية فهو قادر على الصّمود أمام كل شيء. حتَّى أمامها!

وصَحَّ مَا توقعوه. فبعد بضعة أيام كانت مسز لين قد أتمت اِستعدادها للرحيل. وكان اليوم يوم سبت، والدكتور لين عاكف على كتابة عظة يوم الأحد. وقد أختارَ لذلك آية عجيبة تُناسب الظرف، وراح يكد ذهنه في اِستخراج معانيها الغامضة. عندما سمع صوت زوجته تُناديه بصوتها المرتفع. ثُمَّ اَنفتحَ باب مكتبه على الفور ورأى وليم، وكانت ملابس الغُلام مُعفّرة بالتّراب، ووجهه مُلوثًا بالطين، وفي جبينه شج. وقد توقف عند العتبة. فنهضَ الدكتور لين مِن مقعده صارخًا:

– وليم! ماذا حدث لك؟

فتحركت شفتا وليم وبقى وجهه كلّه جامدًا:

– النَّاس.. الغوغاء.

– ماذا تقول؟

ثُمَّ أسرع إلى البهو فوجد زوجته جالسة هناك فوق مقعد صيني دقيق الصنع وكأنَّها لِشدة شحوبها مغمى عليها. فصاحَ بها:

– هيلين. ماذا؟

– كان هناك شغب. وحسِبت أنَّنا لن نستطيع الإفلات. ولولا «لاولى» ما نجونا.

– وأين حدث ذلك؟

– عند دكان الخياط في شارِع هاتامين حيثُ أذهب دائمًا لشراء ملابس وليم. فهو كما تعلم كان في حاجة إلى بدلة جديدة..

– وما الذي صنعه وليم؟ فقد أدركَ الرجل بغريزته أنَّه لا بُد أنَّ أحدًا صنعَ شيئًا. فالغوغاء لا يتَّجهون لغير سبب، ولا يعتَدون بغير اِستفزاز. فاَنتحبت مسز لين وقالت:

– لا شيء. لا أدري! كان هناك رجل نائم عند الريكشا عندما خرجنا من دكان الخياط.

كان هذا الرجل مُتسولًا فدفعه وليم بقدمه. لم يرفسه بل دفعه فقط. فهجمَ علينا النَّاس مِن جميع الأبواب. آه يا هنري! كم أُريد أن نذهب من هنا جميعًا!

فجعل يسري عنها ويهدئ روعها بلطف، وأمر وانج يعمل الشاي، ثُمَّ قالَ لها:

– إنِّي أُريد طبعًا أن تذهبوا. فالجمهور الآن شديد الحساسية. ولا تَخرجي مرة أخرى يا عزيزي وإلَّا حدثَ شيء خطير حقًا.

– إن الذي حدث شيء خطير فعلًا. وليتكَ رأيت وجوههم المخيفة..

ولكن أين وليم؟ أبحث عنه حالًا يا هنري. لقد دفعوه فسقط في التراب. ولو لم يُبادر لاولى بإنقاذه لوطئوه بأقدامهم إلى أن مات.

– اِذَهبي الآن إلى حجرة الجلوس وانتظري الشاي.

لقد كان مُضطربًا جدًا، ولكنَّه لم يرَ داعيًا للإفصاحِ عن قلقه. وكم مِن مره نبّه وليم وحذّره مِن لمس الصينيين. فهم يعتبرون اللمس إهانة للكرامة. وقد حدثَ عندما كان وليم في السادسة مِن عمره، وقد أخذَه معه للفرجة على مهرجان رأس السنة أن جذب الصغير ذيل رداء رجل مُسن كان واقفًا أمامه عن غير قصد لأنَّه أرادَ المرور. فثَارَ غضب الرجل، واَضطّر الدكتور لين للإعتذار مِرارًا وتكرارًا. ولم يشفع لوليم إلَّا صغر سنه.

وبحثَ الدكتور لين عن وليم فوجدَه في حُجرته يُبدل ثيابه في الطابق العلوي بعد أن وضعَ ضمادة على جبينه. وسأله أُبوه:

– هل عقّمت هذا الجرح أولًا؟

– أجل يا سيدي، تعقيمًا كافيًا.

وكان وجه الغلام ما زالَ شاحبًا. فقال أُبوه:

– إيّاك مرة أخرى أن تمس صينيًا. أسامع أنتَ؟

– إنَّه لم يكن سوى متسول اِتَّكأ على الريكشا فدفعته.

فصاحَ أبوه بإصرار وبصوت عالٍ:

– أيًا كان الشخص أو كانت صِناعته، لا تمس صينيًا أبدًا.

ودار وليم على عقبيه فأعطى ظهره لأبيه، وبدأ يربط رِباط عنقه. وكانت يداه ترتعدان؛ ولهذا أعطى أباه ظهره لكي لا يراهُما. وحقَّ له أن يرتعد فقد هجم الرعاع عليه وهم لا يعلمون عنه شيئًا. إنَّه لَن يشعر بعد ذلك بالأمان أبدًا وهو في بلاد الصين. وكم يُريد أن يُفارقه، فلا يعود إليها ويبتعد إلى الأبد عن هؤلاء الغوغاء.

وفي الأسبوع التّالي كان قد غادرَ مع أُمه وأُخته بكين.

ثورة في بكين

اَحتفلت العاصمة الإمبراطورية بعيد الربيع الرّائق بالبهجة المألوفة والاِنطلاق، فالرّجال يطُوفون بالشوارِع، وفي أيديهم أقفاص العصافير، أمَّا النِّساء فيحملنَّ أطفالَهُنَّ. وفوق أبواب البيوت عُلّقت الأغصان الخضراء. كمَا أمرَ البلاط الإمبراطوري بإقامة مهرجانات عظيمة بمناسبة العيد. وصدرت إرادة الإمبراطورة الوالدة بتعميم الملاهي المسرحية.

كان كل شيء في المدينة الكبيرة يبدو هادئًا مُستقرًا. ومع ذلك فكل صيني بلغَ الحُلم كان يعلم أن ذلك الهدوء الظاّهري لا يدل على بواطن الحقيقة. فقد أعربت الإمبراطورة عن حقيقة شعورها في شهر ديسمبر السّابق عندما قتلَ المرسلان الألمانيان في مقاطعة شانتونج. وطلبت الحكومات الأجنبية عزل الحاكم يوسيين. وتواترت الأخبار مِن دوائر القصر في جميع أطراف المدينة عن طريق الخصيان والخدم بأن الإمبراطورية العجوز رفضت في أول الأمر سحب يوسيين. ثُمَّ أحاطَ بِها وزراؤها وحدَثوها عن حجم المدافع الأجنبية، وعدد الجنود الواقفة على قدم الاِستعداد تحت راياتها. وعندئذٍ تراجعت وعزلت يوسيين. بيد أنَّها منحته حكم إمارة أكبر مِن مقاطعات الداخل هي إمارة شانسي وبذلك رفعته فوق مرتبته، وَضَحكَ النَّاس ساخرين مِن الأجانب ومُعجبين بدهاء إمبراطورتهم وعنادها.

وكان الربيع في تلك السنة مِن أجمل ما عرف في الصين الشمالية. فاَستَرَدَّ الأمريكيون المقيمون في بكين طمأنينتهم لَمَا بدا لهم مِن حرارة الشَّمس، واِزدهار الشجر المثُمَّر، ودماثة الجماهير الممراحة في الشوارع. وتقرر سحب الجنود الذين أتوا لتعزيز الحاميات القنصلية بعد أن دفعت الحكومة التعويض المطلوب عن مقتل المرسلين الألمانيين. ومع هذا فقد حذَّر القناصل جميع الغربيين مِن البقاء في الشوارِع أثناء الإحتفالات تجنُبًا لكل اِحتكاك. بيد أن اليوم مرَّ بسلام فخرجَ الأجانب بعد ظهره مِن مكامنهم وتجوّلوا يتشمسون.

ولم يلحظ كليم ميلر وهو يتجول في الشوارع ذلك اليوم أي شيء غير عادي. وكان كليم مُنذُ تَشاجرَ مع الفتى الصيني وتدخل وليم لين في الأمر قد قاطع جميع البيض فيما عدا أُسرته فلم يسمع بأنباء النذير. ولئن شام القلق في والده فعهده به قلقًا على الدَّوام إمّا لنقص في الخبز أو مسألة من مسائل التبشير. وكان مِن جانبه يجتهد في مُغالبة جوعه لكي لا يتألم أَبوه الذي كان يُحبه كثيرًا، ويرى فيه طفولته. فمُعظم اِعتماده على تلك الحلوى، والفطائر الوطنية التي يجدها دائمًا على المائدة في منزل المستر فونج المتصل بدكانه حين يذهب لتدريس اِبنه الأكبر.

وكان المستر فونج يُلاحظ نحافة الصبي الأمريكى فتأخذه به الشفقة. ويقول زوجته أُم أولاده مسز فونج:

– أُنظري كيف يأكل الأجنبي الصغير الحلوى، إنَّه لا يظفر بكفايته مِن الطعام. فضعي شيئًا مِن القطائف المحشوة باللحم في الطبق غدًا، واسلقي بيضًا وقشريه ودعيه على المائدة قبل موعد دخوله كأنّها أصناف مِن الحلوى المبذولة للرائح والغادي.

وكانت مسز فوج سيدة بوذية حرام في شريعتها أكل اللحم والبيض. ولكنَّها كانت تعتقد أن الأجانب لَن يدخلوا الجنة على كلّ حال. ثُمَّ إنَّها ستثاب ثوابًا لا شكَّ فيه إذ تُطعم إنسانًا لا أمل في أن يرد لها الصنيع بمثله، فأقبلت على تنفيذ أمر زوجها عن طيب خاطر. وهكذا كان كليم يجد في كل يوم لونًا من طيبات الطعام يحشو به معدته الخاوية. وكان تلميذه يوسان يحثَّه على الأكل حثًا بتكليف من والدته. فكان كليم يأكل وهو يُحدّث نفسه:

– من يدري؟ لعلّ هذا أيضًا من تدبير الله؟

بيد أنَّه كان يجد صعوبة في اِعتقاد أن الرَّب يُسَخر الكفار لتحقيق مراحمه. وبذلك كان إيمانه يزداد تزعزعًا في كل يوم لولا شعوره بحاجة جسمه النَّامي إلى الطعام، وإنَّه كان يتضرر جوعًا لولا هذه النجدة التي لا يُمكن أن يعزوها إلَّا للرب. لم يتحدث إليه أحد عن الإمبراطورة وما يدور في رأسها. ولمْ يُخبره أحد عن المطالب الجديدة التي تقدمت بها إيطاليا وألمانيا. فألمانيا بلد لا يعرف عنه شيئًا مطلقًا، أمَّا إيطاليا فلا يعرف عنها شيئًا إلَّا أن خريستوف كولمبوس إيطالي. كذلك لم ينبئه أحد بنبأ البوارج

الحربية التي حضرت إلى شواطئ الصين من بريطانيا وألمانيا وفرنسا، فعالمه الخاص هو تراب بيكين. وحين يحلم كان حلمه دائمًا حول مزرعة في مكان بعيد أسمه بنسلفانيا لا يعرف عنه شيئًا سوى أنَّه مكان كبير أكبر من المدينة. ولم يكن يجسر على سؤال والديه لأنَّه عرف مُنذُ صغره أنّ السؤال عن هذا المكان يورثهما الحزن والغم، بل أن والدته في بعض الأحيان كانت تنتحب باكية.

انتهى المهرجان وتوالت أيام الرّبيع حتَّى أنقضى مايو وحلّ يونيه. وأخذَ النَّاس يأكلون المشمش الأصفر الكبير. وذات صباح وضعت مسز فونج طبقًا كبيرًا منه على المائدة وقالت لكليم:

- كُلْ هذه أيّها الأخ فهي تنقي الدم.

فأكلَ ثمرتين أستطابهما. ثُمَّ فعلَ شيئًا ما كان ليستبيحه في الظروف العادية. إذ خبأ في جيبه ثمرتين اثنتين ليعطيهما أُختيه الصغيرتين حين يعود من الدرس إلى البيت بشرط أن تأكلاها خلسة حتَّى لا يضبطهما الوالد ويكتشف في مسز فونج موردًا جديدًا للطعام ووسيلة لتحقيق مراحم الرَّب عليه وعلى ذويه. فمُنذُ سمعَ من فم وليم لين ذلك النّقد المر لمسلك والده وهو لا يحتمل التفكير في أن يستجدي والده مِن الصينيين. ولكن مَا رآه من تلهف أُختيه الصغيرتين حين أختطفتا منه المشمشتين جعله لا يستطع منع نفسه في اليوم التّالي مِن إخفاء كعكات صغار في جيوبه وفطيرتين محشوتين باللحم. وبدأت حدة سخطه ولومه لأبيه تخف كثيرًا. بل بدأ

يعذره في كل ما يصنع مِن أجل طعام الأسرة. فهو قد وجدَ نفسه يسرق في سبيل أُختيه. وهل السّرقة ليست أسوأ من الاستجداء باسم الرَّب؟

وذات صباح دخل مستر فونج الحجرة المشمسة وجلسَ، ثُمَّ جمع عباءته الحريرية السوداء الكالحة على ركبتيه. ونظرَ إلى كليم، ثُمَّ قالَ:

– عندي ما أقوله لك أيّها الأخ الصغير.

فأضطّرب كليم لأنَّه حسبه سيُحدّثه عن سرِقاته وسأله بخوف:

– وما ذاك أيها الأخ الكبير؟

فقال الرجل برقة شديدة:

– لا تكف عن الأكل.. كل وأنا أتحدّث إليك.

ثُمَّ أمر ولده يوسان أن يذهب ويلعب. وزادَ اِضطّراب كليم لأنَّه خشي أن يستغني الرجل عن خدماته، فمِن أين يجد بعد ذلك الكتب والطعام؟

وزادت ريبته حين نهضَ فوج فأغلقَ الباب بالمزلاج ثُمَّ جلسَ مُلتصقًا بكليم بحيث تخرج الكلمات من شفتيه إلى أُذني الولد الأبيض، ثُمَّ أفضى إليه بهذه الكلمات المروعة القليلة:

– إنّ الإمبراطورة العجوز على وشك أن تأمر بطرد جميع الأجانب مِن مدينتنا، بل مِن البلاد كُلها.

– ولكن لماذا؟

– خفض صوتك. ألم تسمع شيئًا؟ ألم ينذروا أباك؟ يجب أن ترحلوا بسرعة وإلَّا..

ثُمَّ مرَّ مستر فوج بسبابته في عنقه علامة على الذبح.

– وماذا فعل الأجانب؟

وفي الوقت نفسه شعرَ بالبرودة تسري في عظامه وارتجفت ركبتاه، فتنحنح مستر فونج وقال له:

– إنَّ الحكومات الأجنبية أخذت كما تعلم تتقاسم بلادنا كأنَّها شمامة.

– ولكنَّنا أمريكيون ولم تأخذ شيئًا.

– أنا أعلم أنَّكم أمريكيون، والأمريكيون لا يقتطعون شيئًا بالسّكِين لأنفسهم. بل يأتون بعد أن يأخذ كل واحد نصيبه ويقولون لنا: «ما دامَ كل شعب قد أخذَ قطعة فنحن أيضًا يجب أن نأخذ مِثلهم شيئًا على سبيل الهدية».

– إنِّي لم أسمع شيئًا مِن هذا.

– ليسَ هناك مُتسع مِن الوقت لأُخبرك بكل شيء الآن فاسمع جيدًا هذه الكلمة أيّها الأخ الصغير. اذهب إلى البيت، وأخبر والديك أن يهرَبا

إلى شنغاي فالوقت عصيب، ولا تتأخروا حتَّى يُقطع الطريق، ولي قريب يعمل في القصر ومَا سمعته منه يجعلني أخشى أن تقع الواقعة قريبًا جدًا.

– ولكن أبي لَن يرضى أن يذهب. فهو يؤمن بالله.

– ليس هذا وقت الإيمان بالله. قُل له ينقذ أُسرته أولًا.

ثُمَّ نهضَ الرجل، وفتحَ درجًا أخرج منه منديلًا كبيرًا أزرق مِن القطن فملأه بالكعك وقالَ له:

– خُذ هذا معك. وتَذكّر أنّني لا أكرهك. ولو أنّي تجاسرت لدعوت أُسرتك للإقامة هنا. ولكن هذا لَن ينفع أُسرتك وسيقضي بالهلاك على أُسرتي معكم. وقد أبلغت إنذارًا نهائيًا بشأنك. فلا تحضر بعد الآن أيّها الأخ الصغير. وا أسفاه!

أخذَ كليم مِن يده وأخرجه مِن بابٍ خلفي صغير، فوجدَ كليم نفسه في زقاق خرجَ منه إلى الشارع الواسع. وكان الشارع هادئًا يصعب على العقل أن يُصدق أن تحت هدوئه برُكانًا. ولاحظَ كليم أنَّ الوقت هو وقت ذهاب الطلاب إلى المدارس، ومع هذا لم يَلمح تلميذًا واحدًا، أمّا الدكاكين فلا شك أنَّها أُغلِقت أبوابها في ساعة الضُّحى. فأخذ يحث الخُطى نحو بيته في شوارع مقفرة، كان المفروض في الأيام العادية أن تموج بحركة المعاش. ولكن قبل أن يصل إلى شارعه صدرت إشارة، لم يستطع أن يسمعها أو يراها ولكنه رأى أثرها الحاسم، إذ أنشقت الأرض عن آلاف مِن النَّاس. هم شرار القوم. أمّا الخيار فقد قبعوا داخل بواباتهم. فجعل كليم يتوارى

بالحيطان وبمداخل البيوت كلّما سمعَ صوتًا كهدير الموج يقترب مِن حي القنصليات الأجنبية حيث يقطن أيضًا المرسلون الأثرياء مِن أُمراء الكنيسة. فعلل النفس بأن الرّب سيحمي مِن يحملون صليبه.

وفي هذا الوقت كان المستر فونج ينظر من نافذته مُستطلعًا الأحوال في الشارع لأن ابن عمه كان قد زاره في منتصف الليل، وأخبره بالمؤامرات التي كانت قد حُكيت بين جدران القصر، ولذلك قرّر مستر فونج إغلاق دكانه ذلك النّهار، وأن يتجاهل كل ما يجري في المدينة. إنَّه رجل شجاع ولكنَّه ليس طائشًا. وهو يعلم أن المشعوذين الدينيين لن يصمدوا لرصاص الغريبين، بيد أن النهاية المحتوية ستستغرق بعض الوقت. والإمبراطورة العجوز لديها مِن العناد الأخرق ما جعلها تستميت إلى أن ترى الجيوش الأجنبية تدخل مدينتها المقدسة فعلًا. ورضى عن نفسه لأنَّه كان قد خزّن في الدار مؤونة شهر من الدقيق. كما أن زوجته تُربي في الفناء الحنفي إحدى عشرة دجاجة تزودهم بالبيض. وفي جانب آخر مِن الفناء زرع الخبازي. فلن يجوعوا مدة الإضطّرابات.

وانقضى النّهار وهو مُعتكف بين دفاتر حساباته وأفكاره الخاصة، ثُمَّ نامَ مُبكرًا ليّدخر قوته للأيام العصيبة القادمة. وإذا بزوجته تصرخ في أُذنه في منتصف الليل فتوقظه:

– قم يا فونج، فالمدينة تحترق.

فقامَ مُسرعًا ولبس خفيه وخرجَ إلى الفناء، فإذا السّماء كلها حمراء والليل مُضيء كأن الوقت نهار. وصحا الأطفال أيضًا وجعل الجميع يصرخون فزعًا فنهرهم قائلًا:

– صه! أتريدون الجيران أن يظنّوكم تبكون على الأجانب؟

فصمتوا في الحال وتسلّل هو إلى دكانه فتح بابه مقدار قيراطين ليتجسس الطريق فتبين نحو عشرين حريقًا في الحي الإفرنجي فأدركَ أنَّها بيوت وكنائس النَّصارى، فأغلق المكان تانية وعادَ إلى أُسرته قالَ لهم مطمئنًا:

– اذهبوا إلى فراشكم. فمِن حُسن حظنا أنَّنا لسنا نصارى وسنعيش.

أيقظ كليم والده لأنَّه لم يعرف ماذا يصنع. وكانت الحرائق بعيدة كل البعد عن كوخهم في حي القنصليات. ولم يكُن كليم قد غادر البيت مُنذُ أنذره فونج. وحتَّى والده لم يخرج إلَّا في الليل ليستجدي على ما يظهر من بعض المرسلين لأنَّه عادَ بثلاثة أرغفة مِن الخبز الإفرنجي، وبأطعمة محفوظة في العلب. وفي علبة منها زبد أسترالي ولم يكن كليم قد ذاقَ الزبد في حياته. فتناولَ كل واحد منهم في تلك الليلة شريحة مِن الخبز عليها طبقة مِن الزبد الأصفر اِستطابَ مذاقها كثيرًا. وبعدها ذهبوا إلى الفراش عقب تلاوة الصّلاة، إلى أن أيقظه إحمرار السّماء فخرجَ إلى الفناء ثُمَّ إلى الشارِع الضيق واِستولى عليه الرّعب لما رأى، وأفزعته وحدته فأيقظَ أباه. ففتح الرجل عينيه على الفور.

وأشارَ إليه كليم أن يأتي معه وهمسَ في أُذنه:

– حرائق في المدينة.

فخرجَ الرجل حافي القدمين، بملابسه الداخلية، ووقفا يتطلعان معًا إلى السّماء، ثُمَّ وضعَ يده على كتف ولده وقالَ له:

– لا تُوقِظ أُمك والبنتين. فالمنظر فظيع. أمَّا أنا فيجب أن أخرج إلى الشوارع يا كليم لأرى ماذا أستطيع أن أصنع. فلابُد أن النَّاس يتعذبون كثيرًا في هذه المحنة. وامكُث أنت هنا لتكون بجانب والدتك وأُختيك.

– ناشدتك الله يا أبي لا تذهب. فكيف أستطيع العثور عليك إن حدثَ لك شيء؟

– سوف لا يحدث شيء. فسنُصلي معًا قبل أن أذهب، بعد أن أرتدي ثيابي طبعًا، فلا يليق بنا أن نُكلم الله وأنا بملابسي الداخلية.

وبسرعة عادَ الأب في ثوبه القطني الممزق وهتفَ بابنه هامسًا:

– على ركبتيك أيُّها الولد العزيز.

ولأول مرة ركعَ كليم عن طيب خاطر. لأنَّه شعرَ أنَّهم الآن بلا مُعين إلَّا الله.

وبعد صلاة قصيرة حارة نهضا. وشَدَّ الوالد على يد كليم بقوة، ثُمَّ مضى. ورقدَ كليم في فراشه مفتوح العينين إلى قُرب الفجر حيث سمع وقع

أقدام أبيه عند العتبة فجلسَ وشاهده يدخل، وجسمه يَتصبّب عرقًا، والدُّخَان قد سوّد وجهه. فقالَ له:

– يجب أن أغتسل قبل أن تراني والدتك. هل أستيقظت؟

– كلَّا، سآتيك بالماء في الفناء الداخلي.

– لقد اَقتحمَ البوكسر المتعصبون المدينة، وأباحت لهم الإمبراطورة العجوز دمَّنَا. فنحن الآن بين يدي الّرب؛ لأنَّنا شهدنا للمسيح، وقد توجهت إلى بيت الأخ لين. فهو أرق جميع المرسلين قلبًا، وهو الذي أعطاني في المساء الطعام الذي أتيتكم به وأعطاني أيضًا مبلغًا مِن المال. فهو نسيج وحده بين سائر زمرته. وقد وجدته بمفرده في الدّار؛ لأنَّه بعثَ بأُسرته إلى شنغاي، فوصلوها قبل قطع الخط الحديدي. ووجدته يأوي عنده الصينيين المسيحيين. بيد أنَّهم الآن يتسللون مِن بيته ويتنصلون منه، فمِن الخير لهم أن يكونوا مع بني جنسهم. وساور الخوف كليم لأن قطع الخط الحديدي يعزل بكين عن العالم. فنظرَ إليه أبوه بحنان ثُمَّ قالَ له:

– أخائف أنتَ يا كليم؟ لا تخف يا ولدي فالرّب هو قوة حياتنا. فممّن تخاف؟

ولم يجبه كليم. وإنَّما أرسل مِن قلبه صلاة غاضبة إلى السّماء التي اَنعقدت فيها سحب الدُّخَان مع بواكير أشعة الصّباح:

– إلهي. إن تخذل أبي فلن أُصلي بعدها أبدًا!

اَستقبل مستر فونج في تلك الليلة أيضًا ابن عمه العجوز، الموظف في القصر وأخبره أن الإمبراطورة عزَلَت وزيرها العاقل الأمير شينج، وولّت مكانه ثلاثة وزراء حمقى من حاشيتها. ومع ذلك حدثَ اِنقسام في مجلس الإمبراطورة لأنَّها وجدت مَن يُعارضها في سياسة عداوة الأجانب مُجتمعين. بيد أنَّها اَستبدت برأيها واَنحازت لصفوف البوكسر.

وجعلت الحالة تزداد سُوءًا يومًا بعد يوم، إلى أن أيقظت والدة كليم ابنها قبل شروق الشمس ذاتَ يوم فلما فتحَ عينيه وجدها واضعة سبابتها على فمها. فقامَ وتبعها إلى الفناء وقالت له:

– يا عزيزي كليم، لم يعد عندنا شيء نأكله، وأخشى أن أُصارِح أباك فيحزن.

– عجبًا يا أُماه. هل أنتهى كل ذلك الخبز؟

– نعم، وكل العلب أيضًا.

وأدرك ما ترمي إليه، وأنَّها تخشى أن تُصارحه، فتطوع قائلًا:

– إذن سأذهب وأبحث عن شيء نأكله يا أُماه.

–كم أنا خائفة عليك يا كليم. ولكنّك إن لم تُجازف بالخروج فسيُجازف أبوك. وأنت أقدر منه على التسلل بين الأزقة. أمَّا هو فقد يقف هنا أو هناك ليُصلي أو يعظ.

– لن أفعل شيئًا مِن ذلك.

– إذن ألبس ملابسك الصينية.

ثُمَّ فجأة اَنحنت فوق رأسه وقبّلتها وقالت بِانكسار:

– سامحني يا كليم.

– ليس هناك ما ألومك عليه يا أُماه فليسَ الذنب ذنبك.

وخرجَ، وهو لا يدري أين ينشد الخبز في هذه المدينة الواسعة. إنَّه لا يستطيع أن يذهب إلى مستر فونج. إذن ليس أمامه سوى أن يقصه الدكتور لين الذي يعيش بمفرده. لقد أعطاهم طعامًا مِن قبل. وسيُعطيهم عن طِيب خاطر. ولم يجد غضاضة في الذّهاب ما دامَ وليم ليسَ هناك.

وقصدَ إلى غايته مخترقًا الشوارع الخلفية الخالية. فلمّا وصلَ إلى البيت الكبير وجد البوابة مقفلة فطرقها بيده طرقًا هينًا. فاَنفتحت فيها ثغرة مربعة، وأطلَّ عليه وجه البواب. فلمَا عرف فيه غُلامًا أجنبيًا فتحَ البوابة وأدخله. وعندئذٍ سأله كليم:

– هل المعلم في البيت؟

– إنَّه دائمًا في البيت في الفترة الراهنة. فماذا تُريد منه؟

– أُريد أن أسأله عن شيء.

وفي الأحوال العادية كان الجواب لا يسمح لأحد بالدخول. أمّا الآن فهو لا يوصد الباب في وجه إنسان أبيض. فجميع الأجانب في خطرٍ داهم. وإنَّها لحماقة منه أن يبقى مع سيده الأبيض لولا تعلقه الشديد به.

ثُمَّ إنَّه لا زوجة له ولا ولد. وحياته شخصيًا لم تعد تُساوى الكثير. ولهذا تقدّم كليم نحو البيت الكبير المربع، وطرق الباب الأمامي. ففتحَ الدكتور لين بنفسه وأدهشه أن يرى أمامه غُلامًا أجنبيًا. ثُمَّ سأله:

– هل أعرفك يا بني؟

– لا أظن هذا. ولكنّي أنا أعرفك يا سيدي.. أنا كليم ميلر.

– طبعًا طبعًا. آل ميلر. أعرف والدك. أدخل. فما كان لك أن تخرج إلى الشارع.

– إنَّ أبي لا يعرف أنّني خرجت.

– أُسرتي في شنغاي. وأنا أيضًا أستعد للرحيل. هل كنت تعرف أبني وليم؟ تفضّل بالجلوس في هذا المقعد.

– رأيته مرة واحدة.

ولَمَّا جلس كليم على طرف الكرسي راحَ الدكتور لين ينظر إليه بعينين حزينتين. ولولا ما يبدو عليه من شرود لكان وجهه فيّاضًا بالحنان.

- وما الذي أتى بك؟

– ليس عندنا خبز.

قالها ببساطة، ثُمَّ اَندفع الدم إلى وجهه الشاحب، وصمت قليلًا، ثُمَّ اَستطرد:

– أنا أعلم أنَّك ساعدتنا مِن قبل يا دكتور لين. وما كنت لآتي إليك لو أنّني عرفت مكانًا آخر أطرق بابه لهذا الغرض.

– لا بأس لا بأس. إنَّه يسُرني كثيرًا.

فقاطعه كليم قائلًا:

– كلمة أخرى يا دكتور لين، إنّني حين أسألك طعامًا لا أعتقد كما يعتقد والدي أنّها عطية الله، كلّا، بل هي عطيتك أنت. ثُمَّ إنّي لم آتِ لأسأل شيئًا لنفسي فقط، فما كنت أهتم كثيرًا لولا أنّ هناك أُمي وشقيقتي الصغيرتين.

– لا بأس لا بأس. فعِندي مِن الطعام أكثر مِن حاجتي. عندي أطعمة كثيرة مُعلبة، فقد وصلت إلي رسالة كبيرة منها قبل قطع الخط الحديدي بيوم واحد. ولكن الطباخ غادرنا بالأمس ولا أدري أين الأشياء بالضّبط. ولستُ ألومه فالوقت عصيب.

وشرع الدكتور لين يفتش بنفسه بين التراب المتراكم في المطبخ إلى أن وجدَ سلة كبيرة. وعندئذٍ سأله:

– ولماذا لم تذهب مع وليم يا سيدي؟

– لم أذهب مِن أجل أبروشيتي. فالصينيون المسيحون يعانون محنة شديدة. ولا أستطيع لهم شيئًا أكثر مِن البقاء معهم. ها هي علب اللبن المحفوظ واللحم.

وملأ له السلة الكبيرة، ثُمَّ وضعَ منشفة مطبخ فوقها وهو يقول له:

– لا تحمل العلب مكشوفة لكي لا تغري النَّاس بك. وكم كنت أتمنى أن أبعثك في الريكشا لولا أن سائقها الأولى تركنا أيضًا ولم يبق معي إلَّا البواب. وأنصحك أن تذهب إلى بيتك مِن أقرب طريق. أخبر والدك أن يأتي بكم إلى القنصلية إذا نشبت القلاقل، ولا شك أن حكوماتنا سترسل جنودًا لِإستنقاذنا، وربما كانوا في الطريق.

– أخشى أن أبي لا يمكن أن يقبل الاِلتجاء إلى القنصلية.

– تنقصني الشجاعة للتمسك بالإيمان على هذه الصّورة. وإن قدرت على ذلك لنفسي فلن أقدر عليه حين يتعلق الأمر بولدي.

وعند البوابة الخارجية صافح الرجل الوقور الغلام بعطفٍ بالغ، وحملق البواب في السّلة قبل أن يفتح البوابة، ثُمَّ دلف إلى حجرته، وعاد منها بمجموعة من الأحذية البالية وضعها فوق المنشفة وقال لكليم:

– تظاهر إنها قمامة، وإلَّا سرقوها منك.

وأقفل الباب على كليم فوجدَ نفسه وحيدًا في الشارع، والسّلة الثقيلة على ذراعه، وقد صار الوقت ضُحى. وفي الشوارع زمر مِن النَّاس كلهم جنود يرتدون ملابس القصر الإمبراطوري، فحاول أن يتجنبهم. وظنَّ أنَّه أفلح في ذلك لأن الضابط كان يضحك ويمزح مع بعض الجنود الذين يتفرجون على مدفع أجني في يده. ثُمَّ لمحوا كليم وجروا وراءه. فبدأ

يجري. وفي ظرف آخر كان حريًا أن يتعقل فلا يجري ويقف للتفاهم معهم بلسانهم، أمّا اليوم فهو ينشد الهروب ليخفي وجهه منهم فلا يروا عينه الزرقاوين، واخترق الأزقة بسرعة إلى الشارع الذي يحد حي القنصليات من الشرق على أمل الدخول من باب القنصلية الأمريكية.

وحين اِنعطف في الشارع استوقفه موكب عربتين كبيرتين، فيهما وجوه أجنبية متعجرفة لم يرها من قبل، وقبل أن يتسلل إلى زقاق آخر وجد نفسه محصورًا بين الجنود الصينيين وهؤلاء الأجانب، فسَدَّ الجنود الشارع، واضطّر حملة العربات أن يقفوا، وعندئذٍ رفع ستار العربة الأولى وأطلَّ أجنبي برأسه فصاحَ في الجنود:

– أفسحوا الطريق! أنا فون كتلر السفير الألماني في طريقي للإجتماع بالإمبراطورة.

فانفتحت العربة الأخرى وسمِعَ صوتًا أجش يحذر السفير، بيد أن التحذير جاء بعد الأوان، إذ رفع الضابط الصيني الدفع الأجنبي وصوبة إلى السفير الألماني، ثُمَّ أبصر كليم ضوءًا شديدًا خرّ على أثره السفير قتيلًا. وتوارى كليم وراء العربة وهو متشبث بالسّلة، ثُمَّ أطلق ساقيه للريح متجهًا نحو البيت مُخترقًا شوارع مكتظة بالنَّاس. وامتدت الأيدي فمزقت وأنتزعت أغطية السّلة فانكشفَ الطعام وإذا الأيدي القذرة تتخاطفه إلى أن فرغ ما في السّلة، ثُمَّ وضعوا أيديهم عليه وسمع عشرات الحناجر تصرخ:

– شيطان أجنبي!

وأفلتَ منهم ثُمَّ أنطلق يطلب النّجاة، وكأنّما ركّب في رجليه جناحان. وتوارى داخل بيت مهجور إلى أن اَستشعرَ الأمان، ثُمَّ خرجَ مُتسللاً مِن جديد إلى الكوخ، فوجد الباب مفتوحًا. ووقف مبهوتًا لا يدري تعليل ذلك.

وفجأة فطِنَ إلى سائل داكن لامع تحت قدميه فوق تراب العتبة، فحملق فيه جيدًا إلى أن أدرك عن يقين أنَّه دم، فاستولى عليه الرعب وشلّ تفكيره واندفع داخلاً كالمجنون، فإذا الأبواب كلها مفتوحة، فاخترق جميع الغرف إلى المخدع.

وهناك وقف، فعلى أرض الحجرة يرقد أبوه غارقًا في دمه الذي تفجر مِن رقبته وقد كاد رأسه ينفصل عنها لعمق الجرح. وكان ذراعاه مفتوحين وكذلك ساقاه. أمّا وجهه الذي نزفَ منه الدم كله فكان على رُغُم صفرته المميتة يفتر عن ابتسامته العذبة. ابتسامة التّرحيب التي طالما منحها لكل من دخلوا بيته مِن الغرباء والأقارب، وهو الآن يمنحها للمرة الأخيرة لولده. ومِن تحت جفنيه نصف المفتوحين كانت عيناه كأنّما تنظران.

وقف كليم يحملق في أبيه وقد منعته الصّدمة مِن الصراخ. كان يعلم أنَّه مات. وكثيرًا ما رأى موتى مِن قبل في المجاعات والطواعين يملأون الشارع. لكن هذا الميت الموجود أمامه هو أبوه!

وتحشرج صوته، ولهثت أنفاسه وهو يحاول أن يصرُخ. ومِن حُسن حظه أن صوته لم ينطلق وإلّا سمع وقضى عليه.

وانتقل إلى الحجرة الأخرى، حيث فراش والدته حيث وجدَ أُختيه مُتعلقتين بأُمهما. ولكن الرؤوس الثلاثة كانت منفصلة عن أجسادهنَّ، فوقف ينظر مفتوح الفم وعيناه تكادان تبرزان من محجريهما. لم يستطع الصياح أو الحراك. وأين تراه يذهب؟

فكَّرَ في كل مكان، في الدكتور لين وبيته المتين. وفي القنصلية. ولكنّه أدرك أنّه لا أمان هنا أو هناك في النهاية، فدارَ على عقبيه واخترق الأزقة الخلفية المتعرجة مُتجهًا إلى دار المستر فونج

كان مستر فونج جالسًا في الحجرة الوسطى مِن داره صامتًا بين زوجته وبنيه. قد استفاضت في المدينة مِن دوائر القصر الإمبراطوري أن اثنين مِن الألمان أطلقا النّار على الشعب الصيني المسالم فردّ العدوان جندي صيني شجاع فقتل أحد الألمانيين وجرح الأخر، وقد شكّ مستر فونج في صدق هذه الرواية بيد أنَّه لم يدرِ كيف يستخرِج الحقيقة؟

– الرياح تعصف فلا بد للعشب مِن أن ينحني، ولا بد لنا من أن نلزم الصمت محتمين بجدران بيوتنا إلى أن تنجلي الغمة

وبلغَ من تحرج الحالة أن المستر فونج كان خائفًا على ابنه الأكبر لأنَّه يتكلم اللغة الإنجليزية مما قد يسبب هلاكه. ذلك أن الإمبراطورة الأم أصدرت أوامرها فجر ذلك النّهار بالقضاء لا على الأجانب فحسب، بل على كل من شايع دينهم أو تكلّم بألسنتهم أيضًا.

وعلى حين فجأة مع مستر فونج طرقًا خافتًا على الباب الخلفي. فرفع مستر فونج يده وسادَ الصّمت المطبق وأرهف الجميع آذانهم!

– هذه يد واحدة لا أكثر، فلأفتح الباب. فربما كانت رسالة من ابن عمي.

وذهبَ الكل وراءه، وقليلاً قليلاً فتح فونج الباب ليجد أمامه كليم في حالة يرثى لها. وتردّد في إدخاله، وصاحت به زوجته تحذره مِن ذلك. أمَا المسكين فقصَّ عليه فاجعته في والديه وشقيقتيه. فأدخله فونج على مضض ثُمَّ أغلق الباب. وكان الغلام قد تقيأ على ملابسه وأصبح وجهه يحاكي وجوه الموتى. وأخذ الزوجان يتشاوران فيما يصنعان به، وتساءل فونج:

– لماذا قتلوا ذويك؟ لقد كان والدك فقيرًا ضعيفًا طيب القلب.

– وهل قتلوا أبي فقط؟ لقد رأيتهم بعيني يقتلون سفير ألمانيا ولم أُصَدق بنجاتي مِن وابل الرصاص الذي انطلق في تلك اللحظة

واهتم فونج بما سمع، فهذا هو شاهد عيان ينقل له حقيقة الحادث. وقصَّ كليم الحادثة بحذافيرها. فلمّا فرغ هز فونج رأسه متأسيًا وقال:

– لقد جنت هذه الإمبراطورة العجوز ولا شك، أتراها تعتقد أن عقارب الساعة يمكن أن ترجع إلى الوراء. أمِن الممكن أن نعود إلى عهود أجدادنا بينما العالم كلّه يتقدم إلى الأمام؟ لقد جَعَلَت منّا أضحوكة الأمم.

أخذَ كليم مِن ذراعه إلى داخل البيت، وبدّل له ملابسه وأدخله الفراش في حجرة داخلية ليست لها نوافذ، وقدّم إليه حساء ساخنًا، وكان فمه مُرًا كالعلقم، وليس في عينيه أثر للدموع، بل أن مثانته نفسها خَلَت مِن الماء لكثرة ما نضحه من عرق الخوف.

لبِثَ كليم مختبئًا بضعة أيام لم يعرف عددها لأن الظلمة كانت سائدة في الحجرة ليل نهار. أمّا مستر فونج فكانت تأتيه الأخبار تحت جنح الليل مِن ابن عمه العجوز؛ فعرف أن جميع الأجانب اِعتصموا بالقنصليات ليحميهم حراسها، وأن تبادل إطلاق النيران مُستمر. وكان شغله الشاغل ليل نهار كيف يتخلص مِن كليم الذي كان وجوده في بيته خطرًا على الأسرة كلّها. وإن حمد السّماء، لأن كليم دخل من الباب الخلفي فلم ينتبه لدخوله أحد مِن الجيران وإلّا كانت طامة. وقد كتم فونج وجُوده عنده حتَّى عن ابن عمه الأمين. وذاتَ يوم وجد نفسه وقد غلبته الدموع، فقد أسترد الغلام شيئًا من عافيته فاستطاع البكاء. ومِن الدموع تدرج إلى النشيج والنحيب الذي لم يستطع التحكم فيه، فلمّا سمع مستر فونج صوت نحيبه أسرع إليه، فوجده جالسًا على حرف الفراش يمزق لحم صدره بأظافره، فهمسَ مستر فونج قائلاً:

– ليس لدينا وقت للبكاء، فقد مكثت اِنتظر نهوضك مِن فراشك لأتحدث إليك.

ثُمَّ أتاه بمعطف مِن القطن الأزرق وبنطلون وقالَ له:

– لقد اِشتريتهما مِن محل للرهونات. والحالة أصبحت هادئة نوعًا. بل يُقال إن الجيوش الأجنبية قد أوشكت أن تبلغ ضواحي العاصمة. فالبس هذه الملابس. ثُمَّ هذا الحذاء، وسوف نُطلي لك وجهك وشعرك باللون الأسود. واملأ بطنك بعد ذلك من اللحم الطيب وسائر ألوان الطعام التي تطهوها أُم أولادي. وقد وضعت لك في ربطة كبيرة أرغفة طازجة خبزتها وسمكًا مملحًا، وشيئًا من الجبن ستحملها في سلة على غرار أبناء الريف حين يرحلون للتجارة.

فكفَّ كليم عن النحيب وسأله:

– وماذا تريد مني أن أصنع يا أخي الكبير؟

– عليك أن تشق طريقك إلى البحر حيث تستقل سفينة إلى أمريكا.

والآن اَستمع إلي جيدًا أيّها الأخ الصغير. إن جميع بني جنسك الذين لم يُقتَلوا مُحاصرون في الحي الأفرنجي داخل أسوار القنصليات. لقد نشبت هناك معركة حامية. وستحيق بنا الخسارة لمجرد وصول جنود الأجانب بأسلحتهم إلى العاصمة. ولن تدرك الإمبراطورة العجوز إنَّها خَسِرت الموقف إلَّا حين ترى نفسها وقد فرت مِن القصر، لِتنجو بحياتها. فعلينا أن ننتظر هذه الساعة، ولن يطول بنا الاِنتظار. وعليك أن تتجنب المدن أيّها الأخ الصغير، وسِر دائمًا بين القرى. وإذا اِلتقيت على قارعة الطّريق بأحد فاَنظر دائمًا في التّراب لتخفي لون عينيك الأزرق.

ولَبِس كليم الملابس الصيفية التي أعدّها له فونج، ثُمَّ أكلَ بشهية مِن اللحم والخبز والفجل الذي وضعته مسز فونج أمامه دون أن تقول شيئًا. فلمّا أكل وغسل يده جاءت بإناء أسود اللون وبريشة أوزه ثُمَّ راحت تصبغ له شعره بالسواد، ثُمَّ صبغت حاجبيه ورموش عينيه، فلمّا فرغت نظرت إليه من بعيد وقالت باسمة:

– مِن حُسن طالعك أن أنفك صغير، وإنّك لتبدو أجمل في هيئة الصينيين.

فضَحَكَ مستر فونج ضحكة خافتة، ثم وضع في ذراع كليم سلة الزّاد الريفية، وصحبته الأسرة إلى الباب الخلفي الصغير، وهناك قال مستر فونج:

– أنتَ تَعرِف الطريق جيدًا إلى البوابة الجنوبية، والرياح الآن تهُب مِن الجنوب، فسِر معها مقدار ثلاثة أيام، ثُمَّ در نحو الشرق واَستمر في سيرك إلى أن تبلُغ البحر. فإذا بلغته فنقّب هناك عن سفينة ترفع راية أجنبية واَطلب العمل على ظهرها نظير نقلك إلى وطن آبائكَ.

فسكت كليم لحظة لا يدري ماذا يقول ثُمَّ غمغم:

– أشكرك كثيرًا لأنّك أنقذت حياتي.

– لا تشكرنا واَعلم أن حماقة الإمبراطورة العجوز لَن تجعلنا أعداء. فَعُد إلى وطن آبائك ولكن لا تنسنا. وخُذ هذه الدّراهم أيّها الأخ الصّغير. وعلم الله إنيّ لو لم أكُن فقيرًا مُعيلاً لأعطيتك كيسًا حافلاً.

وكبر على الغلام أن يغرقه مستر فونج بكل هذا الكرم، ولم يقبل النقود إلَّا عندما ألحَّ مستر فونج بقوله:

– يجب أن تأخذها لتُريح قلبي وضميري.

ثُمَّ بعد ذلك تقدم منه كل طفل مِن أطفال الأسرة فأتحفه بهدية مِن عنده. أمّا البنت الصغيرة التي لم تبلغ الخامسة مِن عمرها فلم تُدرك لماذا تحتّمَ عليهم أن يُخبئوا هذا الصديق في الحجرة المظلمة، ولماذا يخرجونه الآن خِلسة. فتعلّقت بذراع كليم ثُمَّ دسَّت في صدره دميتها الصغيرة المصنوعة من الصلصال، وثلاث قطع نحاسية من النقود كانت تَدّخرها ليوم العيد. ومسحت مستر فونج عينيها بطرف كمها، ثُمَّ ربتت على ذراع كليم مرة أو مرتين وأنخرطت باكية، ففتح الغلام الباب وتسلّل خارجًا تحت جنح الظلام.

وكان الظّلام دامسًا فيما حوله والمدينة ساكنة، فوقف يصغي، ولم يسمع شيئًا سِوى صوت مزلاج الباب يحكمه المستر فونج مِن الداخل، وسمعَ مِن بعيد بعد ذلك طلقات بنادق مُتباعدة، ولم يجد ما يصنعه سِوى أن يمضي، فحرّك قدمه، وأحسَّ بالتراب لينًا نديًا تحت رجليه، ورفع وجهه فتحسس مَهب الرّياح وتركها تقوده في تلك الظلمة التي لا يخفف مِن حلكتها الثقيلة على حسه ووجدانه إلَّا ضوء لا يخبو من الأمل في قلوب البشر، حركّت جذوته في قلبه تلك الأسرة المضيافة، أسرة فونج.

نحو البحر

اتّخذَ كليم خطة الحذر وهو يجتاز الحقول. ولم يعتمد إلَّا على نفسه. وكان يسير ليلًا وينام نهارًا بين أعواد الحلفاء المنتشرة في ذلك الموسم، فكان يقطع أميالًا عديدة في كل ليلة. لأنَّه كان يسير بسرعة مستعجلاً منظر البحر.

وذاتَ يوم اَلتقى بريفية عجوز تجاوزت سن الاِحتشام، فلم تحرص على إخفاء نفسها حين جلست على قارعة الطريق تقضي حاجتها. وكان قد اَنتهزَ إقفار الطريق ساعة الظهر ليقطع مسافة تقربه مِن غايته. وقد حسبها في أول الأمر طعمًا ممّا يستخدمه قُطّاع الطرق في الريف لجس النبض وتعرف الصيد السمين. فلمّا رأت الخوف على وجهه ضحكت وقالت له:

– لا تخش شيئًا يا غلام.

– لست خائفًا منك يا جدة. فأي شر تستطيعه مثلك لي؟

– صدقت، وأين وجهتك؟

– نحو الشرق..

– وكيف تسير هكذا وحدك؟

وكان قد أخفى وجهه عنها لكي لا ترى زرقة عينيه. فلمّا خالسها النّظر وجدها شبه عمياء لسحابة زرقاء على عينها، فقال لها غير متحفظ من عينيها:

– ماتَ أبي في بكين، فرحلت لألحق بجدي

– وأين يُقيم جدك؟

– جهة الشرق..

– أنا كذلك ذاهبة إلى الشرق. فلنسِر معًا.

– وكيف اتّفق أن تسيري وحدك؟

– ليس لي ولد، ولكن لي ابنة متزوجة من حداد في تلك المدينة الشرقية، وأنا ذاهبة إليهما ألتمس صدقتهما بعد أن مات زوجي في الأسبوع الماضي وبعت البيت. وكان عندنا ثُلثا فدان مِن الأرض. فلو كان لي ولد لبقيت في أرضي، ولكن حظّي سيء. وقد ماتَ من نحسي ولداي التوأمان في يوم واحد ولهما من العمر أقل من سنة.

وتنهدت ثُمَّ فتحت ياقتها كمَن تُريد أن تتنفس فرأى حول عنقها المعروق خيطًا قذرًا فيه تميمة صغيرة، فسألها:

– ما هذا الذي حول عُنقك يا جدة؟

– ومِن أين لي أن أعرف؟

– مِن أين أتيت بها؟

– ولماذا تُريد أن تعرف؟

– لأنَّها تشبه صليب النصارى.

– ومِن أين لِغلام صغير مثلك أن يعرف شيئًا عن النّصارى؟

– هل أنتِ نصرانية يا جدة؟

– لعنة الله على النصارى. إنَّهم قوم سوء وإمبراطورتنا العجوز تقتلهم. وكان يجب أن تعرف هذا ما دُمتَ قادمًا من بكين.

– ولكن أبي كان يُؤمن بصليب النّصارى.

– هل كان أبوك واحدًا منهم؟

– أجل، ولهذا مات. قتلوه.

– هيا بنا نجلس. ولكن أُنظر أولاً يمينًا ويسارًا لترى هل يقدم علينا أحد؟

– الطريق مقفر؛ لأن هذه ساعة القيلولة.

– إذن نأكل أولاً، فإنّي جائعة. ومعي هنا أرغفة خبزتها هذا الصباح.

وأخذا يأكلان مِن زادها برهة ثُمَّ قالت العجوز:

– لقد سألت الله أن يجمعني على الطريق بمَن يُساعدني على مشقته، وببركة هذه التعويذة التي في عنقي اِجتمعت بك. وقد أعطاها قسيس طيب، علّمني صلاة نسيتها. فقال لي إنَّه يكفيني أن أقرأ صلاتي البوذية

القديمة وأنا ممسكة بالصليب فتذهب صلاتي إلى المكان المناسب مِن السماء.

– إنَّه رجل حصيف، ذلك الذي يستخدم عادات الديانات القديمة المتأصلة لخدمة أغراض الإله الجديد.

– نعم كان رجلاً سمحًا طيبًا، ولو أنَّه لم يمت لَكُنت ذهبت إليه الآن بدلاً مِن الذّهاب إلى اِبنتي وزوجها.

– وكيف ماتَ ذلك القسيس؟

– قطعه الجنود بالسّيف قطعًا أطعموها الكلاب. ولَمَّا مَرِضت الكلاب قالوا إنَّها آية على أنَّه كان خبيثًا. وكان ذلك في اليوم التّالي لوفاة زوجي مُنذُ ستة أيام، فلم يبقَ لي أحد أَلوذُ به، والآن هيا بِنا نستأنف طريقنا يا غلام.

وسارا معًا وقد آثر أن يكتم عنها سِرّه بعض الوقت. إلى أن قاربا عند هبوط الليل قرية فانتحى بها تحت نخلة كبيرة منعزلة وقال لها:

– يا جدة. لقد صارحتيني بحقيقتك، أمّا أنا فلَم أُصارِحك بحقيقتي.

– لعلّكَ لست قاطع طريق..

– بل إنّي أسوأ مِن هذا عليك. فقد كان أبي أجنبيًا مثل قسيسك. ولهذا قُتِلَ أبواي وشقيقتاي. وأنا الآن في طريقي إلى البحر لأجد سفينة

تنقلني إلى بلدي. وقد سَرني كثيرًا وأنا غلام وحيد أن أجدك لتؤنسي سفري.

– إنّها بركة التعويذة، فقد رأت السّماء أننا وحيدين فجمعت بيننا.

– هل أنتِ مستعدة لمساعدتي؟

– لا شك في ذلك..

– عندي فكرة. أخشى أن يرى النَّاس لون عيني. فمتى دخلنا القرية عليك أن تسحبيني من يدي وأغمض أنا عيني. ولا غرابة في أن تقود عجوز حفيدها الأعمى.

– وهي نفسها نصف عمياء. صدقت.

– وبهذه الطريقة سنبيت لأول مرة تحت سقف بعد أن بِت ليالي كثيرة بين البُوص في العراء.

– ومعي بعض النقود من ثمنِ البيت.

– وأنا كذلك. فلأُنفق نقودي أولاً.

– بل نقودي أنا أولاً يا غلام.

– بل نقودي أولاً يا جدة، لأنّني حين أصل إلى وطني لن تكون لهذه النقود فائدة.

– وكيف يُمكن ألّا تكون للنقود فائدة يا غلام؟

– لأن نقودنا غير نقودكم.

وتمّ الإِتفاق على الخطة. وبذلك باتا ليلتهما في خان القرية مِن غير أن يستثيرا الريبة. ومرّت الأيام والليالي التالية على ذلك النّحو. وهي تزداد في كل يوم تعلقًا به. وراحت تتبادل معه الأحاديث عن ذكريات حياتها وأفكارها الخاصة، وكانت فلسفتها تتلخص في عبارة ساذجة قالتها وهي تضحك على عادتها:

– إن وجدت وسيلة لملء جميع البطون والإطمئنان إلى إمتلائها في كل حين، إذن لغدا جميع النَّاس كُسالى يضحكون ويلعبون ببراءة كالأطفال، ولحظي العالم بالسّلام والسّعادة على الدّوام. ولكنّها أحلام في أحلام.

وكانت هذه الكلمات أحكم كلمات سمعها في حياته. وقد نقشت هذه العبارة في شغاف قلبه.

ولتعلق العجوز به فكرت أن تتبعه حتَّى الشاطئ لتطمئن عليه وقالت له:

– ولِمَ لا؟ إنَّ إبنتي لا تعلم إن كنت حية أو ميتة، ولا حاجة لها بي، فلما أبى عليها ذلك أصرّت أن تأخُذُه معها إلى بيت اِبنتها، وهي واثقة أن زوج ابنتها الحدّاد سَيُساعده مساعدة جزيلة.

وعند باب الدّكان أبصرَ بأتون النّار، وأمامه رجل ضخم البنية مفتول العضل، يطرق الحديد بقوة. ولم يرهما وهما قادمين عليه، فَتقدّمت المرأة مِن الباب وصاحت بغير مُقدمات:

– يا ليو السمين! هل ابنتي في البيت؟

فوضع الرجل المطرقة وحملق فيها بُرهة ثُمَّ صاحَ:

– أهو أنتِ يا أُم زوجتي؟

– هي أنا..

ثُمَّ مسحت عينيها بطرف كمها وقالت:

– إن زوجي قد مات.

– كذلك؟! أدخلي. ولكن مَن هذا الغلام الذي معك؟

– غلام يتم تبنيته لَمَّا وجدته وحده على الطريق وأنا وحدي. وقد عنى بي عناية كبيرة حتَّى حَسِبته روحًا سماويًا.

ولم يَقُل الرجل شيئًا وظهر عليه الضيق، فهزَّ كليم رأسه وقال:

– سأُخبرك مَن أنا.

ثُمَّ انتحى به جانبًا، وصارحه بحقيقة نفسه وبما حدثَ له.

– لا نستطيع أن نبُقيك هنا يومًا واحدًا. فلو عَلِمَ أحد أن في بيتي أجنبيًا لقتَلوك وقتلونا جميعًا. فيجب أن تستأنف سفرك مُنذُ الفجر بمجرد فتح البوابة الشرقية.

– سأفعل ذلك..

– أنتظر. لَن أترُكَك تخرُج بغير حماية وتتعرض للقتل، ولي ابن أُخت أكبر مِنك سِنًا، سيتولى قيادتك إلى الشاطئ.. وسأُعطيك ثيابًا أفضل مِن هذه، ثُمَّ تنام بِضع ساعات، وستصنع لك أُم أولادي طعامًا تأخذه معك. هل لديك نقود؟

فأجابت عنه المرأة العجوز قائلة:

– ليس معه نقود، فقد أصرَّ على إنفاق نقوده في الطريق ولهذا سأُعطيه نقودي.

– كلَّا. اِحتفظي بنقودك يا أُماه. سأُعطيهِ أنا ما فيه الكفاية.

وتمَّ كل ما قرّره الحداد. فاستحم كليم، ثُمَّ بدّل ملابسه وأكل ونام نومًا عميقًا، إلى أن أيقظه الحداد قبل الفجر، فقد ظلَّ ساهرًا بجواره لشدة خوفه مِن أن يكون أحد قد أبلغ السلطات وجود الغلام الأجنبي عنده. ومِن الباب الخلفي الصغير تسلّلَ، وفي صحبته ابن شقيقة الحداد. وإذا بالعجوز تقبض على كتفيه وتضُمه إلى صدرها ثُمَّ تئن متوجعة:

– ويلي. ستنساني حين تعبر البحر.

– لن أنساكِ يا جدة.

– ليس عندي ما أهديه إليك، ولكن اِنتظر.

ثُمَّ خَلَعَت الصّليب النّحاسي الصّغير مِن حول عُنقها، وربطته في مِعصم يده قائلة:

– أُعطيك هذا ليكون حفيظًا عليك، وتَذَكّر أن تُصَلّي في الصّباح والمساء وأنت ممسك به، ولتكُن صلاتك في الصلاة البوذية لأن رب هذه التميمة قد تعودها مني.

ولَمَّا غلبها البكاء وهو في أحضانها؛ دفعته بعيدًا عنها برفق فأَنطلقَ والغُصة تعترض حلقه، ورافقه الغلام الأخر فلم يُجاذبه الحديث إلى أن بلغا شاطئ المحيط فافترقا. وأعطى كليم للغلام كل ما معه مِن النقود تقريبًا. ثُمَّ مشى يبحث بين السفن المزدحمة في الميناء عن سفينة حربية أمريكية تنقله إلى وطنه.

وكان أول ما سمعه من الآنباء في الميناء أن الجيوش الأجنبية دخلت العاصمة، وأن الامبراطورة العجوز فرّت هاربة. وأنَّ سكان بكين أنزلت بهم خسائر فادحة بعد الهزيمة. فقلق على آل فونج وتساءل ماذا جرى لهم في تلك المحنة، وهل نالهم مِن وخيم عواقبها شيء. ولكن لم يستطع بطبيعة الحال أن يصل إلى قرار.

في حديقة الورد

كان وليم لين يتمشى على طول الشاطىء، وقد فرضت عليه الوحدة، لأنَّه لم يجد غُلمانًا في سنه يصحبهم، وكان لا يُحب مُصاحبة شقيقتيه، وقد ظنَّ في أول يوم وصل فيه إلى بيت جده المُطل على الشاطئ أنَّه شاطئ خاص، وكم كانت حسرته حين تبيّن له أنّه لا وجود للشواطىء الخاصة في أمريكا. فكل شيء هنا ملك للجميع.

أمَّا المعيشة في البيت فكانت مصدرًا جديدًا للضيق. فلا خدم هنا من الصينيين يمسحون الأحذية، ويتلقون الأوامر بالطاعة والإنحناء. ومعيشة جدبه متواضعة لا تُرضي غروره وكبرياؤه. لذلك كان يلُوذ في معظم الأحوال بالتّجوال وحده هنا وهناك، وكان الشاطئ والطرقات مقفرة في تلك الساعة الباكرة مِن بعد الظهر.

وقادته قدماه إلى ربوة خضراء قرّر أن يتسلقها، خاصة عندما وجدَ درجات خشبية مزركشة بالحشائش مِن الجانبين، فأدركَ أن المكان جزء مِن حديقة خاصة واسعة. ولكن أغراه بالدخول أنه لم يرَ أحدًا. فجعلَ يتمشى بين العشب والأزهار نصف ميل، إلى أن تراءى له بيت كبير تُخفيه الأشجار، فتَحسّر لأن البيت ليس بيت جده. إذن لكان أفخر النَّاس بنسبه، وبوطنه!

وألقى بنفسه على العشب، ثُمَّ دفن وجهه بين ذراعيه واَستسلم لِموجة اليأس التي اِستولت عليه، وتمنّى مِن كل قلبه لو أن الصيف أنقضي بسرعة ليترك هذه الأسرة المُخجلة، ويعيش في الكلية الجديدة وحده؛ ولكن كيف يستطيع دفع نفقات الدراسة وهذا جده لأمه قد أعلنه أنه غير مستعد للمساهمة في المصاريف:

- دعي الغلام يعمل يا ابنتي بالليل ليكسب قوته بعرق جبينه، فذلك أنفع له، ولا تُفرطي في تدليله، ثُمَّ إن ما معي من النقود لا يفيض كثيرًا عن حاجات شيخوختي، ويكفيني أن أطعم أربعتكم بغير مقابل، ولو لم يكن وليم شديد الكبرياء لبكى مِن الغيظ وهو مستلق هكذا على العشب. وفي تلك اللحظة سمع صوتًا يكلمه:

– ماذا تفعل هنا يا غلام؟

فرفع رأسه ورأى شيخًا مهيبًا يتكئ على عصا وفوق رأسه قبعة رمادية واسعة مِن لون سترته، وكان وجهه أسمر ولحيته المدببة بيضاء.

– معذرة يا سيدي. فإنّي لم أستطع مقاومة إغراء المنظر، ووجدت نفسي مُتعبًا فرقدت لأستريح برهة قصيرة.

– وهل أعجبك ما رأيت؟

– إلى أقصى حد.

فهزّ الشيخ رأسه برهة وراح يتفحصه، ثُمَّ انفجر ضاحكًا وقال:

– يبدو لأول وهلة مِن وقفتك وكلامك أنّك إنجليزي.

–كلَّا يا سيدي. لست إنجليزيًا ولكنّي تربيت في الصين في مدرسة إنجليزية.

– في الصين؟ لقد حدثت إضطرابات هناك أخيرًا.

– أجل يا سيدي وهذا سبب قدومنا جميعًا ما عدا والدي المحصور هناك.

– وماذا يصنع والدك في بكين يا غلام؟

- أرجو ألَّا تعجب يا سيدي. فهو مرسل أسقفي.

وكان حريصًا على توضيح كلمة أسقفي، لأن الكنيسة الأسقفية هي الكنيسة الأرستقراطية. ولعلَّ هذا يخفف مِن خجله من صناعة أبيه، وغضّ بصره ليتجنب نظرة الإِحتقار، ولكن أدهشة أن يجد مِن الرجل تقديرًا لمهنة أبيه وإِهتمامًا بها، ثُمَّ دعاه لتناول الشاي مع الأسرة في الشرفة ليقص على زوجته مسز كاميرون أخبار بلاد الصين العجيبة فهي مغرمة بالأسفار، وليعرفه بابنه الذي سيدخل في أول السنة جامعة هارفارد.

- يا للمصادفة السعيدة. فأنا أيضًا ذاهب إلى هناك.

– إذن سيسر أرميا كثيرًا بمعرفتك.

ودخلَ بهوًا واسعًا له باب من الجهة الأخرى، يفضي إلى حديقة الورد. وكانت حديقة تستغرق مساحتها عشرات الأفدنة، مُنسقة تنسيقًا بديعًا، في كل ملليمتر منها جهود عشرات الأخصائيين. وفي قمرة بديعة من البللور مدت مائدة الشاي، وجلست إليها مسز كاميرون بجمالها الرائق

وشعرها الذي خطه المشيب، وبجانبها غلام في مثل سنه مضطجع فوق أريكة وله وجه شاحب وديع وفي حجره كتاب مقلوب، وقام مستر كاميرون بالتعريف فراحت مسز كاميرون تمطره بالأسئلة عن بلاد الصين. وهكذا اِندمجَ في الحديثِ معها، في حين فتح مستر كاميرون صحيفة يُطالع فيها أخبار التجارة، إلى أن دخلت فتاة في السادسة عشرة، ذهبية الشعر، ترتدي البياض مِن رأسها إلى قدمها وفي يدها مضرب تنس، ووجهها شبيه بوجه شقيقها، بيد أنَّها وردية الوجنتين، ممتلئة الشفتين. وقام أرميا بتقديم وليم إليها، ثُمَّ قال:

– هذه شقيقتي الوحيدة كانداس.

– هل تلعب التنس؟

– أجل، ولكن ليست معي أشيائي.

– تعالَ إذن فعندنا الكثير منها.

ثُمَّ جذبته مِن ذراعه بالرغم من اِحتجاج أُمها، وأخذته إلى حجرة بها مجموعة ضخمة مِن ملابس التنس وأدواته، وبعد ذلك قادته إلى ملعب واسع، صُنِعَت أرضه مِن الأسمنت. وفي الطريق سألته عن سنه وحياته، فاتّضحَ أن الفارق بينهما سنة. وأنَّها بعد عام حين تبلغ السابعة عشرة ستقدم رسميًا للمجتمع في نيويورك وتترك المدرسة نهائيًا.

وغاظه منها أنَّها كانت تُعامله بألفة، وبغير إكتراث، ثُمَّ لم تتورع عن التغلب عليه في اللعب. وفي ختام الشوط قالت له بغير مبالاة:

– هذا يكفي اليوم، ولعبك لا بأس به. فلابد لي أن أُبدل ملابسي قبل أن يحضر الضيوف، طاب يومك.

ثُمَّ تركته يتحسس طريقه وحده. وبحسرة فارق حدود الحدائق، واتَّجه على مضض إلى بيت جده، لتلقاه الخادمة الوحيدة العجوز، فتنهره؛ لأن حذاءه يحمل آثار الرمال النّدية بعد أن تعبت في كنس البيت، فازدادَ حقده على فقر ذويه، وعول على أن يصل إلى الثراء والسلطان بجميع الوسائل.

المزرعة الضائعة

وصلَ كليم بعد صِعاب ومشاق إلى ولاية بنسلفانيا. وراحَ يسأل النَّاس عن مستر شارلس ميلر المُزارِع، إلى أن دلّه رجل عجوز على الطريق. ثُمَّ أردفَ قائلاً:

– ولكن الرجل ماتَ مُنذُ سنوات. شنقَ نفسه في جرنه. لأنَّه كان رجلاً رقيق القلب.

– وهل يشنق رقيقو القلوب أنفسهم هنا؟

– نعم، فقد ساعد الجمهوريين في الإنتخابات، فلمّا نجحوا قلدوه منصب العمدة في القرية، وبحكم منصبه تحتّم عليه أن يخرج مزارعًا فقيرًا مِن مزرعته بالقوة؛ لأنَّه لم يستطع الوفاء بالرّهن العقاري. فقامَ بواجبه ثُمَّ أرّقه ضميره جملة ليالٍ، فلم يطق ذلك العذاب وشنق نفسه، لأنَّه كان رجلاً طيبًا لا يطيق أن يؤذي ذبابة، وكان يعيش وحده مكسور القلب بعد أن هجره ابنه الوحيد مُنذُ عشرين سنة إلى مكان لا يعرفه أحد. ولم يعد بعد ذلك أبدًا.

– هذا الولد أبي أنا..

– حقًا؟..

– نعم أبي، وقد مات هو أيضًا ولهذا جئت أبحث عن جدي وها أنا أجد جدي مات مُنتحرًا. فلست أدري الآن ماذا أصنع؟

– اِركب بجواري، وسأوصلك إلى المزرعة التي كان يملكها جدك. وستجد فيها قومًا آخرين ربما ساعدوك من بعض الوجوه.

واجتازت العربية مكانًا مقفرًا، إلى أن بلغت شبه واحة منعزلة أشارَ إليها الرجل ثُمَّ أنزله واستأنف طريقه. فوقفَ كليم يتطلع إلى البيت المُشيّد مِن الحجارة، وإلى الحديقة التي جلسَ تحت شجرة منها غلامان وفتاتان في ملابس بالية، يأكلون خبزًا جافًا. فلمّا لمحوه أخفوا الخبز الجاف وراء ظهورهم. وعندما طرق الباب وطلبَ مُقابلة المُزارِع نصحوه بالاِبتعاد لأنَّه رجل فظ القلب، وهو ليس أباهم لأن الرجل لا أولاد له. وإنّما هم مِن أبناء المعونة.

– وما معنى أبناء المعونة؟

– لا أهل لنا. تعهد بنا الولاية إلى المزارعين ليربونا بالصدقة.

وفي هذه اللحظة خرجَ الرجل البدين القصير من باب البيت، وصرخَ في الأولاد ليستأنفوا العمل، ففرّوا هاربين، كمن خرج لهم عفريت، ثُمَّ اتَّجه نحو كليم وسأله عن بغيته. وبعد حديث قصير رضى الرجل أخيرًا أن يسمح له بالعمل عنده باللقمة، على أن يُخاطب في شأنه مفتشة إدارة المعونة، لتقيده في سجلاتها ما دامَ صبيًا لا أهل له وسنه لا يزيد على خمس عشرة سنة.

وكانت المزرعة مُنعزلة عن سائر العالم، كأنَّها جزيرة في وسط البحر. والأطفال الخمسة كأنّهم مجموعة بشرية قائمة برأسها تفزع مِن المزارِع وزوجته لشحمها وقسوتهما. وقد رآهما كليم يضربان الأربعة الأخرين بكل غلظة، أمّا هو فكان لمهارته وذكائه وجده لا يتعرض لذلك الإيذاء، وكان لملازمته الصمت على الدوام لا يحترثان عليه.

وعهد إلى كليم بحلب البقرة فكان يصحو مع الفجر فيغتسل ويحلبها، ثُمَّ يخفي وعاء مملوءًا ليعطيه للأطفال الأربعة. أمّا هو فكان يكره مذاق اللبن. وبالرغم مِن عدم حصوله على كفايته مِن الطعام؛ قد أخذَ جسمه ينمو فراحَ يبتهل إلى الله أن يهيئ له سبيل الخلاص مِن هذا الفخ الاستغلالي الذي وقع فيه. وأن يتمكن من تخليص هؤلاء المساكين الأربعة.

ومع مرور الوقت أخذَ كليم يبرِع في أعمال الزراعة وفنونها، وصارَ يخفي بعض الثمار ليأكلها الأطفال، الذين وضَعَهُم تحت رعايته. وكلمّا فَكّرَ في النّجاة وحده، لم يطاوعه قلبه لكي لا يترك هؤلاء الأربعة يقاسون العذاب وحدهم.

وذاتَ يوم اهتمت إمرأة المُزارِع بتبديل ثيابهم وتنظيف أجسامهم؛ لأن مفتشة المعونة ستأتي في دورتها نصف السنوية. ورأى الأطفال فرحين لِقُدومها. فلمّا سألهم عن السبب همسوا في أُذنه:

– إن سيدتنا تصنع طعامًا كثيرًا لذلك اليوم، ولا تمنعنا مهما أكلنا في وجود المفتشة.

– ولماذا لا تخبرون المفتشة بسوء معاملتكم، فتأخذكم إلى مكان آخر؟

فسكتوا بُرهة ثُمَّ قال واحد منهم:

– الحقيقة إنّنا تعودنا الإقامة هنا، وأصبحنا لا نفكر في مكان سواه. ومن نعرفه خير ممن لا نعرفه.

فأدركَ كليم أن الاِستبداد قد نالَ مِن قلوبهم حتَّى ذهبَ بكل ما فيها مِن نخوة أو أمل فأستناموا للظلم واستمرأوه.

وأقبلت المفتشة قبل الظهر، بعد أن قضى الجميع فترة الصباح، واقفين في الشمس عند الباب، فوجدت الجرن نظيفًا وكذلك البيت والحظيرة. وكل ما لم يسعفهم الوقت بتنظيفه أخفوه عن عينيها، وأحسن المزارعان اِستقبالها بكل إحترام، ثُمَّ نظرت في الأولاد وهزّت رأسها بإرتياح وقالت:

– عظيم.. عظيم.. كل شيء على ما يُرام.

– إنّنا نطعمهم بأقصى ما نستطيع، ولكنّهم لا يسمنون أبدًا، مع أن شهيتهم جيدة وسترين بنفسك كيف يأكلون.

– لا بأس.. لا بأس.. ولكنّي أرى هنا خمسة وفي السجل أربعة فقط.

– إنّه مسكين لا أهل له، طرق بابنا فلم نردّه خائبًا، وآويناه على أن نخبرك عندما تحضرين.

فتلاشت البشاشة مِن وجه المفتشة، وقالت لكليم بحدة:

– من أين أتيت يا غلام؟

– مِن الغرب.

– ولكنّك لا تستطيع أن تأتي هكذا بغير إجراءات. فالولاية لا يُمكن أن تنفق على أيتام الولايات الأخرى جزافًا.

– ظننت جدي على قيد الحياة. وقد كان رب هذه المزرعة.

فبادر المزارع يشرح لها قصة جده:

– أنت إذن حفيده. حفيد المشنوق؟

– نعم

– قل نعم يا سيدتي، وما دليلك؟

– ليس معي دليل.

قال المزارِع بلهفة:

– إنّه حفيد شارل ميلر ولا شك. فهذه سحنته تمامًا. وسأضمنه أنا.

– فأشارت بيدها العجفاء العاطلة مِن الخواتم علامة على الضيق، فهي إمرأة لم تتزوج أبدًا وقد نيفت على الخمسين فلا عجب أن يضيق صدرها بأولاد النَّاس.

– لحسن حظك أن أحد الأولاد في المزرعة القريبة مات في الشهر الماضي، وأستطيع أن أحول إعانته إليك.

وهكذا انتهت الزيارة، دون أن يظفر بطائل أو يجسر أحد على الشكوى؛ لأنَّها كانت غير مكترثة إلَّا بتسديد الخانات في دفترها. وأدراكَ كليم أن المزارع يتقاضى إعانة من الولاية عن كل طفل يأويه عنده. وهو مسئول عن إطعامه نظير ذلك والعناية به.

وهجمَ الأطفال على المائدة، هجوم الجياع على القصاع. فجعلت المفتشة تنظر إليهم، ثُمَّ تنظر إلى المزارع وزوجته وتقول:

– إنّهم حقًا في هذه السن لا تمتلئ لهم بطون.

– إنّنا نبذل خير ما في وسعنا.

– أنا واثقة من هذا، وقد شهدته بنفسي. والحقيقة يا مسز برجر أن كل شيء على ما يُرام، وسأكتب لك شهادة طيبة. وأطلب زيادة الإعانة إن أمكن، لمواجهة نفقاتك الاِستثنائية في إطعام هؤلاء.

ثُمَّ لاحظت أن الجميع شربوا اللبن ما عدا كليم لأنَّه يكرهه، فنهرته.

– يجب أن تشرب اللبن يا غلام. فلهذا نربيكم في المزارع.

– ولكنّي لا أُحب اللبن.

– قل لي يا سيدتي دائمًا. ولا يهم إن كنت تحبه أو لا تحبه. اِسقهِ إيّاه يوميًا يا مسز برجر. والآن أنطلق لإتمام جولتي.

بعد أن ذهبت مفتشة المعونة لحال سبيلها لكي لا تعود إلّا بعد نصف سنة على الأقل، أثارَ كليم أن يعود المزارع وإمراته في اليوم نفسه إلى سالف عادتهما مِن التجويع والقسوة. بيد أنّه لم يجرؤ على الشكوى؛ لأنَّه أصبح بحكم القانون تحت ولاية هذين المخلوقين. ولو قدر لهما أن يكتشفا قوته وشجاعته لضيقا عليه الخناق، وضيقا ما كان يفكر فيه من خطة للفرار.

وكانت تربيته في بلاد الصين قد عودته كظم الغيظ، فلا يترك العنان لثورته مهما اشتدَّ غضبه. فحبسَ ثورته خلف أسنانه، وصارَ يسرق الطعام ببراعة فائقة، بحيث يظن الرجل أن إمرأته هي التي أخذت الطعام الناقص وأكلته، وكان يخشاها. وتظن المرأة في الوقت نفسه أن زوجها هو الذي أكله. فإذا سألته وأنكر، فمن دأبها ألّا تصدقه. بل كانت تنعته أمامهم بالكذب والخيبة. أمّا وجوه الغلمان فكانت لا تنم عن شيء.

والذي كان يشجع ضمير كليم على هذه السرقات شعوره أن فتى صغيرًا مثل تيم اِستطاع تسكين جوعه بتلك المسروقات. وأن فتاة صغيرة مثل جان أكلت قطعة مِن الزُبد. لأنَّه كان يوزع الأسلاب بالعدل ولا يستبقى لنفسه شيئًا.

وعند إبتداء الخريف خاطب برجر قائلاً:

– أُريد يا سيدي أن أذهب إلى المدرسة الإلزامية حسب القانون. وكذلك سائر الأطفال.

– ولكنّك غير مطالب بالذهاب، فالقانون لا يعرف مجرد وجودك هنا حتَّى الآن.

– أنا مُستعد أن أُخبرهم.

– جرب أن تُخبرهم لترى ما أفعل بك.

وبذلك فشلت أول خطة. فعول على الهرب في يوم السبت حينما يذهب الرجل وزوجته إلى سوق المدينة لشراء ما يلزمهما، وعول كذلك على اِصطحاب الأطفال معه، وإلَّا أنهكهم الجوع والتعب وماتوا واحدًا بعد الأخر.

ولم يكن يدري على التحقيق إلى أن يذهب ولا ماذا سيفعل بهم. وعلى فرض أنّه وجد عملاً فهل يكفي عمله لإطعامهم؟

وأخيرًا حلّ يوم السبت، رائقًا لطيف النسمات. فشعرَ كليم بأنّه يحب هذه الأرض التي يوشك أن يُفارقها، ومع ذلك قاوم نفسه، وذهب في ساعةُ مبكرة كعادته فاستحم في البركة الصغيرة الباردة. ثُمَّ جفف نفسه بالوثب في الشمس وتحريك ذراعيه. فقد كان صحيح البنية على الرغم من قلة الغذاء. وعندما اِرتدي ملابسه وذهب إلى الجرن وجد برجر هناك، فأخذ أدواته بغير كلام، ثُمَّ أنصرف إلى حلب البقرة.

وبعد ذلك أسرج برجر الفرس وشدّها إلى العربة، ثُمَّ وضع فيها زكائب القمح التي أرادَ بيعها وبضع سلال من التفاح، وقبل أن ينصرف مع زوجته صاحَ بكليم:

- لا تنسَ إخراج السياخ مِن الزريبة، وتكويمه في الشمس. ولا تنسَ طعام الدجاج. وتستطيع أن تُكَلِّف تيم بأي عمل قد أمرته أن يُطيعك. وتركت لكم جميعًا الطعام في المطبخ، وليس هناك غيره، فلا تفتحوا الجرار أو أي شيء.

وفرغَ كليم مِن حليب البقرات، ثُمَّ حملَ اللبن إلى المخزن البارد، حيث يحفظ لعمل الزبد. وذهبَ بعد ذلك إلى المطبخ ليبحث عن الغذاء، وهناك وجد الأطفال الأربعة قد سبقوه فجلسَ وأكل معهم. وبعد أن اِنتهى الأكل خاطبهم قائلاً:

– أصغوا إلي جميعًا.

فرفعوا إليه وجوههم النحيلة. فأستطرد قائلاً:

– ما رأيكم في الذّهاب معي بعيدًا عن هنا؟

فسكتوا كلهم كأنّهم لم يفهموا شيئًا. ثُمَّ سأله تيم:

– نذهب إلى أين؟

– لست أدري. نهرب ثُمَّ نبحث عن مكان أفضل.

فسألته الفتاة مامي هذه المرة:

– وأين ننام؟

– سيأخذ كل واحد مِنّا غطاءه، وننام وسط الحشائش إلى أن نجد بيتًا أو حجرة أو أي بِناء يأوينا حسب الظروف.

– وماذا نأكل؟

سأشتغل وأحصل على نقود، وأشتري لكم بها طعامًا. وتيم أيضًا في مقدوره أن يشتغل. وأنت أيضًا يمكن أن تلتحقي بخدمة بيت

وكان يتوقع أن يجد لديهم اِستجابة فرح أو اهتمام، ولكن كل ما لاقوه به هو نظرات فارغة بلهاء، وهذه جان لم تقل شيئًا وكأنها نصف نائمة.

– ماذا بك يا جان؟ هل أنت مريضة؟

فرفعت عينيها الواسعتين بلونهما الأزرق الباهت إلى وجهه، لا إلى عينيه بالضبط بل ربما إلى ذقنه أو فمه وهزّت رأسها وهمست:

– متعبة إلى أقصى حد.

– متعبة بحيث لا تأتين معنا إلى الهواء والشمس والحرية؟

– لا أستطيع.

– في إمكانك أن تستريحي بعد أن نمضي بضعة أميال في طريقنا.

– كلّا. لا أستطيع.

وعندئذٍ قالت ماهي.

– إن لم تذهب جان فلن أذهب أنا أيضًا.

وأعلن تيم مثل هذا الرأي. فذُهِلَ كليم وصاحَ:

– إنّكم تكرهون هذا المكان، وتعاملون فيه أسوأ معاملة، ولا يقدمون لكم مع ذلك ما تملأون به بطونكم من طعامهم السيء، إذن سأترككم هنا. فقد عولت شخصيًا على الرحيل وسأرحل. ولكم أن تخبروهما حينما يعودان الليلة من السوق. قولوا لهما إنّني ذهبت، ولن أعود فلا لزوم للبحث عني.

ففاضت عينا جان بالدّمع، وسأله تيم:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى المكان الذي أتيت منه.

ولم يكن هذا صحيحًا. وإنّما خرجَ هذا الكلام من عقله الباطن؛ لأنَّه كان يحنُّ دائمًا للعودة إلى بيت مستر فونج في شوارع بكين المأنوسة، تِلكَ الشوارع التي لم يدرك قبل الآن إلى أي حد أحبها. أجل أنّه لا يستطيع العودة إلى هناك الآن، ولكن النّجاة بنفسه مِن هذا المكان شيء ممكن وسيُقدم عليه، وأمّا هؤلاء المناكيد قد أراد أن يمنحهم الفرصة فرفضوها، لقد أرادَ أن يحمل مسئوليتهم على ظهره فأبوا. فالآن هو في حل من التفكير في أمر نفسه فحسب.

وصعد السلالم المتعرجة فحمل حقيبته بعد أن دسَّ فيها ثيابه. وكانت معه بقية ضئيلة من النقود التي أكتتب له بها بحارة البارجة، التي نقلته إلى شاطئ أمريكا. وكان قد خبأ هذه النقود في مكان أمين لكي لا تسرقها المرأة أو الرجل.

ووقف بُرهة يخامره خاطر أخذ بطانية يتغطى بها. ثُمَّ اِشمأزت نفسه مِن فكرة أخذ شيء مِن هذا البيت. إنَّه لن يأخذ حتَّى ولا رغيف خبز. فالجوع لا يهمه ما دامَ وحده.

وهبطَ السلم حاملاً الحقيبة، فوجد الأخرين حيث تركهم في المطبخ لم يتحرك منهم أحد، فنظرَ في عيونهم بشجاعة وقال لهم:

– وداعًا جميعًا. ولا تنسوا إنّني عزمت عليكم أن تأتوا معي.

تم وضع قبعته فوق رأسه، وخرج وهم يحملقون فيه ولا يردون تحيته. فأشتدّ غيظه منهم وأسرع فاجتاز البوابة إلى عرض الطريق، ليستقبل عالمًا لا يعرف عنه شيئًا.

وأمده اليأس بقوة وشجاعة غير عاديين، كما أن جمال المناظر رفع من روحه المعنوية، فساوره الأمل أن يكون هنا وهناك في أرض الله الجميلة الواسعة قوم كرام رحماء مثل آل فونج، الذين آووه وأنقذوا حياته، ولسوف يجد عملاً ثُمَّ يردّ لهم الجميل على قاعدة القرض الحسن.

ومن يدري فربما تحسنت أحواله، وأستطاع أن يعود يومًا ليرى هؤلاء الأطفال المساكين، الذين تركهم في المطبخ وكأنّهم نصف نيام.

وبعد أن جدّ في السير ميلاً أو نحو ذلك سمع وقع أقدام تعدو خلفه على أرض الطريق، فوقفَ ونظرَ وراءه، فرأى الغلام بامب يناديه وهو يجري بأقصى سرعته، فانتظره إلى أن أدركه فوضع يده على شعره الأحمر وسأله ماذا تريد:

– أريد أن آتي معك..

فحملق كليم في وجهه بُرهة. لأنَّه رأى فيه عبثًا وقد ظنّ نفسه سيمضي خفيفًا بعد أن رفضوا الإنضمام إليه، ثُمَّ تحرك ضميره فمدّ يده وتناول ذراع الغلام الصغير وقال له:

– وهو كذلك. هيا بنا..

أحلام الحب

وفي منتصف شهر أغسطس، طلعت الصحف على النَّاس أنَّ حِصار بكين قد انتهى. ثُمَّ وصلت برقية مِن الدكتور لين أنَّه عازم على البقاء هناك. فلم تجد مسز لين بدًا من العودة مع البنتين إلى بكين. وذهبَ وليم وحده لأداء اِمتحان دخول الجامعة.

ولكن مسز لين اِستطاعت قبل أن تسافر أن تظفر له بتدبير خارق للعادة، جعل طريقه مفروشًا بالورد. فقد اِختارت بعد ظهر يوم أحد لزيارة المستر والمسز كاميرون في قصرهما الصيفي، وكانت قد وطدت معرفتها بهما مدة الصيف؛ عن طريق وليم الذي كان يتردد للعب التنس كل يوم تقريبًا. وكان يقول لها:

– إنَّ آل كاميرون هم طراز النَّاس الذي أشعر إنني أنتمي إليه، وأُريدهم أن يدركوا أن لي أمًا لا أخجل من إنتمائي إليها. فلا تأخذي معك الفتاتين ولا والدتك.

وكان هذا التقدير الخاص لها يرضي غرورها، ويزيدها تعلقًا بأبنها. ولم يهمها أن مسز كاميرون تعللت بالمشاغل وبحالتها الصحية لعدم رد الزيارة، بل أن ذلك سرّها حتَّى لا ترى مسز كاميرون بيت والديها.

وفي زيارتها الختامية بعد ظهر يوم الأحد أدخلها كبير الخدم إلى حجرة الجلوس؛ حيث كان مستر كاميرون يُطالع صحيفة التجارة، أمّا مسز كاميرون فكانت كعادتها لا تعمل شيئًا، فأستقبلتها مشيرة بحركة رشيقة مِن يدها اليسرى التي يتلألأ فيها الخاتم الماسي الكبير إلى مقعد. فجلست شاكرة. ولما كانت تعلم ضيق صدر الأغنياء، فقد دخلت في الموضوع بمجرد أن وضع المستر كاميرون الصحيفة جانبًا ليحيّها.

– لا أُريد أن أُعكر عليك قراءتك، وإنّما أتيت بضع دقائق للتوديع. ولغرض آخر يتصل في الواقع بوليم.

– وما خطب وليم؟

– لقد كان دائمًا متفوقًا في المدرسة. ونحن نتوقع أن يتخرج من هارفارد كما تخرج والده من قبل بمرتبة الشرف، فلا قلق من هذه الناحية. وإنّما القلق يساورني أنا؛ لأنني سأتركه وحيدًا وهو في هذه السن. وليس هناك من يقوم مقام والديه، لأن والدي ووالدتي تقدمت بهما السن جدًا وعقليتهما لا تستطيع فهم عقليته العصرية. أمَا والدا زوجي فماتا مُنذُ زمن بعيد وتفرقت الأسرة. فلو إنّني أستطعت أن أشعر أن وليم سيجد فيك وفي مسز كاميرون مرشدين كريمين عن طريق أرميا..

فتدخلت مسز كاميرون في الحديث قائلة:

– في اِستطاعته دائمًا أن يأتي إلى هنا بنفسه، فهناك عدد كاف من الحجرات فتنهدت مسز لين تنهد الأرتياح بصورة تمثيلية ناجحة وقالت:

– أشكرك من أعماق قلبي يا مسز كاميرون؛ لأني كنت مشغولة من جهة الأجازات الجامعة الطويلة، وكيف سيقضها وحده. وكانت وجهة نظر والده إنّه يجب أن يقضيها في عمل يربح منه جزءًا من نفقاته، ولكن ماذا يدري وليم الصغير المسكين عن مثل هذه الأمور يا مستر كاميرون؟

– إن العمل لن يؤذي شابًا مثله.

– وهذا ما يقوله والده تمامًا. وأنا واثقة أنّكما على صواب. ولهذا أرجو منك يا مستر كاميرون، في عطلة الصيف الأولى على الأقل أن تُساعده في العثور على عمل مُناسب، أعني عملاً لا يؤدّي به إلى المعاشرات الرديئة. فالفتى يجهل حتَّى اليوم طبائع الشعب الأمريكي ولا يعرف كيف يختار لنفسه.

– وهو كذلك. أستطيع أن أعدك بهذا. فتحت يدي دائمًا أعمال تنتظر الشبان الجادين، وأنا شخصيًا تكفّلتُ بنفسي تمامًا مُنذُ سن الخامسة عشرة.

وعندئذٍ خطت مسز لين إلى النقطة الدقيقة في الموضوع كله..

– والآن سأطلب شيئًا فيه شيء مِن الجرأة حقيقة يا عزيزي مستر كاميرون. ألا تظن أن وليم يمكن أن يكون نافعًا مِن بعض الوجوه لنجلك؛ ألا تظن مثلاً إنّه يستطيع أن يعني به أو يساعده على اِستذكار دروسه حين تتوعك صحته مثلاً، يلازمه ويمرضه ويحضر دروسه ليقيد له المذكرات وما إلى ذلك؟

ولما وجدت نظرة روجر كاميرون جامدة نفاذة تحولت متوسلة إلى مسز كاميرون فسرها أن تجد عندها اِستجابة. وفعلا قالت:

– ربما كانت هذه فكرة طيبة يا روجر. فصحة اِبننا كما تعلم ضعيفة بسبب هذه العلّة المزمنة التي تحتجزه في الفراش أيامًا كثيرة من السنة.

– إن وليم شخص جم الكبرياء.

– ولكنّه لا يتكبر عن مساعدة صديق.

– لستُ أعني هذا، وإنّما أعني أن في قلبه قسوة وطموحًا شخصيًا، ولكن لا بأس فماذا تتوقعين منّي أن أدفع له؟

فأدركت مسز لين أن المعركة اِنتهت، وإنّها كسبتها، فهزّت رأسها بترفع، وجمعت يديها في حجرها وقالت بكل حياء:

– أرجو منك يا مستر كاميرون ألّا تسألني هذا السؤال. فلي كل الثقة في حسن تقديرك. وفي عظم سخائك أيضًا، وأتمنى ألّا يكون بيننا مُطلقًا أي حديث عن النقود؛ لأنَّه حديث محرج ومؤلم. ولو أن زوجي بقى بعد تخرجه في الجامعة في وطنه، ولم يؤثر خدمة الرّب بعيدًا عن الوطن لنالَ الجاه والثّراء. ولكن لا بأس.

ثُمَّ وقفت، وتناولت يدي مسز كاميرون بين يديها وابتسمت متجلدة وقالت:

– لا أستطيع أن أُعبر لك عن إمتناني وشعوري بالإِطمئنان على وليم، في عناية رشيدة كعنايتكم أيها الصديقان الكريمان.

تبادلَ الزوجان النّظرات، ثُمَّ هزّت مسز كاميرون كتفيها وقالت:

– مِن حسن المصادفة أن وليم شاب وجيه. فلا يضيرنا أن يكون مُقيمًا معنا. وفي اِعتقادي إنّه سيكون نافعًا لأرميا. وإن كنت أحيانًا أشعر عندما أرى يديه الصغيرتين جدًا أن فيه أنانية وقسوة.

– ربما كان من الخير لأرميا أن يلازمه شاب فيه خشونة، كي يستثير حيويته الضعيفة بعض الشيء.

– كل ما أخشاه يا عزيزي روجر أن وجوده في الأجازات الطويلة وابنتنا في مثل سنه ممتلئة صحة وقوة وشبابًا سيجرهما إلى اللعب دائمًا معًا وإلى النزهات. وأنا لا أُحب أن تزوج ابنتي ابن مرسل.

– ستتزوج كاندي أي إنسان يقع عليه إختيارها. وأنا لا أعلق أهمية كبيرة على تصرفات الأبناء. فرأيي أنّه إن عاجلاً أو آجلاً يستقل الصغار عن الكبار، وينفضون يدهم منهم غير مبالين.

وفي أول مرة التقى بها مستر كاميرون بوليم قال له:

– ستكون شريك أرميا في مسكنه. في الدرجة الأولى من القسم الداخلي. وسأترك لك اختيار الوسائل المناسبة لمساعدته، وأهم ما ينبغي أن تحرص عليه هو إشاعة المرح في نفسه باِستمرار، فنحن لا نؤمن بجدوى

العقاقير في علاج الأمراض المزمنة، ولا سيما العصبية والدموية. فالحالة النفسية أكبر عامل في التّقدم نحو الشفاء.

– حقًا يا سيدي. سأبذل وسعي عن طيبِ خاطر؛ لأن أرميا أحب شاب ألتقيت به حتَّى الآن إلى قلبي.

– هذا جميل، والآن هل تكفيك علاوة على نفقات السكن بالقسم الداخلي مائة دولار شهريًا؟

– أي مبلغ تحدده يا سيدي مُناسب.

والواقع أنّه دُهِشَ لجسامة المبلغ، الذي لم يكن يحلم بربعه ولكنّه عرف كيف يخفي سروره اِخفاء تامًا.

– حسنًا. وإن لم تجدها كافية فلا تتردد في اِخباري، ثُمَّ ما رأيك في أن نبقي هذا الإتفاق سرًا بيننا، حتَّى لا يشعر أرميا إنّك مستخدم عنده؟ وأنا أُريده أن يتمتع بشعور الصداقة لا بوحشة السيادة.

– أتعني أن يبقى ذلك بيني وبينك فقط يا سيدي؟

وفرح جدًا لأنَّه كان قلقًا من وجهة كاندي عندما تعلم إنّه أجير أبيها، وليس ندًا حقيقيًا لها

– أنا وأنت فقط. ومسز كامرون تعلم بطبيعة الحال المسألة إجمالًا. ولكنّها لن تخبر أحدًا لأنني طلبت إليها ذلك. وأمّا التفاصيل ومقدار المبلغ فشيء لا يهمها أن تعرفه.

– هذا يوافقني جدًا يا سيدي. أعنى يواقفني أنا شخصيًا أن أنسى كل شيء عنه حتَّى لا يطوف المال بذهني في علاقتي مع أرميا.

– مرحى مرحى. هذا ما أردته فعلاً.

– كل ما هناك إنِّي سألتمس منه كصديق أن يسمح لي في السكن بجواره في القسم الداخلي كي أأتنس بقربه.

– هذا هو الرأي الصواب، وفي كل شهر سيصلك المبلغ.

وهكذا وجد وليم لين نفسه يدخل هارفارد في مستوى واحد مع أبناء أصحاب الملايين، ووجد طريق دراسته مفروشًا بالورد، وعاش في الجو الذي طالما تاقت نفسه إليه، حتَّى اِنطبع في ذهنه فعلًا أن هذه هي حياته الحقيقية.

مرّت السنوات تباعًا، وهو دائمًا في المقدمة حتَّى إذا أصبح في السنة الثالثة كتب إلى والده أنّه سوف لا يعود إلى الصين؛ لأنَّه مشغول بإعداد العدة، لإصدار صحيفة لرجل الشارع تُساعد على خلق وعي في الرأي العام بمجرد حصوله على الدبلوم.

والواقع إنَّ إصدار جريدة، ثُمَّ سلسلة من الصحف كانت حلمه، الذي يسعى لتحقيقه وركز فيه جهوده. لأنَّه بتلك الوسيلة يستطيع أن يهدم أي رجل لا يروق له.

وأفادته تلك السنوات شيئًا آخر، فقد أصبح بحكم العادة عضوًا في أسرة كاميرون يزور أصدقاءهم ويختلط بهم. ولا يزور جديه وشقيقتيه إلّا نادرًا.

وبمناسبة هاتين الشقيقتين يجب أن نقول إنّ روث تعبده عبادة. أمّا هنرييتا فكانت تتجنبه ولا تألفه.

وكان مِن اللياقة وهو في بيت آل كاميرون حيث لا يهتم بكاندي كثيرًا، بل جعل كل همه في الاهتمام بمسز كاميرون، وتحقيق رغباتها بكل عناية، فجعلت تقدمه لصديقاتها الإرستقراطات ولا تذكر لأحد أنّه أبن قسيس، فكان يسرّه هذا المسلك.

أمّا علاقته بأرميا فكانت علاقة أخ أكبر، قوي البنية بأخ أصغر مريض، يقوم بالنيابة عنه بالأعمال الشاقة. وبذلكِ استطاع التغلب على نفور الفتى الشاعري المزاج، من جموده وواقعيته. وكثيرًا ما كان أرميا يُحاول تبشيره بمبادئه الإشتراكية. فمِن الغريب أنَّ ابن المليونير كان يرى الثراء نقيصة، وسوء اِستغلال لمتاعب البشر واعتصارًا لدماء المحتاجين والضعفاء. أمّا وليم فكان رأسماليًا مُتعصبًا يؤمن بأن الحياة حق للأقوياء فحسب.

وفي عطلة ذلك الصيف اختلى ذاتَ يوم بالمستر كاميرون عشية عيد القيامة وقالَ له مُنتهزًا تَفَتُّح الرجل للكلام بعد كأس مِن الشراب:

– أُحب أن أطلب نصحك يا سيدي في موضوع مستقبلي!

– وماذا تريد أن تبحثه في صدده؟

– أُريد يا سيدي أن أُصبح غنيًا.

فحملق فيه الرجل كأنّه يراه لأول مرة، وعقد حاجبيه الكثيفتين.

– تقول إنّك تُريد أن تغدو غنيًا؟

– نعم يا سيدي غنيًا جدًا جدًا.

– ولماذا تُريد أن تكون غنيًا جدًا جدًا؟

– لأنّني لاحظت أن الرجل في أمريكا لا يستطيع أن يحصل على شيء يشتهيه إلّا إذا كان واسع الثراء.

فابتسم الرجل وقال:

– أنتَ على حق تمامًا..

تم فتّش في جيبه عن سيجار قصير سميك، فأشعله ونفث الدخان الأزرق ذا الرائحة الذّكية وشرد قليلاً. ثُمَّ أستطرد فجأة:

– سأُخبرك ماذا تفعل لتغدو غنيًا جدًا. عليكَ يا وليم أن تترك التفكير في كل الموضوعات الأخرى، وتركز ذهنك كلّه في هذا الهدف.

– وهل هذا ما صنعته يا سيدي وأنت في مثل سني؟

– أجل. فهذا هو سر الموضوع كلّه. وعليك أن تفكر في شيء يحتاج إليه النّاس جميعًا، لا الأغنياء فقط، بل خصوصًا غير الميسورين، فكِّر في

شيء يلزمهم جميعًا رخيص الثمن، وهذا هو ما حدا بي للتفكير في مخازن كاميرون، التي تبيع كل شيء يحتاجَ إليه الفقراء بأرخص ثمنز

– أنا شخصيًا فكَّرت على هذا الأساس في إنشاء صحيفة.

– صحيفة؟ لماذا؟

– صحيفة رخيصة فيها صور كثيرة جدًا، ينظر فيها النَّاس فتملأ عيونهم وبعد ذلك يقرأون إن شاءوا أن يقرأوا.

– لم يخطر لي شيء كهذا مِن قبل. وفي اِعتقادي أن هناك عدد أكثر مما يجب من الصحف.

– ليس مِن هذا الطراز يا سيدي.

– أي طراز تعني؟

– أعني شيئًا غير معروف في أمريكا حتَّى اليوم، وإنّما هو طراز أقتبسته مِن نوع معين من الصحافة الإنجليزية، هي صحف ألفريد هارمزوورث.

– لم أسمع بها. فحينما أكون في لندن لا أقرأ إلَّا التيمس.

– إن صحيفتي ستكون حافلة بالصور، فالذي لاحظته أن النَّاس لا يحبون القراءة كثيرًا. ولكنّهم لا يحجمون مُطلقًا عن النّظر إلى الصور.

– لا أظنك تعني الصحف الصفراء؟

– كلّا يا سيدي. وفي ذهني، إذا وافقت، أن أُفاتح أرميا في الموضوع لنشترك في تحقيقه معًا.

وسُرّ مستر كاميرون لهذه الفكرة، فهو يبحث عن عمل مُرفّه ناعم، يناسب صحة أرميا. ويشغل باله ويسليه في الوقت نفسه.

– المسألة متروكة لمزاج أرميا. ثُمَّ إن الصحف تحتاج لرأس مال كبير.

– ولهذا يا سيدي أُريد أن أكون غنيًا.

– وهل فكّرت في تقدير مبدئي للميزانية؟

– فكّرت يا سيدي ودرست الموضوع. رأس المال الكافي لا يُمكن أن يقل عن مائة ألف دولار، إن لم يكن اكثر.

– لا بأس. دع المسألة الآن إلى العام القادم، وبعد تخرجكما ربما أمكنني..

وفي هذه اللحظة فتحت كاندي الباب ودخلت على طريقتها المرحة:

– ما الذي أبقاكما هنا وحدكما؟

– كنّا نتكلم في الأعمال..

– هراء. وليم ليس له أي عمل..

– بل لديه فكرة هائلة عن عمل عظيم

ثُمَّ نهض الشيخ فانصرف. فجلست كاندي في مكان أبيها وقالت بِاستطلاع:

– ما هي فكرتك العظيمة يا وليم؟

– سألني والداك ماذا أُريد أن أصنع بعد اِنتهائي من الجامعة فقلت إنّني أُفكر في إنشاء صحيفة.

– ولماذا صحيفة بالذّات؟

– ولماذا ينُشئ أي إنسان عملاً إلَّا لأنَّه يريده؟

– دع اللف والدوران يا وليم، أخبرني لماذا تشعر بالنقص مع جميع النَّاس؟

فاندفعت الدماء حارة إلى وجهه، وقد آلمته الطعنة. بيد أنّه ضبط أعصابه وسألها بصوته المألوف:

– هل أشعر حقًا بالنّقص؟

– هذا واضح جدًا مِن طريقة إجابتك على جميع الأسئلة. إنّها طريقة تدل على تفكير عميق قبل الإجابة. ومعنى ذلك اِعتقادك تفوق محدثك عليك.

– لعلّ السبب أنّني نشأت في الصين، حيث يُفكر النَّاس قبل الكلام.

– أتعني أنّ النَّاس في الصين غير صرحاء؟

– بل أعني أنّهم محبون للدقة والإحكام.

– هل الصينيون حقًّا مختلفون عنّا، أم أنتَ فقط تزعم وتتصنع الاختلاف عنّا؟

– أرجو ألا أكون مُختلفًا عنكِ يا كاندي.

– إنّي في الواقع عاجزة عن فهمك يا وليم.

– وأنا كذلك في بعض الأحيان، وخصوصًا اليوم. ولكنّكِ اليوم تبدين رائعة. وكل ما أطلبه ألّا تتسرعي في الحكم علي، وأن تتركي الزمن يفعل فعله، في توضيح كلٍّ منّا للآخر.

– ولماذا تتحدث دائمًا عن الزمن؟

– لأنني أخشى منه.. أخشى أن يأتي فارس على جواد أبيض ويمضي بكِ.

فصمتت قليلاً ثُمَّ قالت بلهجة خبيثة:

– ولكنّي واثقة أنّك لا تتردد مُطلقًا في أن تمد يدك لتأخذ ما تريد، متى وثقت مِن أنّك حقًّا تريده.

– ولكنّي في هذه المرة لستُ واثقًا، فمَا أُريده أنا قد لا تُريدينه أنتِ. وأنا بتربيتي الصينية أكره أن أرفض ولو بطريق غير مباشر.

– هذا هو الشعور بالنقص مرة أخرى.

– بل سميه تعقّلًا.

– تعقّل سخيف إذن.

– إنّ ما نتكلم فيه ليس مُباراة رياضية.

– أنا في الواقع لا أدري ما هو موضوع الحديث بالضبط؟

– موضوعه أنا وأنتِ بعد سنتين أو ثلاث.

– ثق أنّني لن أفكر في الزواج من أي إنسان قبل زمن طويل.

– وهذا كل ما أردت أن أعرفه يا كاندي.

وكان طول الحديث واقفًا متكئًا فوق رخام المدفأة، ويداه في جيبه. أمّا الآن فقدم نحوها ورفع يدها إلى شفتيه.

وكان في وسعها أن تجذب يدها لكنّه لم يترك لها الفرصة. وبعد لحظة واحدة كان قد ترك يدها وغادر الحجرة.

لقد كانت شفتاه باردتين جافتين. بيد أن كفّه كان مندي بالعرق. فأخرجت منديلها ومسحت يدها، ثُمَّ أعادت المنديل إلى صدرها وظلت جالسة بُرهة طويلة وهي غارقة في التفكر.

شارفت السنة الختامية على الإنتهاء، وليس في قلب وليم إلّا خاطر واحد يقضِ مضجعه، ألا وهو أن يفكر والداه في الحضور إلى أمريكا،

لشهود حفل تخرج وحيدهما مع مرتبة الشرف. وكم كان سُروره حين كتب إليه والده في شهر إبريل متحسرًا لعدم تمكنه هو ووالدته من التمتع بهذا السرور العظيم.

وبكل إحكام وأناة كتب وليم ردًا يفيض حزنًا وباللهجة المناسبة لذلك الظرف. وانصرفَ بكليته لإعداد خطته مُطمئن البال، بعد أن أحتاط كي لا تحضر شقيقتاه ذلك الحفل المشهود، فكل تفكيره مُنحصر في قطع آخر خيط يربطه ببيئته الأصلية كخطوة مبدئية لتحقيق حلمه الكبير.

وفي الوقت نفسه كان أرميا يتناقش مع شقيقته في موضوع تلك الصحيفة التي يُريد وليم أن يصدرها، وكان من رأي كاندي أن الفكرة رائعة. قال أخوها:

– إنّه يستطيع أن ينجح ولكنّني لا أستريح لمشاركته العمل. ففي قلبه غلظة وفي عاطفته جمود، ومتى حصل مِن إنسان على ما يريده نبذه نبذ النواة.

– وهل كان هذا أسلوبه معك؟

– ليس معي. لأنّي كنت حريصًا دائمًا على ألّا ينال مني كل ما يرُيد.

– وماذا يرُيد منك؟

– إنّه يطمع عن طريقي في الوصول إلى السلطان، والقوة قبل كل شيء. فهو شخص لا يستريح إلَّا إذا كان السيد المطلق في كل ما يتصل به.

– ذلك لأنَّه يشعر بالنّقص. فإحساسه الغالب عليه في أعماق نفسه هو الخوف. وهو لا يستكثر أي نوع من أنواع الأمان التي يُريد أن يحصّن بها نفسه، ضد ذلك الخوف الفظيع. ولهذا فهو في نَهم دائم إلى السيطرة والسلطان والثراء، وإنّه لمسكين يا أرميا. فليته يعلم أنّه لا حاجة به إلى الخوف من شيء مُطلقًا لأنَّه فعلاً وكما هو الآن شاب رائع في جميع مواهبه وصفاته، ولكنّه لا يدري مقدار روعته.

– مرحى مرحى، لا شك إنّه يسر كثيرًا لو قلت له ذلك بنفسك. ولكنّي أُحذرك يا كاندي مُخلصًا! متى سلمته نفسك فيجب أن تخضعي خضوعًا تامًا بلا قيد ولا شرط. أن نَهمه للسلطان وحبه للطغيان مما يقشعر له جسدي؟

– ولكن لماذا تقشعر منه هكذا؟

– لأنَّه إنسان ليس فيه محبة لأي إنسان!

وذات ليلة كان الشابان مدعوين لحفلة راقصة كبرى. فجعل وليم وهو يرتدي بدلة السهرة بأناقة بعد أن صقل أظافر يديه، يُفكر في كاندي. وجعل ينظر إلى صورته في المرآة راضيًا مغتبطًا بوسامته وأناقته. ثُمَّ نظرَ في ساعته وتساءل هل قام محل الأزهار بتسليم الباقة الفاخرة التي اِنتقاها

بنفسه لكانداس؟ فقد وطد العزم على أن يتزوجها. وجعل يسأل نفسه لماذا لا يطلب يدها الليلة؟

ولاحظ أرميا سكوته وشروده، وطول الطريق لم ينبس ببنت شفة. فأدرك أنه يبيت في نفسه أمرًا. ورآه عندما وصلا إلى الحفلة يتّجه ببشاشة واهتمام نحو كانداس. فيقول لها وهو يتناول يدها مُصافحًا:

– إنّك تُبدين الليلة رائعة وكأنّكِ أميرة.

– لا تُحاول يا وليم أن تزعم لي إنّك صرت شاعرًا.

– كلّا. ولكن كل ما هناك إنّني متعصب للأميرات. قد ربيت بالقرب من القصر الأمبراطوري في بكين، حيث تمرح الأميرات ويلعبنَّ. فهن غير غريبات عنّي.

وسمعت مسز كاميرون طرفًا مِن هذا الحديث، فلم يُعجبها اِتجاهه، وهتفت به في شيء من الحدة:

– هل ستحضر شقيقتاك حفلة التخرج؟

– لقد أصرّتا على الحضور، وسوف تصِلان غدًا

فصاحَ أرميًا:

– ما أشد تكتُّمك يا وليم. لماذا لم تخبرني أنّهما ستحضران؟

– ظننتك لا يعنيك الأمر.

– بل يعنيني كثيرًا. فأنتَ تعرف أُختي فلماذا لا ترُيدني أن أعرف أُختيك؟

– إحداهما وهي هنرييتا قبيحة الشكل، وإالأخرى وهي روث. جميلة، ولكنّني لم أكتشف فيها شيئًا يُثير الاهتمام.

وفي هذه اللحظة عزفت الموسيقى للرقص، فأخذَ وليم كانداس بين ذراعيه ونزلَ بها الحلبة بين الراقصين، وكان يرقص ببراعة ورشاقة. وراقَ له أن يشعر إنّه محط الأنظار.

وعندما نظرَ إلى وجه كانداس الهادئ الجميل، تبين عن قرب جمال ملامحها. وفكّر في سعادة طالعه لو أنّها تزوجته في وقت قريب. وما لزوم تطويل مدة الخطبة؟ إنّه يحتاج إليها الآن، يحتاج إليها شخصيًا وإلى كل ما يُمكن أن تيسره له.

وعقدَ العزم على أن يطلب إليها يدها الليلة. ولهذا حرص على مراقصتها معظم الوقت، وإن كانت تراقص سواه كان يكف عن الرقص، ولا يطلب من غيرها أن تراقصه.

وفي أثناء الرقصة الأخيرة قالَ لها:

– في نفسي أن أقول لكِ كم أنتِ جميلة، فتعالي بنا نخرج إلى الحديقة، لأن جوانحي تفيض بشيء أُريد أن أقوله لكِ.

ثُمَّ وضعَ يدها في ذراعه وخرج بها، وقد بدا الجد على وجهه. وكان أرميا في الطرف الأخر مِن الحجرة يرقبهما باهتمام. فلحقَ بوالديه وقال لهما بصوت خافت:

– أُريد أن أُنذركما. ففي هذه اللحظة سيطلب وليم مِن كانداس أن تتزوجه.

فتبادل الوالدان النّظر ثُمَّ قال أبوه:

– لا أظن أن لنا في هذا الأمر حيلة، فالمسألة تتعلق بها.

وتخيّر وليم جانبًا مِن الحديقة بديع التنسيق تزينه الفوانيس الصينية. ثُمَّ شرعَ يؤدي الدور الذي أعدّه جيدًا مِن قبل. فبدأ هادئًا جدًا، وكأنّه يتحدث في موضوع علمي أو فني. وبصوته الرزين الواضح قال لها:

– يا كاندي، أظنّك تعلمين مُنذُ زمن طويل إنّني راغب في الزواج منك إن كان ذلك يجد لديكِ قبولاً.

فسكتت كانداس ولم تُجب. فسألها بشيء مِن الحدة:

– ما جوابك؟

– لا أعتقد أنّك طلبت منّي ذلك حتَّى الآن.

– ولا أنا أيضًا كنت أعلم إنّني سأطلبه منكِ قبل أن أجد لنفسي عملاً مستقرًا، يكفل لي دخلاً مُحترمًا. بيد إنيّ تساءلت في الأيام الأخيرة

لماذا أنتظر؟ وأنّه ليسُرني أن أتَذكَّر حين أتمكن من بناء قصر لكِ موج بالعبيد. إنّني طلبتُ يدكِ وأنا خالي الوفاض فلِمَ ترفضيني؟

– ضحكت وحرّكت المروحة الصينية التي كان أهداها إليها في العام الماضي. فانتشر منها العطر فغمر أنفه، وسألها بشيء من الضيق:

– والآن ما قولك يا كاندي؟

– فيم؟

– لا تضايقيني. أنتِ تعلمين جيدًا.

– ولكنك لم تقل لي إنّك تحبني!

– طبعًا أُحبك.

وكانت هذه أول مرة يقول فيها هذه الكلمة لمخلوق. فثقلت على لسانه. كأنّها الصخور. وفطنت هي إلى ذلك فقالت له:

– ما أغرب لهجتك وأنتَ تقول هذه الكلمة!

– لأنَّها غريبة علي إذ لم أقلها لأحدٍ من قبل.

فتأثرت لهذا ونظرت إليه باستطلاع، وهي تحسبه قد اِدّخر لها مكنون عواطفه حتَّى اليوم، ولم يكن فتى شهوانيًا. ومع ذلك اِستهواه في هذه اللحظة ملمس هذه الفتاة الجميلة. وهدّته غريزته ففتح ذراعيه وشعر بها

ترتمي بينهما، ثُمَّ أحسّ على صفحة وجهه بملمس شعرها النّاعم فهتف من أعماقه:

– يا أعز النَّاس..

وكانت هذه هي الكلمة التي سمعَ والده وهو طفل يُنادي بها والدته فعلقت بذهنه مِن بين ألفاظ التّدليل كافة.

– هل ستكون رفيقًا بي يا وليم؟

– أجل وأقسم لكِ.

فسمعها تتنهد، ثُمَّ رآها تستسلم إلى صدره، ثُمَّ سقطت المروحة مِن يدها. وخيّل إليه عندئذٍ إنّه أحبها فجأة حبًا هو أقصى ما يستطيع، فقبّلها قُبلة طويلة عنيفة، وعندما أطلقها مِن بين ذراعيه أطلقت صرخة صغيرة.

– لقد كسرت مروحتي بحذائك.

وتهشمت المروحة فعلاً لأنَّها كانت مصنوعة من خشب الصندل الزكي الرائحة.

ولمَّا رفعها مِن الأرض، بدت في كفه كالزهرة المهشمة.

– لا بأس. سأبعث إلى بكين في طلب مروحة أخرى.

معركة الحياة

اِستلقى وليم في فراشه يستريح بعد اِنتهاء حفلة التخرج ومعه شقيقتاه. مدّ يده ليفضِ بريده، فوجدَ فيه خطابًا بخط غريب ففضه، وأخذ يقرؤه في دهشة:

«عزيزي وليم

«قد لا تَتَذَكّرني. فقد نهيتني ذاتَ مرة عن مقاتلة الغلمان الصينيين في شوارِع بكين، ثُمَّ لم أركَ بعدها. وأنا أعمل الآن في أمريكا موظفًا في محل بقالة. والعمل جيد والأجر طيب، ولكنّني كنتُ أتمنى حظًا كحظك مِن التعليم. وقد سرّني أن أرى صورتك في الصحف في مقدمة المتخرجين مِن هارفارد. وقد سرّني كثيرًا أن أنتهز هذه الفرصة لأُعرِب لكَ عن مودتي وعرفانًا بأفضال والدك الجليل.

المخلص

"كليم ميلر"

وسألته أخته روث عن مصدر الخطاب قال لها:

– أتتذكرين أسرة مرسل الإيمان في بكين؟

كنت صغيرًا جدًا في بكين. لا أذكر أي شيء فيها.

فقالت هنرييتا: «أنا أتذكرهم جيدًا. دعني أقرأ الخطاب»

– خذيه وأحتفظي به فليسَ في نيتي أن أرد عليه.

وفي تلك الليلة، وقد عادت هنربيتا إلى حجرتها في بيت جدها، جلست تكتب خطابًا إلى كليم ميلر، وكانت نفسها مملوءة بالمرارة لإزدراء أخيها لها بسبب عطلها مِن الجمال، ومع هذا كانت تشعر بحب عظيم لروث، لا تشوبه الغيرة أو الحسد.

وتناولت هنرييتا القلم، وراحت تكتب إلى كليم ميلر مدفوعة بباعث غامض.

«عزيزي كليم

«أنت لا تعرفني. ولكني شقيقة وليم لين. إلَّا إنّه شاب يمنعه كبرياؤه مِن الكتابة إليك. وهو مفطور على تلك الكبرياء مُنذُ طفولته. ثُمَّ اِزدادت تلك الفطرة عتوًا على الأيام. وهو في الواقع شاب وجيه وسيم أنيق، وممّا يؤسف له إنّه لن يتناول بالكتابة إليك، ولمّا كنت أعتقد أن رسالة الرقيقة ينبغي أن يكون عليها رد مناسب، فقد كلفت نفسي هذه المهمة.

«أنا لا أعرف لك شيئًا كثيرًا. ولذلك سأبدأ بالحديث إليك عن نفسي، فأنا في الثامنة عشرة، وسأدخل الجامعة في الخريف المقبل. ومِن الخير أن أُخبرك مُنذُ الآن أنّني لستُ جميلة على الإطلاق، وهذا مِن أعجب الأمور لأنّني أشبه وليم إلى حدٍ كبير، والمعروف عنه إنّه على جانب

من الوسامة عظيم. وأحسب شكله لا يلائم الأُنوثة كثيرًا. أمّا شقيقتي روث جميلة جدًا.

«هل تراودك ذكريات بكين؟ إنيّ أُفكر فيها كثيرًا. وأُحب أن تروي لي في رسالتك القادمة ذكرياتك عنها، وهل تعتزم العودة إليها يومًا ما، أنا شخصيًا أتمنى أن أذهب، ولكنّي لا أعرف وسيلة أتعيَّش منها هناك. وفي الوقت نفسه لا أُريد أن أكون مرسلة»

ولم تجد بعد ذلك ما تقوله فوقعت الخطاب. ثُمَّ خطر لها أن تبادر بإرساله على الفور ولا تنتظر حتَّى الصباح. وكان الوقت قد جاوز منتصف الليل، ومع هذا إرتدت معطفًا فوق ملابسها المنزلية وتسللت إلى الشارع حيث ألقت بالخطاب في صندوق البريد وعادت وهي ترتجف من البرد ومن هذه المغامرة التي أقدمت عليها.

وعندما تسلم كليم الخطاب كان قائمًا بالعمل في مخزن البقالة، فخطر له إنّه مِن وليم، ووضعه في جيبه، إلى أن حانت ساعة الراحة وقت الظهر وجلس إلى المائدة مع بامب الذي عادَ مِن المدرسة. وفضّ الخطاب. وكم كانت دهشته وسُروره عندما طالعه، فهذه أول مرة يتلقى فيها رسالة من فتاة.

ولهذا أعادَ تلاوة الخطاب بإمعان، راقه ما تضمنه مِن صراحة، وصفاء، ورجاحة تفكير، وعول على كتابة الرد بعد حضور قداس يوم الأحد.

وهكذا تسلمت هنرييتا بعد أسبوعين الخطاب، الذي ذهبت بنفسها كل يوم تسأل عنه عاملة شباك البريد، وما إن وصل إلى يدها حتَّى دسّته

في صدرها. ثُمَّ إختلت بنفسها في حجرة بالسطح وفضا الخطاب وقرأته مِرارًا.

«عزيزتي هنرييتا

«تلقيت ببالغ الدهشة خطابك اللطيف. ولكن ربما كان سُروري بتلقي خطاب منك أعظم من سُروري بخطاب يكتبه وليم، وأنا أكبر منكِ سنًا. ولكنّي لا أستطيع أن أذهب مثلك إلى الجامعة، لانشغالي بتحصيلِ المعاش. فأنا يتيم. وأكفل يتيمًا آخر لا أعرف اِسمه الكامل، وكل ما أعرفه عنه إنّه يُدعى بامب. ولستُ واثقًا إنّه اِسمه الحقيقي، فهو أشبه أن يكون اسم تدليل. والمسكين لا يذكر أي شيء عن أُسرته، وقد ربي على نفقة الولاية، وسأُبين لكِ في فرصة أُخرى كيف اِلتقيت به، وأصبحت مسئولاً عنه.

«إنّني لا أُحسن الكتابة لأنَّه لا وقت عندي للتحرير، ولكنّي أُحب أن أُخبرك أنّني أتذكر بكين جيدًا، ويسرني جدًا أن نتبادل ذكرياتنا عنها. لاسيما وأنّه ما مِن أحد في هذه المنطقة يعرف عنها شيئًا.

«ربما حضرت يومًا لمقابلتك بعد أن أفرغ مِن مهمة تعليم بامب. والواقع أن لدي أفكار كثيرة ومشروعات ضخمة عما سأفعله بعد الإنتهاء مِن هذه المهمة، إذ ينفسح أمامي الوقت للتفكير في نفسي وفي حياتي الخاصة.

وكم يكون سُروري أن أتلقي منكِ رسالة أخرى.

المخلص

"كليم ميلر"

وهكذا بدأ ذلك المد والجزر مِن الخطابات ما بين ضاحية مِن ضواحي نيويورك ومخزن بقالة في مدينة بولاية أوهيو، واستمرت تلك المراسلات سنتين كاملتين دون أن يرى أحد المتراسلين صاحبه. بيد أنّهما أفلحا في نسج خيوط آمال وأحلام كثيرة.

والواقع أنّهما كانا بحاجة شديدة إلى الأحلام بحيث لم يضيعا الوقت في الحديث عن الوقائع المادية في حياتهما. فالواقع لم تكن له أهمية في نظرهما. وإنّما المهم عندهما هو المستقبل. ولهذا مضت سنوات طويلة قبل أن تعرف هنرييتا تفاصيل ما لاقاه كليم من صعاب ومتاعب، إلى أن شقّ طريقه في النهايه، ووجدَ هذا العمل في محل البقالة، ثُمَّ أصبح شريكًا فيه وتمكن من الإنفاق على تعليم بامب.

ومرّت السنوات. فشعرَ كليم أن مخزن البقالة ليسَ نهاية مرحلته في الحياة. فقد كان يتعلم أسرار البيع والشراء ويدرس أيضًا شؤون شعبه الذي لم يولد ونشأ في وسطه، وقد ساعدته المعيشة بين أهل المدينة الصغيرة الدمثين على أن يبرأ مِن الصدمة التي أُصيب بها بمعاملة المزارع وزوجته عندما حلّ غريبًا على الأرض الأمريكية ، وإنّها لصدمة كان يتذكّرها في

الحين بعد الحين ويُقارنها بتلك الصدمة العاتية التي مني بها عندما وجدَ والديه قتيلين ذاتَ يوم صائف في مدينة بكين.

وكان كليم عصبي البنية، متدفق الحيوية، لا يستقر في مكان ولا يركن إلى الراحة. وكانت الأيام تمضي، وفي كثير من الأحيان لا يذوق طعامًا إلَّا وأصابه من الطعام غثيان، كان لا يستريح إلى الطعام لأنَّه يثقل على معدته مهما كان هينًا. فاللبن لا يستطيع أن يشربه. والزبد لا يستطيع أن يقربه، لأنَّهما يثيران في خياشيمه رائحة البقر. أمّا البيض فكان يكرهه، وأمّا اللحم فلا يكاد يمسّه، لأنَّه لم يتعود أكله في صغره بسبب العيشة الضيقة التي سامه إيّاها أبوه. فكان ينسى نفسه أيام كثيرة.

ولئن لم يستطع أن يجعل مِن الطعام مادة بدنه وحسه قد جعل منه مادة أحلامه وخياله. فانكبَّ على دراسة مشكلات التغذية ومشكلات السكان في العالم قاطبة، وأعانته على ذلك معلمة عانس في مدرسة المدينة كانت تقرضه الكتب، وكانت تنفق مِن وقتها في أمسيات الأحاد تتحدث إليه وتناقشه، وقد تحتدم المناقشة بينهما لفرط إهتمامهما بالموضوع.

والرأي الذي تكون لديه بعد الدراسة وعلى ضوء تجربته الشخصية عكس الرأي الذي خرج به على النَّاس «مالتس». إنّه لا يرى العالم مكتظًا بأكثر مما ينبغي مِن السكان، وهو كذلك يرى أن العالم به مِن الغذاء أكثر مما يكفي جميع البشر، والمشكلة الكبرى ليست كثرة النَّاس أو قلة الطعام. فإن الله قد جادَ على عباده بما يفيض على حاجتهم. وإنّما العيب فيهم،

وفي تفكيرهم وقصور وسائلهم، فهم لا يكترثون إكتراثًا جديًا بحسن تنظيم مصادر الطعام، كي تصل كل لقمة ضائعة إلى معدة جائعة.

أصبحت فكرته الرّاسخة إذن هي جلب الطعام مِن حيث يكثر ويفيض عن الإحتياجات المحلية، ويهبط منه فينقل إلى حيث يحتاج النَّاس إليه، ويتمكنون من شرائه. لا لتحصيل الربح، بل لتمكينهم من ملء بطونهم بأرخص الأسعار.

وما نبتت تلك الفكرة في رأسه حتَّى غدت عقيدة مسيطرة كعقائد الدّين، وتعلق بها كما تعلق أبوه الإيمان الذي به يكون الخلاص، وكل ما بينه وبين أبيه مِن فرق أن حماسة والده إلى حد الهوس، كانت بغذاء الأرواح وخلاصها، وأنّ حماسته هو إلى حد الهوس كانت بغذاء الأبدان، وتخليص أصحابها من رق الحاجة، لأنَّه يغير طعام تهدر جميع القيم وتتلاشى الكرامة الإنسانية.

كلّا. لم يشغل كليم ميلر نفسه بأرواح النَّاس وخلاصها؛ لأنَّه كان يؤمن أن أرواح النَّاس طيبة خيّرة كما خيرها في كافة طبقات العالم وعلى اختلاف الأديان والعقائد، وإنّما تلتوى تلك النّفوس تحت ضغط الطغيان والفزع. وليس أدعى إلى الفزع من طغيان الجوع.

إن إيمانه بالله يختلف كثيرًا عن إيمان أبيه، فإيمانه واقعي. والله عنده قد خلق النَّاس على أحسن وجه. وفطرهم على الحب والنجدة والخير، وأنَّ الشر لم يتسرب إلى نفوس النَّاس إلَّا بفعل العوامل الدنيوية، والبذرة الأولى

التي نبتت منها جميع الشرور هي الجوع. فالجوع هو الذي يلد المرض، ويلد الذّل، والانحلال والكراهية والخِسة. ولدفعه أو إتقائه يتنابذ النَّاس ويتقاتلون أفرادًا وشعوبًا. فالجسد هو الذي يُفسد الروح.

وكما شعر والده ذاتَ يوم وهو في الحقل أن الرّب ناداه ودعاه أن يترك العالم، ليخدم قضيته ويبشر بإسمه عبر البحار، يعتقد كليم أيضًا أن الرّب ناداه كي يُعزي إخوانه البشر، ويمسح أحزانهم بتيسير الطعام لملايين الجياع، ولم يكن في حماسته جاهلاً بل كان يدُرك تمام الإدراك أن الهدف ضخم وشاق، فكان يرسم تفاصيله في خِطاباته التي يرسلها كل أسبوع إلى هنرييتا. فيزداد تفكيره بالكتابة على مَر الأسابيع وضوحًا واتّساقًا. فكانت هذه الخِطابات بمثابة أرشيف كامل لمشروعه العظيم، ولما شعر بأهمية ذلك بعث إليها يقول:

– اِحتفظي بخطاباتي بعناية يا هنرييتا، فليس عندي وقت للإحتفاظ بصورٍ منها، وسأحتاج للرجوع إليها في يوم من الأيام.

ولم تكن هنرييتا بحاجة إلى هذه التوصية، لأنَّها كانت تحتفظ بخطاباته في عناية تامة وإجلال، واشترت صندوقًا مِن الصفيح، طلته باللون الأحمر، وجعلت عليه قفلاً ووضعته في قاع خزانتها، ثُمَّ جعلت مفتاحه في سلسلة حول عنقها. ولمّا أرسلت تخبر كليم بذلك بعثَ إليها بتعويذة قذرة صدئة في خيط قذر.

– إنّها تِذكَار عزيز. من إمرأة عزيزة عجوز، أحببتها في بلاد الصين، فضعيها مع خطاباتي في الصندوق فقد تكون فيها بركة تحل على الأفكار التي تضمنتها أوراقي.

تمّ زواج وليم في شهر سبتمبر التالي لتخرجه في الكلية. ولم يكن في الواقع راغبًا في التعجيل بالزواج على هذا النحو. بل إنّه كان قد أشار على كانداس بالانتظار سنة على الأقل أو سنتين إلى أن يحصل على المائتي ألف دولار لإنشاء صحيفته. فمطت كانداس شفتيها مستاءة من فكرة التأجيل وقالت:

– إن كان المال فقط هو الذي يعطلك..

– ليس المال فقط. بل يجب أن أعد خطتي إعدادًا دقيقًا. فإنشاء الصحف ليس مجرد تجارة، بل هو تنظيم وتجميع أدوات، ورسم أهداف وإعداد إدارة منظمة للإعلان.

– تستطيع أن تصنع كل هذا بعد أن نتزوج كما تستطيعه تمامًا قبل أن نتزوج. ولهذا سأتباحث مع أبي في الموضوع.

وهم وليم حين قالت ذلك أن يمنعها، ولكنّه سكتَ، فقد أمضى الصيف كلّه يعمل ليل نهار بمفرده. ورفضَ أن يذهب مع آل كاميرون إلى قصرهم الصيفي، مؤثرًا الإقامة وحده في مسكن رخيص من حجرتين في قلب نيويورك، يعد التجارب والنماذج لصحيفته بالعشرات ويقارن بينها وينقحها إلى أن وصل إلى الحجم والشكل والتوضيب الذي يريده بالضبط.

ولم يكن يسمح لنفسه إلّا بزيارة واحدة في كل شهر كي يرى كانداس. وكان الحديث الذي جرى بينهما في هذه المرة في زيارة من تلك الزيارات، ولهذا قال لها:

– أنا لا أُريد أن يكون اِعتمادي على أبيكِ.

– لا تكن أبله. فأبي مُستعد أن يصنع أي شيء مِن أجلي، دعني أتّحدث إليه.

– ولكن أرجو مِنك ألّا تخاطبيه في موضوع التمويل، فإنّي واثق أنّني سأجد المبلغ اللازم.

والواقع أنّه كان قد كوّن في مدة الدراسة بالجامعة صداقات عديدة، مع صفوة العائلات الثّرية التي يتعلم أبناؤها في هارفارد. وكان يعرف كيف يرتدي ملابس السهرة بكل أناقة وبذخ، ويسهر الليالي راقصًا ومُتحدثًا، كما كان يسهر ليالي أُخرى يتصبب عرقًا على مكتبه وهو يعد العُدة لإصدار صحيفته، وفي زيارته التالية التي كانت الأخيرة قبل زواجه طلب منه روجر كاميرون ذاتَ ليلة أن يجتمع به على إنفراد، في حجرة المكتب بعد العشاء، وبادره قائلاً:

– اِجلس. لقد تحدثت إلى كانداس في الموضوع.

– لقد طلبت منها يا سيدي ألّا تفعل.

– ربما. ولكن كاندي تفعل ما تُريد. والآن يا وليم قد صارحتني برغبتها في التعجيل بالزواج. وإنّكَ ترى نفسك غير مستعد لذلك قبل مضي سنة أو سنتين.

– إنّني أرى مِن واجبي أن أتبين أولاً طريقي بصورة واضحة، قبل أن آخذ على عاتقي مسئولية تكاليف الزوجة والبيت.

– هذا كلام معقول. صواب جدًا ومعقول، وأنا لم أفعل خلاف ذلك في شبابي. قد كان عليّ أن أنتظر مُرغمًا لأن والد مسز كاميرون أصرّ على الإنتظار ولم يصغ لتوسلاتي وثورتي ولم يعر بكاءها اِلتفاتًا. فانتظرنا. ولكنّي حين أراجع هذه الذكريات لا أُريد لِابنتي أن تقاسي ما قاسته أُمها من قبل. فقل لي بسرعة ما هو المبلغ الذي تحتاج إليه بصفة أولية يا وليم؟

– يجب على الأقل أن يكون حاضرًا تحت يدي مائتا ألف دولار.

فمطّ مستر كاميرون شفته السفلى وقال:

– إنّك بالتأكيد لا تحتاج إلى هذا المبلغ كلّه دفعة واحدة.

– كلّا، ولكن يجب أن يكون في متناول يدي، وتحت أمري.

وسادَ الصمت لحظة، وكان الضوء خافتًا فلم يتبين وليم ما ارتسم على وجه مستر كاميرون وظلَّ في شك إلى أن سمعه يقول أخيرًا:

– أخبرني مزيدًا عن هذه الصحيفة، التي تُريد إصدارها يا وليم، لماذا مثلًا تصر على إصدار تلك الصحيفة؟ لماذا لا تأتي فأجعلك شريكًا في شركة مخازني التجارية؟

– أشكرك كثيرًا يا مستر كاميرون، وأقدر شعورك كل التقدير، ولكنّي في الواقع وضعت كل قلبي وتفكيري في إنشاء نوع جديد من أساسه مِن الصحف. فإذا نجحَ أسست سلسلة من الصحف اليومية والأسبوعية. وفي ذهني أن أجعل ثمنها نصف ثمن الصحف الحالي، مع تمويلها بأخبار تبلغ ضعف أخبار الصحف في الوقت الحاضر.

– معنى هذا أنّه يجب أن تكون فيها إعلانات هائلة.

– وهذا هو مورد الكسب فيها. ولكن المسألة ليست مسألة كسب فقط.

فارتسمت الدّهشة على وجه مستر كاميرون وقال:

– إن لم تكن مسألة كسب فمسألة أي شيء هي؟

– أُريد أن أُحقق شيئًا أهم مِن الثراء، إن العالم معظمه مكون مِن سواد العامة، وهم قوم جهلاء وأغبياء. وما يتعلمونه في المدرسة لا يساعدهم جدًا على التفكير، ولهذا فهم لا يعرفون كيف يفكرون. ويجب أن تملى عليهم أفكارهم إملاءً، إنّهم لا يعرفون كيف يُميزون الخطأ من

الصواب، ولهذا يلزم لهم شخص يُخبرهم بما هو صواب وُيحذرهم مما هو خطأ.

– إنَّ النَّاس فعلًا لا يحبون التفكير.

– أعلم هذا. ولهذا تجدهم يعملون بغير تفكير. أو يصغون لكل من تُحدثه نفسه بالتأثير عليهم من الإشتراكيين والمهيجين. فيتأثرون بهم ويسلكون سلوكًا أخرق يتهدد كرام النَّاس بالخطر. وقد عقدت العزم يا مستر كاميرون على أن أقوم بمهمة التفكير للناس. وإملاء الأفكار عليهم، ولهذا أُريد أن أُنشئ صحيفتي.

– ومن يُدريك أن النَّاس ستروق لهم أفكارك؟

والواقع أن مستر كاميرون كان في دهشة بالغة مما سمع، وكان لا يدري بالضبط ماذا يقول عن هذا الشاب، الذي يجلس أمامه ويتكلم في ثقة مِن أمر نفسه وبعينين معدنيتي النظرات.

– لستُ أبله يا مستر كاميرون. ولن أقول لأحد إنّها أفكاري. بل سأصنع في صحفي ما تصنعه أنت في مخازنك، فلديك رجال مهمتهم أن يفتشوا لك عن أكثر السلع رواجًا، فتشتريها بكميات كبيرة على حسب ما تقدره مِن طلب النَّاس لها. والواقع أنَّك تدل النَّاس في معارضك على ما ينبغي لهم أن يشتروه، بتبيين مزايا كل سلعة والإعلان عنها، وهذا ما سأصنعه أنا، إذ ستحفل صحيفتي بما يحبه النَّاس مِن الأفكار والموضوعات، وستكون فيها قصص كثيرة مثيرة مصورة عن العجائب، والغرائب،

والطرائف، وجرائم القتل والحوادث. وسيكون فيها بجانب ذلك طرف مما يحدث في العالم أجمع مما ينبغي على النَّاس أن يلموا به.

فقطب مستر كاميرون حاجبيه وسأل بدهشة:

– وأين موضع أفكارك الخاصة في كل هذا؟

– في طريقة العرض والسرد، فلن تكون أفكارى سِوى إيحاءات. وفي طريقة الِامتناع عن نشر موضوعات بعينها، والتغطية عليها بموضوعات أخرى.

فرشقه مستر كاميرون بنظرة ثاقبة ثُمَّ قال:

- ما أبرعك وأدهاك؟ وأحسبُك دائمًا على صواب.

– لا يمكن أن أكون دائمًا على صواب يا سيدي، ولكن سأجتهد في ذلك.

وكان وليم بهذا الحديث قد أفصح عن مكنون نفسه بأكثر مما باح به لأي إنسان. حتَّى أقرب أصدقائه إليه. فالجميع كانوا يعرفون أنّه سيكون رئيس التحرير لأنَّه مُنذُ البداية أتّخذ ذلك الموقف، ولكنّهم لم يعلموا أنّه عقد النية على أن يصُوغ بنفسه كل موضوع، وكل سطر، وسيتحكم في جميع الأنباء التي تحذف، كما يتحكم في الأنباء التي تبسط وتدق لها الطبول.

إنَّ الصحيفة الموعودة ستكون صورة ينعكس عليها عقله، وتوجيهًا يسُيطر عليه روحه. وبمجرد إعداده الطبعة الأولى سيأخذها بنفسه، ويقابل جميع مديري الأعمال الكبرى مِن أتصل بهم في المجتمع ويُريهم إيّاها قائلاً:

– هذا هو خط دفاعكم ضد الأفكار الاِنقلابية، والتيارات الاِجتماعية الهدّامة. فأعلنوا فيها، وساعدوها على التأثير في ملايين الجماهير، ليكونوا معنا لا علينا.

وسكتَ مستر كاميرون بُرهة ثُمَّ قال فجأة:

– لا أحسبك تُحب العامة؟

ولم يدر وليم ماذا يقول. فاَختار الصدق وقال:

- إنيّ أُشفق عليهم. وأعطف عطفًا بالغًا.

– شفقة أم زراية؟

- ربما. ولكن أحسبك تزدريهم أيضًا يا مستر كاميرون.

فمطّ مستر كاميرون شفته في غير مبالَاة وقالَ:

– إلي حدٍ ما. كيف عرفت؟

- عرفت هذا مِن أول زيارة لمخازنك يا مستر كاميرون، فلو لم تضمر في نفسك اِحتقار العامة وعقولهم وأذواقهم لمَا استطعت أن تبيعهم هذه السلع!

– مرحى مرحى!

– إنّي أعجب بك لحسن فهمك للناس على أساس واقعي. ولكنّي أكثر منك نصيبًا من المثالية، وأعتقد أن العامة يُمكن قيادتهم ورفع مستواهم.

فنظرَ إليه مستر كاميرون نظرة جانبية وقالَ:

– أخشى يا وليم أن تكون مُخطئًا في هذا، ففي النَّاس غباوة شديدة.

– إنّهم كالقطعان مِن السائمة يُمكن على الأقل توجيههم إلى ناحية معينة، وتحويلهم عن ناحية أخرى، كما تفعل أنتَ في مخازنك، فبنفوذك التجاري تستطيع أن تجعلهم يشترون كل ما هو أحمر اللون إن خطر لكَ أن تشيع تلك الموضة في أي موسم.

– أنا في الواقع لا أُبالي ماذا يشترون ما داموا يشترون.

وتراخى الحديث بعد ذلك، ثُمَّ تناول مستر كاميرون صحيفته فجعل يقرأ فيها نحوًا من عشر دقائق وبعد ذلك قال:

– سأضع تحت تصرفك المبلغ المطلوب مُنذُ الغد، وأُريد منك أن تشرع فورًا في الاِستعداد للزفاف في أقرب وقت.

فتضرج وجه وليم بالحمرة القانية وقال:

– ما مِن شيء يسُرني أكثر من هذا يا مستر كاميرون.

وفي يوم زفافه كانت الشمس مشرقة، كانّها أُخرجت للنَّاس بتوصية خاصة، وكانت الكنيسة الكبرى في الشارع الخامس غاصة بالنَّاس.

ودخلها كما يدخل الملوك، لا ينظر إلى أحد غير شاعر بوجود إنسان، وإلى جواره سارت كانداس في خيلاء، لا تقل عن خيلائه، ولكن خطوته كانت تسبق خطوتها في حزم وثبات.

لقد بدأ وليم لين زحفه الظافر في معركة الحياة.

عاشقتان جديدتان

عقدت خطبة كليم على هنرييتا. فجأة وفي شيء كثير من الاِرتباك والخجل، فالخطابات المتبادلة بينهما حملت في طواياها أشياء أعمق كثيرًا مِن مدلول ألفاظها. كانت في الواقع مناجاة سرية بين شخصين وحيدين في الحياة وحدة كاملة، بل كانت خطبة صادقة بين روحين تآلفا، وأقتنع كلّ منهما بالآخر، ومع أن هنرييتا كانت تبدو في المدرسة الثانوية في تلك الضاحية الهادئة فتاة مطمئنة إلى حياتها ودراستها، تعيش عيشة راضية مع شقيقتها روث والجدين والخادم العجوز، إلَّا أنّها كانت في الواقع تشعر بوحشة كاملة، وعزلة ثقيلة وكأنها تعيش في جزيرة مقفرة مِن النَّاس.

كانت روث محبوبة مِن الجميع لأنَّها جميلة، وكان مِن الممكن أن تتزوج في سن مبكرة جدًا قبل أن تدخل الجامعة. ولئن جعلت تماطل فكرة الزواج وآثرت دخول الجامعة، فما كان لذلك من سبب سِوى أنَّها كانت تنفق الكثير مِن وقتها في زيارات طويلة لدار وليم. والأجازات الدراسية الطويلة لم تكن تقضي منها إلَّا بضعة أيام في صحبة هنرييتا، ريثما تعد حقيبة ملابس مناسبة لقضاء بقية الصيف مع وليم وكانداس، وفي الوقت نفسه لم يحدث مُطلقًا أن نوقشت فكرة ذهاب هنرييتا لتمضية الصيف هناك، ولذلك كانت روث تقول لها:

– أشعر بالخجل منك. فأنا أهجرك وأذهب وحدي، وتبقين أنتِ وحدك للعناية بالجدين، أنّه لسلوك معيب من جانبي.

– ولكن هذا هو ما أُريده لنفسي.

– لو إنّك عاشرت كانداس لأحببتها. فهي صافية النفس دمثة.

– ليس عندي شك في إنّني يمكن أن أُحب كانداس. ولكن لا تنسي يا روث أن هناك وليم، ووليم هو وليم!

– إنّه أخوكِ..

– وما ذنبي في هذا؟ ثُمَّ لا تنسي إنّني عرفته قبل أن تعرفيه بزمن طويل. فأنا به أعلم. فقد اِختليت به سنتين، ونحن في مدرسة تشيفو بالصين حين كنت أنتِ في بكين مع أبينا وأُمنا. إنّه إنسان لا يحب أحدًا إلَّا نفسه.

ومع هذا كانت هنرييتا تشعر بأن هناك شبهًا بينها وبين وليم. فهي مثله لا تفهم الفكاهة ولا تميل إليها، وفي القامة والملامح تشبهه أيضًا. ولكن فيما عدا ذلك ما أعظم الاِختلاف! ففي أعماقها أمانة وإخلاص، وبساطة وصفاء. وهذه صفات كانت تخيف النَّاس منها وتفزعهم إلَّا مِن أُوتي الشجاعة على مواجهة نفسه، لأن النفوس الصريحة الصافية ترينا وجوهنا الحقيقية، كأنها صفحة مرآة. ومن لم يرزق الشجاعة على رؤية

صورته الحقيقية حقيق أن يكره المرايا ويتجنبها ويفزع منها إن أعترضت طريقه.

كان الشبان يخافون منها. وكانت الشابات ينفرن منها، وما مِن أحد أنس إليها إلَّا ذلك الشاب الذي لم تره قط، وهو كليم ميلر. ففي ليالي الصيف الطويلة التي تثقل فيها عليها الوحدة كانت تجلس وتصب على صفحة القرطاس ذات نفسها، وتبثه كل ما يدور بوجدانها في غير تكلّف أو اِحتجاز. وكان هو يرد على خطاباتها في أيام الأحاد بعد أن يبعث بامب إلى الكنيسة.

وفي السنة الدراسية كانت تذهب إلى كلية للبنات غير عالية النفقات، في حين كانت روث تذهب إلى كلية من الكليات الرّاقية. وكان هذا باختيار هنرييتا نفسها لأنَّها شعرت مُنذُ البداية أن روث قد اختارت بينها وبين وليم فانحازت إلى وليم وإلى لون الحياة الذي اِعتنقه. وكثيرًا ما كانت تصغى إليها وهي تحدثها عن تلك الحياة مبهورة بمباذخها الدنيوية، فتشعر بالنفور.

وفي ذات يوم فطنت هنرييتا إلى شيء جديد في سحنة روث، وهى تحدّثها عن زيارتها الأخيرة لوليم وكانداس وقد بدت شديدة الإعجاب أكثر من كل مرة، ولكنّها لم تشأ أن تُحدثها عن صديقها الذي لم تره قط، لأنَّها شعرت أن اسم كليم لا يليق أن يذكر في مقامٍ واحد مع وليم وأشباه وليم. فهما مِن عالمين مختلفين، وفجأة رأت الدموع تنساب مِن عيني روث ثُمَّ

طوقت عنق هنرييتا بذراعيها وأخذ جسمها يرتجف، فعانقتها هنرييتا، وراحت تربت عليها وتلاطفها وتناديها

بأسماء التدليل التي كانت تناديها بها وهي طفلة، إلى أن هدأت قليلًا فقالت وهي تنشج:

– أنا أُحب.. أنا عاشقة.

– ليس هذا سببًا للبكاء. فلا تجزعي يا روث. فذلك شيء لا غُبار عليه. إنّه ليس جريمة. ولكن مَن هو الذي تحبينه؟

– أرميا كاميرون.

وحاولت هنرييتا أن تتذكر وجه أرميا كما رأته في المرة الوحيدة يوم تخرَّج مع وليم في هارفارد. فتمثل لها ذا وجه نحيف شديد الشحوب، فيه رقة كبيرة. بطيء الحركات جدًا كأن شيئًا غامضًا في أعماقه يؤلمه حين يتحرك. وكانت يداه على خلاف يدي وليم كبيرتين. وارتاحت إلى هذه الصورة اِرتياحًا غريزيًا. وسألتها:

– وهل يعلم؟

– أجل يعلم.

ثُمَّ اِنفلتت من حضن هنرييتا، وجلست على الأرض، ووضعت رأسها على ركبة أُختها ومسحت دموعها بذيل ثوبها وقالت:

– هو الذي فاتحني أولًا. فما كنت أنا لأجسر.

– إذن فأنتما مخطوبان.

– أعتقد هذا. أو هذا ما سيكون بمجرد إجترائه على إعلان ذلك. إن كانداس تعلم طبعًا ولكن لا أحد منّا نحن الثلاثة يجرؤ على مفاتحة وليم.

قالت هنرييتا بشراسة:

– ولِمَ لا؟ ليس هناك سبب واحد يجعل هذه المسألة من شأنه.

– يبدو أنها من شأنه إلى حد ما.

– هراء..

وخطر ببالها في تلك اللحظة أن تحدّثها عن كليم وحبها له، ثُمَّ غيّرت رأيها وقالت:

– سأتولى بنفسي إخبار وليم.

– كلّا. لا تفعلي. فأرميا يُريد أن يُخبره بنفسه في يوم من الأيام. ولستُ أدري لماذا يعتقد أن وليم سوف لا تروق له هذه الخطبة؟

– أنا أعلم لماذا سوف لا تروق له؟ إنّ وليم يرُيد من النَّاس الذين يعيش في بيئتهم أن يعتقدوا أن لا أُسرة له. فليس في العالم كلّه أُناس أكفاء للإنتماء إليه. حتَّى ولا أنتِ يا روث!

– ليس هذا صحيحًا. فوليم لطيف جدًا معي في العادة.

– لأنّك تفعلين دائمًا ما يُريده منك.

– وأنا في الغالب لا أرى داعيًا للامتناع عن طاعته. وعلى كل حال فموضوع خُطبتي يجب فيما يظهر أن يظل طي الكتمان بعض الوقت.

ثُمَّ نهضت روث وتّجهت إلى المرآة فسوّت شعرها، وبذلك انتهت لحظة المناجاة قبل أن تبوح لها هنرييتا بشيء عن كليم.

وانتهت إجازة الصيف، وافترقت الشقيقتان بسبب دخول الجامعة. وكانت هنرييتا تتلقى دائمًا خطابات كليم يوم الأربعاء. أمّا يوم الثلاثاء فكان لا يخطر لها مُطلقًا أن تنظر في صندوق الخِطابات. ولكن حدث في هذا اليوم أن نظرت في الصندوق فوجدت خطابًا من كليم

«عزيزتي هنرييتا

«لم تحدث لنا أن التقينا شخصيًا مِن قبل. ولستُ أدري لماذا اِختمرت عندي هذه الرغبة أخيرًا، ولستُ أرى مانعًا مِن مصارحتك بما في نفسى مُنذُ الآن.

«يبدو لي أنّنا خلقنا لنتزوج، مع أنّني لم أركِ ولم تريني. ولكنّي رجل لا يُبالي كثيرًا بمناظر النَّاس. فلدينا شيء أهم كثيرًا مِن هذه السطحيات. شيء مشترك يجمع بيننا هو إهتمامنا بلباب الأُمور، وبحسن الإدراك وفهم البشر. هكذا أرى نفسي. وأرجو أن تكوني أنتِ كذلك. بل هذا هو تصوري لك فعلًا.

«ولستُ أدري لماذا لا أُحب طريقة طلب اليد بالمراسلة. فإن لم يكن عندكِ مانع حضرت لمقابلتك، فلي إجازات مُتراكمة، وقد نجحت في اِدخار مبلغ مِن المال. وفي وسع بامب أن يُساعد في مخزن البقالة بعد ساعات المدرسة. وبذلك يتّسع أمامي الوقت لقضاء بعد ظهر يوم كامل في صُحبتك.

«وقد قرأت أخيرًا كتاب "ثروات الأُمم" وهو كتابٌ جيد. وعرضَ علي صاحب المخزن أن يبيعني إيّاه. فإذا تمّ هذا لن أقع به لأني أُريد أن أشرع في إنشاء مشروعي الخاص بمخازن الطعام الرخيص في أماكن متعددة. وأعتقد أن المشروع ممكن التنفيذ، لأن الفلاحين يقبلون البيع بسعر زهيد إذا باعوا مباشرة لا عن طريق الوسطاء. وهناك عدد ضخم مِن النَّاس في أشد الحاجة لمزيد مِن الطعام ولأنواع أجود مِن التي يتناولونها في العادة.

«وفي ذهني أيضًا أن أتمكن بمرور الوقت مِن إرسال الطعام إلى الصين لمعونة الجياع هناك. ففكرّتي في الواقع فكرة عالمية لا محلية.

«ورجائي إليكِ يا هنرييتا إلّا تُسيئي بي الظن ولا تحسبيني أهتم بالمنفعة المادية، وتكوين الثروة. بل أرجو أيضًا ألّاتظنيني مهتمًا بإشباع بطون النَّاس فقط. وأمّا فكرتي الأساسية أن النَّاس متى اِطمأنوا مِن جهة بطونهم اِستطاعوا أن يوجهوا جهودهم وتفكيرهم إلى ماهو أسمى مِن القلق على الطعام.

«إنِّي لم أنل قسطًا مِن التعليم يسمح لي بتثقيف النَّاس وتغذية عقولهم. ولكنِّي أستطيع أن أُغذي أبدانهم. وفي اعتقادي أن الطعام حق لجميع البشر كالماء والهواء، سواءٍ بسواء. وهذا لا ينبغي أن نجشمهم طلبه. بل ولا العمل في سبيله. لأن الجميع لهم حق الحياة.

«وبهذه المناسبة أُحب أن تضربي صفحًا عمّا تشعرين به مِن مرارة، بسبب سلوك شقيقك وليم نحوك. وتذَكَّري أنِّي مهتم جدًا بتعويضك مِن اِهتمامي واِحترامي عن كل ما فاتك في هذا السبيل.

المخلص

"كليم ميلر"

هذا هو الخطاب الذي تلقته هنرييتا يوم الثلاثاء. وأبقته تحت وسادتها طول الليل. واستيقظت مرتين لتُعيد تلاوته في ضوء الشمعة الخافت في الحجرة التي تتقاسمها مع زميلتها في الدراسة بالقسم الداخلي. وكانت في كل مرة تُطيل التفكير.

إنّها بطبيعة الحال تُريد الزواج مِن كليم ميلر. وما مِن رجل سواه طلب منها أن تتزوجه. بل ما مِن رجل فكّرَ في دعوتها لمراقصته. ومع هذا فهي ترُيد أن تمضي في مسألة الزواج من كليم، وفي حبه الهوينا، لأن علاقتها به هي الشعلة الوحيدة المضيئة في حياتها. ولئن خسرتها فلن تكون لديها شعلة سواها ما عاشت.

كانت تشعر بغبطة شديدة وهي تضع رسالته الساذجة في صدرها، فتبعث في كيانها الدفء ما تحمله من وعود الحب والحنان. وإنّها لتعلم أنّها تستطيع أن تثق بحبه أكثر مِن ثقتها بحب والديها. وغدًا ستختلي بنفسها في المكتبة. وتكتب إليه خِطابًا تبثه مَا بنفسها وتدعوه للحضور لأن عندها مثل ما عنده.

وغدًا ذهبت إلى المكتبة وأخذت تخط على القرطاس كلماتها في اِنفعال وحماسة. وإذا بزميلتها في حجرة النوم تقبل نحوها وهي تغالب الضحك وتهتف بها:

– مرحى يا هنرييتا. هناك رجل يُريد أن يُقابلك..

– رجل؟ مستحيل!

– بل صحيح. فهو شاب بارز العظام جدًا. نحيف جدًا. مغطّى بالتّراب مِن رأسه إلى قدمه. أمّا ملابسه.. أُف!

فأدركت على الفور أنّه كليم! ولم تنتظر بقية الوصف، بل أسرعت تهبط السلالم ودلفت إلى حجرة الجلوس. وكانت في تلك الساعة خالية إلَّا منه، وقد وقف في وسطها ينتظرها. فلمّا رآها شدّ علي يدها بحرارة وقال:

– كان لابد لي مِن الحضور. لأني لم أستحب فكرة طلب يدك في خطاب. فعلى الشاب الذي يُريد أن يتزوج فتاة أن يذهب إليها ويقول لها هذا مواجهة.

– لا بأس. فإنّي لم أقم وزنًا للشكليات.

ووقف كل منهما ينظر الى الأخر، ويكاد يشرب تفاصيل تكوينه شربًا. كان كل منهما عاطلًا مِن الوسامة. فيه صراحة وأمانة واستيحاش. وكأن كلًا منهما يرى في صاحبه صورته منعكسة في مرآة مصقولة.

وبصوت مختلج سألها وهو يعبث بقبعته:

– هنرييتا. أعندك مثل ما عندي؟

فتضرجت وجنتاها. إنّه إذن لا يبالي بمنظرها. لا يبالي بشعرها الخشن. كأنّه شعر فرشاة. وبأنفها القبيح وصغر حجم عينها الرماديتين وفمها الواسع كأنه فم فرس!

وبصوت مختلج أيضًا أجابته قائلة:

– ربما لم تحبيني بعد أن تعرفني.

– إن كل ما فيك يشع ضياؤه منك. فأنتِ الطراز الذي أنشده. أنشد إنسانًا أضع فيه ثقتي وإيماني. كم أنا بحاجة إلى الإيمان.

فتنهدت واختلج بدنها كلّه وهي تقول له:

– ما مِن أحد قبل اليوم شعرَ بحاجته إليّ.. آه يا كليم!

وبخجل وارتباك أحاطَ كل منهما الأخر بذراعيه، ثُمَّ التفت شفاههما في قُبلة ساذجة تنم عن افتقار تام إلى الخبرة والتجربة.

وقضى معها بقية اليوم، وقد نسيت أبحاثها الكيماوية. تجولا في كل مكان وطافت به المعمل وشرحت له الأبحاث التي تهتم بها. وكان يصغى لها باهتمام ويُحاول أن يفهم. ثُمَّ قال لها بلهجة قطعت قلبها:

– كم كنت أتمنى أن أتعلم..

– ولماذا يا كليم لا تترك مخزن البقالة وتدخل الجامعة؟ فمعظم الشبان يدرسون ويعملون في الوقت نفسه لكسب قوتهم.

فهزّ رأسه مُعترضًا وقال:

– لم أعد أستطيع. فاتَ الأوان. وقد قطعت شوطًا طويلًا في طريقي نحو غايتي. وكل ما أنا مُتشوق لتعلمه هو بعض الكيمياء العضوية والغذائية، كي أكتشف للنَّاس أُغنية جديدة رخيصة كاملة القيمة. فهل تعلمين أحدًا اتَّجهَ هذا الاِتجاه؟

– لا أحد فيما أعلم..

وركبا قطار الثامنة مساء الى المدينة القرية حيث دعاها لتناول عشاء مِن السندوتشات في مطعم في العمال.

وكانت الليلة دافئة والظلام ليس دامسًا حينما فرغا فخرجا يتمشيان معًا على رصيف المحطة، وقد تشابكت يداهما. وصارَ مِن الصّعب عليهما اِحتمال فكرة الفراق بعد أن اِلتقيا. وسألته:

– متي ستلتقي في المرة القادمة؟

– لستُ أدري. وأحسبني ينبغي أن أُرسل إلى أبيكِ أطلب يدك. أليست هذه هي الأصول؟

– كم أتمنى لو لم نضطّر لإخبار أحد بحبنا. ليتنا ننطلق معًا هكذا في صمت، دون أن يعلم أحد فنذهب بعيدًا حيث نعيش حياتنا.

– أظن هذا لا يليق. وسأشعر براحة ضمير كبيرة حين أكتب إلى والدك، أخبره بقصتنا كلها. بل أحسبني ينبغي أن أخبر وليم.

فضربت أرض الرصف بحذائها وصاحت:

– كلَّا! أُريده ألّا يعلم إلى أن نتزوج..

فظهر الجد على وجه كليم وقال:

– ألا ترُيدين أن تُخبريه حقًا؟

– نعم. إنّه آخر إنسان أحب أن يعرف.

– ولكنّه سيعرف إن عاجلًا أو آجلًا.

– دعه يعرف مِن تلقاء نفسه.

ثُمَّ أقبل القطار فأغرق صوتيهما، وتبادلا قبلة أخرى على عجل. ثُمَّ اِستقل القطار ووقفت هي تملأ منه عينيها إلى أن غابَ عن ناظريها.

وفي ليلة رأس السنة تمَّ زفاف روث. وأصرَّت على أن تكون هنرييتا وصيفتها. وبعد الإحتفال ذهبَ الجميع إلى الميناء لتوديعها وزوجها لأنَّهما

سافرا في اليوم نفسه لقضاء شهر العسل في فرنسا. ذهب الجميع ماعدا وليم الذي اِعتذر بعمل عاجل. فقد كان غير مستريح لمشاهدة النَّاس إيّاه في صحبة هنرييتا وجديه العجوزين المتواضعين. ولم يوجه الثلاثة الدعوة لقضاء الليلة في بيته فسافروا في اليوم نفسه.

وفي تلك الليلة فاتحت هنرييتا جدّيها في أمر كليم. وحاولت أن تشرح لهم مبررات هذا الزواج الذي يبدو غريبًا في نظرهما.

– أنّه الشخص الوحيد في العالم الذي يعرف عنّي كل شيء.

فهزّت جدتها كتفيها. أما جدها فقال:

– لعلّكما لا تُفكران في العودة إلى بلاد الصين؟

– لستُ أدري ماذا يُريد كليم أن يصنع. فهو مشغول بالتفكير في العالم كله. وحيث يذهب سأذهب أنا بطبيعة الحال.

وكان الشيخان متعبين فلم يسألاها عن شيء آخر، وصعدا إلى حجرتيهما وتركاها تكتب خِطابًا إلى كليم.

– كليم. هذا العام أحصل على البكالوريوس. وأُريد أن أتزوج فورًا فلا رغبة إلي الآن في دراسة الدكتوراه.

ولم يُعارض كليم. بل رتّب الأمر بحيث سافر في يوم من أيام شهر يونيه بعد تخرجها مباشرة، وقام بزيارة جديها مِن تلقاءِ نفسه، إراحةً لضميره. وكان الشيحان متحفظين في أول الأمر معه. ولكن بعد عشر

دقائق اِنطلقا على سجيتهما، وقد أدركا أنّه لا حيلة لها في منع هذين الشابين من زواج بدا لهما غير متكافئ.

وحين ودعته قال لجدها:

– أرجو أن تتصل بالدكتور ميلر ومسز ميلر وتخبرهما بكل شيء.

– بل نترك لك أنت هذا الأمر. فالمسألة مسألتكما أولًا، ونحن لا يد لنا.

– لولا العجلة لانتظرت رد الدكتور ميلر، ولكن ظروفنا تقتضي الزواج بسرعة.

وبمجرد حصول كليم على ترخيص الزواج ذهبَ الجميع إلى الكنيسة. وكان هؤلاء الجميع عبارة عن الجدين والعريس والعروس. واَرتدّت هي ثوبها الأصفر الجديد. واشترى لها خاتمًا مِن طراز عتيق، وباقة أزهار مِن بائعة متجولة في الطريق.

وبعد اِنتهاء مراسم الزواج أكلا كعكة صنعتها الخادمة العجوز، ونسيت أن تضع فيها السكر. وكانت أعصابهما متعبة جدًا، فقبّلا الجدين ودخلا مخدعهما فاستغرقا في نومٍ عميق.

نحو الهدف

اِبتاع كليم مخزن البقالة مِن مستر جينيسن بعد زواجه من هنرييتا، وكان بامب قد تخرّج فجعل منه شريكًا، وصارَ يُعامله باحترام، لأنَّه كان يعتبرها معجزة كبيرة أنّ الفتى اليتيم الضَّال شب، فصارَ شابًا جادًا يلبس النظارة وأقبل على عمله بجد وأمانة.

وفي بعض الليالي كان كليم يجلس بجوار هنرييتا في الفراش، وتناول التوراة القديمة فيطالع لها منها بصوت مسموع. كلّا، لم يكن يذهب إلى الكنيسة. ولا هي كذلك كانت تذهب. ولم يكن من عادتهما أن يُصليا بانتظام في أوقات معينة. بل فقط حين يتراءى لهما ذلك ويشعران بالحاجة إليه. أمَّا القراءة في التوراة بصوت مسموع فكانت شيئًا محببًا إلى نفسه بين حين وحين.

وفي تلك الليلة فتحَ الموضع الذي تناول فيه المسيح الأرغفة والسّمكات، فأطعم منها الجموع الغفيرة. وتبقت بعد ذلك سلال كثيرة من لقم الخبز ومِن السمك. وكان يقرأ مُتمهلًا جدًا كأنّما يقرأ لنفسه، حتَّى إذا فرغَ مِن تلاوة هذا الفصل أقفل التوراة، وإضطّجع على الوسادة وعقد يديه وراء رأسه وقد ثبت عنه بالسقف. ثُمَّ قال:

– هذا يا هنريبتا هو هدفي. ولكن على طريقتي الخاصة طبعًا. بالعمل الواقعي لا بالمعجزة السماوية. بيد أنِّي أُحب بين الفينة والفينة أن أقرأ كيف اِستطاع غيري أن يُحقق هذا الهدف. أجل إن هدفا واحد وهو إطعام الجياع. ولابد لي من أن أعثر على وسيلة أجعل بها الطعام رخيصًا يا هنريبتا في متناول كل إنسان. وليتني أستطيع أن أجعله بالمجان. لأن هناك ولا شك وسيلة أجهلها يستطيع بها الإنسان الجائع أن يحصل على الطعام بغير ثمن. ولكن ما هي هذه الوسيلة؟

وفي سيارة مِن أوائل ما أخرجته مصانع فورد جعل كليم يطوف أنحاء الريف، وبجواره بامب في يده قلم وكراسة. وفي تلك الأصقاع المتطرفة حيث تتعفن الحاصلات الزائدة عن الحاجة لبعدها عن السكك الحديدية كان يجد طريقة لجلب هذا الطعام بالعربات، أو على ظهور الخيل. إلى أسواقه الخاصة التي يقيمها بالقرب من تجمعات العمال وغيرهم في ضواحي المدن ويبيع فيها هذه الأغذية الجيدة بأقل بكثير مِن سعر السوق. لم يكن يبحث عن الربح بل عن مجرد تغطية المصاريف.

وبالرغم من أنفه بدأت النقود تنهال عليه. وفي ذاتَ يوم نظرَ إلى بامب، وقد رفع حاجبيه دهشة، ثُمَّ قذف إليه بمجموعة من الشيكات قائلًا:

– مبالغ أخرى للإيداع في البنك يا بامب. يجب أن أُفكر في طريقة أنفقها بها. فكل ما أحتاج إليه مِن النقود هو ما يكفي لإقامة سوق

جديدة. ولكن النقود لا تكف عن الإنهيال علينا. ويخيل إلي أنّه لا مندوحة من التوسع في مشروعنا خارج نطاق الولاية. وربما في العالم بأَسره.

وفي هذه اللحظة تحرك في قلبه وتر قديم، هو الحنين إلى مسقط رأسه. إن هذا المال المتراكم يمكنه في النهاية من العودة إلى الصين. كلّا، إنّه لا يُريد أن يُقيم هناك وإنّما مراده أن يسير مرة أخرى في تلك الشوارع المتربة، وأن يدخل عتبة بيت مستر فونج ويقف بنفسه برهة على قبور والديه وشقيقته، فقد كتب إليه يوسان تلميذه القديم إبن مستر فونج أنَّ والده ذهب خلسة فدفن هذه الجثث في خارج المدينة فوق ربوة من روابي الغرب. بين جثث ذويه شخصيًا.

وذاتَ يوم من أيام شهر نوفمبر قرأ في الصحيفة الإقليمية خبرًا منزويًا كان له عظيم الأثر في نفسه. ومفاد هذا الخبر أن إمبراطورة الصين العجوز ماتت. وكان هذا في حد ذاته كافيًا لتغيير جو ذكرياته الحية.

ماتت إذن هذه العجوز الشريرة. وتخلصت بكين من وجودها الخبيث وتأثيرها الشيطاني. لقد اِنتقمت الأيام إذن لوالديه وشقيقتيه الصغيرتين، وأُقفل حساب هذا الماضي. والآن إذن يستطيع أن يذهب إلى الصين بنفس مستريحة.

– هنرييتا. سنُسافر فورًا إلى الصين.

– وهو كذلك يا كليم.

وكان دخولهما إلى بيت مستر فونج يومًا أشبه بالأعياد في تلك الأُسرة.

فالرجل قد علت به السن ولكنّه مازالَ صحيحًا قويًا. ويوسان تزوج وأنجب أربعة أولاد. أما مسز فونج قد شغلت بأمر هنرييتا، مِن زاوية عجيبة جدًا.

– وأين أطفالك؟

– ليس عندي أطفال.

فحملقت وسألتها:

– وكيف لا يكون لديك أطفال؟ هل تصيبهم الروح الشريرة ويموتون؟

– بل لأنّي لم أحبل مُطلقًا.

– والآن ماذا تصنعين مِن أجله؟

والضمير في اللغة الصينية يعود دائمًا على الزوج الذي لا يُذكر تأدبًا.

– وماذا أستطيع أن أصنع؟

فاقتربت منها مسز فونج وقالت لها بطريقة غامضة:

– يجب أن تُعالجي ضعفك. فكلاكما نحيف جدًا. أمكثي معنا مدة كافية وسأُطعمك كميات كبيرة مِن السكر الأحمر وعصيدة الدم. فهذا علاج رائع للزوجات اللواتي لا يحبلن بسرعة. وأُراهنك أنّك بعد شهر واحد ستحبلين. زوجة يوسان حبلت بعد أسبوعين. هل أتممت أنتِ عامًا؟

– أكثر مِن هذا بكثير.

– ما كان ينبغي لكِ أن تنتظري هذه المدة كلها. كان يجب أن تأتي إلينا قبل ذلك. ألا يعرفون في بلدكم ماذا يصنعون في هذه الحالة؟

– ربما كانوا لا يشاهدون كثيرًا على الأطفال.

ولم تستطع هنرييتا أن تشرح لهذه المرأة التي كانت أُمًا مائة في المائة أن كليم كان لها ولدًا وزوجًا في الوقت نفسه. وإنّها لا تُبالي كثيرًا ألّا يكون لها أطفال، لأنَّها لا تُريد أن توزع نفسها بينه وبين أحد آخر.

– ربما كان من الأحسن أن يتخذ زوجة أخرى تنجب لكما أطفالاً.

– هذا ليس مسموحًا به في بلدنا.

– عجبًا. وماذا تصنع إذن المرأة التي لا أطفال لها؟

– تبقى بغير أطفال.

– ولكن ماذا يقول هو؟

– إنّه طيب جدًا معي.

– لابد أنّه طيب. ومع هذا فليسَ مِن الحكمة أن نعول كثيرًا على طيبة الرجال. اِسمعي أيها الأُخت الصغيرة. يجب أن تشربي السكر الأحمر مُذابًا في الماء الحار. وسأذبح لكِ أوزة من أوزنا السمين، وأصنع لكِ من دمها عصيدة تأكلينها ساخنة. آه لو إستطعتِ أيتها الأخت الصغيرة أن تشربي دمها وهو ساخن طازج. إنّه يعمل الأعاجيب.

– كلّا لا أستطيع.

– هذا ما صنعته زوجة اِبني. وبسرعة شعرت بالسعادة في داخلها.

ولكن ليست جميع النساء سواء. فهناك مَن لا يستطعنَّ شرب الدم، ولو مِن أجل الخلف. لا بأس، سأضعه لكِ في العصيدة، وبعد ذلك سنرى!

أمّا زوجها مستر فون فكان مشغولًا بالإصغاء إلى الشرح الذي يُلقيه كليم عن مشروعات التغذية على نطاق عالمي. وبعد أن أطالَ الاِستماع قال له:

– إنّك تتعب نفسك بغير مبرر!

– وكيف ذلك؟

فتنحنح مستر فونج ثُمَّ تفل في قطعة مِن الورق البني قذف بها تحت المنضدة وقال:

– لأنَّك تظن وأنت شخصٌ واحد أن في مقدورك أن تُطعم جميع الجياع في العالم. وهو حلم خطر أيّها الأخ الصغير لا يجدي عليك سوى

آلام المعدة التي تُعاني منها. إن سببها القلق والتعلق بالأوهام المزعجة التي لا تُنال. وليس أخطر على إنسان من أن يعتقد أنَّه يستطيع أن يقوم بعمل جميع النَّاس مجتمعين! إنّه إذن يظن نفسه إلهًا. والرأس الشامخ جدًا ولو لفعل الخير تصيبه الصواعق بسرعة أيها الاخ الصغير! فلا تسأل نفسك إلَّا عن ذويك. أمّا خارج هذا النطاق فلا مسئولية عليك قبل النَّاس، ولا قبل السماء!

ثُمَّ مدّ مستر فونج العجوز يده ورفع القطة العجوز، التي كانت جالسة تحت مقعده، ووضعها على بطنه الكبير وقال:

– إنّها عمياء. وأنا لا أُطعم أى قطة في البيت، حتَّى هذه القطة. لأن القطط تُقتنى كي تقتفي الفيران، لا للتدليل. ومع ذلك فالقطط الأخرى تأتي كل يوم بفأر مما تصيده إلى هذه العجوز العمياء فتأكله!.. إنّي طبعًا أهتم جدًا بإطعام أُسرتي، وكل من يتّبعنا ويعتمد في معيشته علينا. أما ما عدا ذلك فلا أشغل نفسي به، كي تطول حياتي. فمَن يحمل فوق طاقته من الأعباء لابد أن ينوء تحتها، ولن يستطيع اللوغ بها إلى أي هدف.

ولمّا خرج كليم مع هنرييتا للنزهة في الشوارع، قال لها:

– إنيّ لا أستطيع أن أجد صدى لأرائي هنا. وربما كان ذلك لأنَّه لا يوجد جياع كثيرون.. وحتَّى المتسولون أميل إلى البدانة.. ولكنَّى أتمنى أن أرى «سون ياتسن» شخصيًا، لأنيّ أشعر بقدرتي على اِقناعه برأيي.

– وكيف يُمكن أن نعثر عليه وهو مختفٍ مِن وجه الحكومة التي تطلب رأسه؟

– يخيل إلي أن يوسان يعرف مقره..

وفي آخر يوم مِن أيام إقامتهما في بكين، زارا قبر والدي كليم وشقيقتيهِ في صحبة مستر فونج. وبعدها شكره كليم على جميل صُنعه وكرم ضيافه، وانتحى به جانبًا، ثُمَّ طلبَ منه أن ييسر له الاجتماع بسون ياتسن الزعيم الثائر. فأعطاه خطابًا مقفلًا، وطلب منه ألَّا يفتحه إلَّا وهو في عرض البحر..

وعلى ظهر الباخرة فتح المظروف، فوجدَ فيه ورقة بها عنوان في الحي الصيني بمدينة سان فرنسكو.. مع كلمة السر التي تفتح له باب المخبأ السري للزعيم الكبير..

وكان العنوان في الواقع عنوان كواء صيني، ما إن سمع كلمة السر حتَّى أدخله من باب خلفي إلى حجرة داخلية حيث وجدَ سون ياتسن جالسًا إلى منضدة صغيرة فحياه وقال له: «حضرت من طرف مستر نوع بائع الكتب في بكين. وقد أتيتك بفكرة قد تكون نافعة لك».

– ليس عندي مقعد أُقدمه لك. فخذ مقعدي.

ونهضَ الرجل. بيد أن كليم رفض. وعندئذٍ دخل الكواء بمقعد آخر فجلس عليه كليم. وعندئذٍ قال سون ياتسن بصوته الهادئ جدًا:

– استمر في حدِيثك مِن فضلك. فإنّي سأرحل عمّا قريب إلى بلادي. وهذه الأيام الأخيرة، أو ربما كانت الساعات، ثمينة جدًا.

– إنّي أتيتك لأتحدّث إليك عن الطعام. وأُخبرك بما أعتقده في هذا الموضوع. إنَّ النَّاس لن يعيشوا في سلام دائم، ما لم يتيسر لهم الحصول على الطعام بِانتظام وبطريقة مضمونة. وقد أعددتُ لذلك برنامجًا.

ثُمَّ مالَ إلى الأمام، وراحَ يشرح برنامجه باللغة الصينية وبطلاقة. وتوقف الكواء عن الكي وراح يُصغي لكلمات كليم الفيّاضة. وهو يغمغم بين حين وحين: «صدقت صدقت»..

وكانت عينا كليم، وهو يتكلم، مثبتتين في وجه الزعيم الثائر العظيم، يدرس جبهته العالية وفمّه الذي يدل على الكبرياء، وأنفه الواسع ودماغه الكبير. ولم يدرِ هل استطاع التأثير في الرجل أو لم يستطع؟ لأن وجهه كان جامدًا لا تعبير فيه.

والحقيقة أن سون ياتسن كان مُستمعًا من النوع الممتاز. لم يُقاطع ولم يستوضح. بل أصغى بكلِ اهتمام. فلمَّا فرغَ كليم من بسط مشروعه، الذي ينطوي على تنظيم توزيع الطعام في الصين؛ لمنع المجاعات وإرضاء الجماهير هزّ سون ياتسن رأسه. ثُمَّ قال:

– تحت يدي ميزانية. وبهذا المال أمامي أن أختار بين إنشاء جيش يُحارب أعداء الشعب، فأُقيم حكومة صالحة للشعب، أو أقوم على حدّ تعبيرك بمجرد إطعام الشعب.

– إن حكومتك لن تقف على قدميها ما لم تُطعم الشعب.

فابتسمَ سون ياتسن اِبتسامته الجذابة المشهورة وقال:

– لم أقم هذه الحكومة بعد. والأهم يا صديقي قبل المهم.

– إن الشعب لن يُؤمن بكَ إلّا إذا أطعمته. فإذا أطعمته أمكنكَ أن تُقيم الحكومة التي تُريدها. أمّا العكس فلا.

– مسألة فيها نظر. ورأيي إذا أقمت حكومة صالحة، فأستطيع بعدها أن أُطعم الشعب.

فنهضَ كليم واقفًا ثُمَّ قال:

– أحسبني فشلت في إقناعك. وأحسبك ستفشل أنتَ أيضًا. ستفشل حكومتك وسيأتي إنسان آخر؛ وستكون وسيلته للوصول إلى الحكم أن يعد الشعب بالطعام. وربما لم يقدم لهم الطعام لأن شدة الجوع قد تجعل الشعب ينقاد لمجرد الوعد باللقمة!

ولم يجب سون ياتسن لحظة على هذا النذير. ثُمَّ بعد ذلك نهضَ فقال بكل أدب واحترام عرف عن الصينيين:

– أشكرك يا سيدي لأنّك بحثت عني. وأشكرك مرة أخرى لاهتمامك بشعبي. ولئن لم تقنعني، فقد أفلحت على الأقل في التأثير في قلبي.

– طابَ مساؤك. وأتمنى لك حظًا سعيدًا على كل حال. وليتك لا تنسى ما قلته لك مع أنّك لم توافق عليه، لأنني أعلم أن الصّواب في جانبي.

غاية الحياة

شعرت كانداس أن وليم أصبح ضيق الصدر بها. أجل إنّه ينحني كالعادة ليقبلها ولكن روحه بعد أعوام الزواج الأولى مختلفة. هناك شيء أشبه بجو الشتاء الثقيل يتجمع في نظراته وإنطباق شفتيه. وحين يفتحهما يكون صوته رسميًا.

– يؤسفني أنّي تأخرت.

– هل تأخرت حقًا؟ إذن فقد تأخرت أنا أيضًا، لأنّي دخلتُ مُنذُ قليل بعد سهرة في المسرح.

– وهل كانت الرواية جيدة؟

– لا أظنّها كانت تعجبك.

ثُمَّ نهضت مِن المقعد الطويل الذي كانت مُستلقية فيه مُنذُ ساعات تنتظره ونظرت مِن النافذة، وكانت الحديقة الواسعة بديعة التنسيق، مُضاءة بمصابيح الكهرباء على مسافات متباعدة. ثُمَّ قالت:

– مِن حسن الحظ أن المربية تعنى جيدًا بالأولاد. وتكثر من اللعب معهم في الحديقة. ولكن هذه الإنجليزية مجنونة بالهواء الطلق، فلا تدخل حجرة إلّا وفتحت نوافذها على مصراعيها. وتزعم أن ذلك ضروري للصحة.

وجلسَ وليم في مقعد مريح اِتّخذ فيه جلسته المألوفة، التي تشبه «البوز الفوتوغرافي». وقد وضع ساقًا على ساق. وأيًا كان زي ملابس الرجال فهو يرتدي دائمًا بدلة رمادية اللون، قاتمة فيها خطوط باهتة بيضاء. أمّا رباط عنقه فأزرق قاتم ليست به أية إشارة.

جلسَ ولم يُعلق على عبارتها الأخيرة. وقد كانت هذه عادته مُنذُ الزواج. فتعودت أن تسأل ولا تنتظر منه ردًا. فكان كلامها جعجعة عقل فارغ لا يُعنيه أن يكون لحركته محصول. وقد اِكتشف تفاهة عقلها بعد الزواج بقليل؛ فلم يعد يلقي إلى كلامها بالًا. ولو على سبيل التظاهر.

وجمعت هي ثوبها، ثُمَّ تقدمت مِن مائدة الزينة، وراحت ترجل شعرها القصير، وقد رأت في سحنته أن شيئًا ما ليس على ما يُرام. ولم تشأ أن تسأله فسيتكلم مِن تلقاءِ نفسه إن أرادَ أن يُخبرها. وربما كان ما ضايقه هو رائحة الشواء المتصاعدة مِن المطبخ في الطابق الأرضي. لأن الخادمات ربما تركن بابه مفتوحًا بالرغم من الأوامر المشدّدة. وربما كان أيضًا لأنَّه وجدها قصت شعرها على غير إرادته.

وفجأة قال وليم:

– تلقيت اليوم خِطابًا من والدي.

– هل هناك شيء أزعجكَ في هذا الخطاب؟

– لقد قرّرا الحضور أخيرًا إلى الوطن.

– هذه أنباءٌ طيبة. أليس كذلك؟ إنيّ لم أرَ والدك قط، والأطفال لم يروا جديهما.

فقطب حاجبيه الكثيفين، واكتسى وجهه بالعبوس حتَّى لقد اختفت عيناه.

– ولكن هذا الوقت لا يُناسبني. فقد قررت إصدار الصحيفة الجديدة فورًا بدلًا من الاِنتظار حتَّى الربيع القادم كما كنتُ عازمًا.

– ولكن لماذا تنُشئ صحيفة جديدة، وأنتَ تربح أكثر من حاجتك مِن المال؟ إنّك بهذا تُضحي بنفسك وبنا مِن غير مقابل أيها العزيز.

وتركت مائدة الزينة، ثُمَّ أسرعت إلى جانبه، وجلست على ركبتيها، ووضعت يديها في حجره وقالت له:

– إنّني أضطّر الآن أن آخذ الأولاد إلى كل مكان من غيرك. وفي الصيف الماضي لم تحضر إلينا على الشاطيء إلَّا في عطلات أخر الأسبوع. إنّ هذا ليس صوابًا يا وليم وخصوصًا بعد أن تجاوز الأولاد دور الطفولة. وأنا لم أقل شيئًا عندما كنت ناشئًا. أمّا الآن ولكَ صحيفتان كبيرتان، وملايين في البنوك فمِن حقي أن أخرج معك في بعض الأحيان ومع الأولاد إلى المسارح والنزهات.

وكان واعيًا لوجهها الجميل بالقرب مِن وجهه. وكان يتمنى لو استطاع أن ينقادَ لها. بيد أن قوة خفية في داخله كانت تُبعده عنها. لم يكن

يدري ما هي، ولكنّه كان يشعر أنّها كحلقة من حديد تُحيط بقلبه. كانت تمنعه أن يمنح نفسه لأي إنسان حتَّى لأولاده. كم تمنّى أن يلعب على الأرض ويتدحرج على البساط كما يفعل أرميا مع بناته الصغيرات. ولكنّه لم يستطع، ولم يكن يشعر بمنتهى الراحة إلَّا وهو جالس وراء مكتبه الكبير، يصدر الأوامر إلى الرجال الذين يستخدمهم.

ومع هذا فقد تناولَ يدها بلطف وقال لها:

– اعتقادى يا كاندي أنّ المسئولية الملقاة على عاتق رجل يغذي عقول وأرواح ثلاثة ملايين مِن المواطنين مسئولية عظمى.

– ثلاثة ملايين؟

– هذا هو عدد قرائنا اليوم بحسب آخر إحصاء. ويقدر مدير الإدارة أن التوزيع سيتضاعف في خلال سنة واحدة.

– لقد نجحت نجاحًا عظيمًا يا وليم. ومع هذا لا يبدو أنّكَ مُتلذّذ بحياتك كثيرًا.

– ليست الحياة في اِعتقادى مجرد لذة.

وكانت لا تزال جالسة على الأرض بجواره، فتناولت إحدى يديه في تراخ وعبثت بأصابعها، فسألته وهي لا تتوقع جوابًا:

– وما هي غاية الحياة إذن؟ أنا شخصيًا لا أعلم ولا أظن أحدًا يعلم بالضبط. فنحن هنا، وهنا سنبقى. وهذا كل ما هناك.

وكان لا يحب لعبها بيديه؛ فسحبَ يدَه بلطف، وأشعل سيجارة ثُمَّ قال:

– إنّ الحياة على كل حال لها غاية أكثر مِن المتعة.

فنهضت على قدميها وتناولت رأسه بين يديها ثُمَّ قبّلت جبينه وقالت:

– أيُّها العزيز المسكين. إنّك جاد أكثر مما يجب.

– لستُ بحاجة إلى شفقتك.

– لم أقصد هذا يا وليم، وإنّما عنيت أنني أُحب الحياة كثيرًا وأستمتع بها.

فنهضَ وغادرَ الحجرة. أمّا هي فلم تبالِ بتباعده؛ لأنَّه كان يُسعدها أن تحبه، والحب كما قال لها أبوها كافٍ بنفسه.

أب.. وابن

حينما وقع نظر وليم على والده وهو يهبط مِن القطار، أدركَ لأول وهلة أنّه أمام رجل مُسن عادَ إلى الوطن كي يموت. وأفزعه هذا الإدراك. وكانت إنفعالاته حين تتحرك في صدره تلجمه عن الكلام. وعن جانبيه وقفت روث وكانداس وأرميا. أمّاَ الأطفال فلم يُحضروهم لأن الساعة كانت متأخرة.

وسقطت أضواء المحطة على وجه والده الأبيض، وكان قد أطلق لحيته بيضاء كالفضة. أمّا والدته فلم تزدها السن إلَّا شيئًا من البدانة. بيد أن صحتها ظلّت على حالها. وأحسّ بقُبلتها الحازمة على خدّه، دون أن يحول عينيه عن وجه والده. إنّ والده هو هذا الرجل الذي ظهرت عليه الشيخوخة الشديدة، وقد أطبق شفتيه الشاحبتين بهدوء بين طوايا لحيته البيضاء، وليس في وجهه مِن علامات الحياة إلَّا عينان متوهجتان سوداوان. فتناول يد أبيه، فإذا هي حفنة مِن العظام. وعندئذٍ صاحَ وهو يحيط والده بذراعيه: «أبتاه! ..».

ثُمَّ إلتفت نحو أرميا وقال له:

– تكفّل أنت بهم يا أرميا. بالنّساء والحقائب. وسأمضي أنا بوالدي.

وعندئذٍ صاحت أُمه:

– ولكنّه أحسن من ذي قبل بكثير. لقد كان مريضًا جدًا.

– ولكنّني لا أراه بخير..

وشعر برغبة شديدة في البكاء، فقادَ والده مِن ذراعه إلى باب السيارة. الذي فتحه السائق فساعده على الدخول ثُمَّ لفه في الغطاء الدافيء وصاحَ بالسائق:

– إلى المنزل مباشرة يا هارفي.

فتحركت السيارة الضخمة ببطء، وسط الزحام، وجلس وليم يفحص والده بعينيه، ثُمَّ قال:

– كيف حالك يا أبي؟

فاَبتسم الدكتور لين وقال له:

– لا أخالك كنت تتوقع أن تجدني على حالي بعد كل هذه السنين؟

– ولكن هل أنتَ على ما يُرام؟

– ليس تمامًا..

وبدا الشيخ هادئًا، صبورًا، صافي النفس، مطمئنًا، فشعرَ وليم كأنّه يراه لأول مرة. بل أحسّ برغبة في أن يقبض على يد أبيه، ويُبقيها في يده. لولا أنّه خجل.

– وهل اِستشرت طبيبًا؟

– أجل. وقد اِستحسن أن يفحصني الأخصائيون هنا.

– وماذا قرّر؟ وكيف شخّص الحالة؟

– يبدو أن عندي تعبًا مزمنًا في المصارين، دون أن أدري نتج عنه خلل في تركيب الدم يقضي على الكرات الحمراء أول بأول.

– كان ينبغي أن تفطن أمي للحالة.

– إن الإنسان لا يُمكن أن يفطن إذا كان يعيش معك في نفس البيت سنوات طويلة. وأنا نفسي لم ألحظ تغييرًا.

– ولكنّك ستستريح كل الراحة.

وتكلم وليم في البوق الموصل إلى السائق، يأمره بالإسراع. فانسابت السيارة بهما بكل راحة. وإضطّجع الدكتور لين في مقعده المريح، وأغمضَ عينيه، كمن يستسلم للنوم. فراحَ وليم يرقبه في قلق عميق. إنّه سيستدعي طبيبه الخاص على الفور. ولن يغمض له جفن قبل أن يظفر والده بشيء مِن التقوية. واقتربت السيارة مِن الباب، فبدأ وليم في النزول. وبحنان اِستغربه مِن نفسه جدًا، ساعد والده على اِرتقاء الدرجات القليلة المفضية إلى البهو. حيث أخذَ الساقي القبعتين والمعطفين. وعند السلم الكبير رأى والده يقف وينظر كمَن يتطلع إلى جبل عالٍ قبل أن يتسلقه، فقال وليم:

– سأحملك.

– كلّا. سأستطيع الصمود بعد لحظة.

ولم يسمعه وليم. وفي موجة مِن الحب لم يشعر بها مِن قبل نحو مخلوق بشري حمل أباه على ذراعيه. وأفزعته خفة الرجل بالرغم مِن طوله الفارع، ثُمَّ صعدَ به السلم. ولمَّا شعر الشيخ بذراعي ولده تحملانه اِستسلمَ، وتنهّد، ثُمَّ وضع رأسه فوق كتفه، وأغمض عينيه.

وما حدث لوليم في الأسابيع التالية كان شيئًا غريبًا جدًا، حتَّى في نظره هو. فقد بدا له أنّه وحيد في هذا العالم مع أبيه. ومع ذلك فالقديس الذي يجود بأنفاسه شخص يتجاوز حدود أبوته. ولأول مرة مُنذُ بدأ العمل، لَزِمَ الدّار، لا يذهب إلى مكتبه. وأدركَ ببصيرة خاصة، ظهرت لديه حينئذٍ أن هذه النّفس الطاهرة لا تستريح في هذه الفترة إلَّا للوحدة والعزلة. فأظهرَ خشونة كبيرة مع أُمه، وأَصدرَ التنبيهات المشددة إلى كانداس وروث.

– يجب ألَّا تسمحا لأُمي بالإقتراب منه، وأنتما مكلفتان بإبعادها عن البيت أكبر وقت ممكن، وبأي مبرر خطرَ بالكما.

وكان كذلك يجاهر الأطباء الأمريكيين في قسوة وفظاظة، ويصارحهم بأنّهم غير أكفاء. ثُمَّ أبرق بنفسه إلى أعظم أخصائي إنجليزي في أمراض المناطق الحارة، وهو السير هنري لامفير، يطلب حضوره فورًا. وتحت أمواج المحيط الأطلسي، جعلت البرقيات تغدو وتروح بين ساعة وأخرى.

وكان رد السير هنري على اِستدعاء وليم الأمر رداً إنجليزيًا حاسمًا:

– اتصلت بطبيبكم الخاص الدكتور بارترام. مُتأكد أن خدماتي فاتَ وقتها. اِستهلكت الأنسجة نتيجة للجوعِ العضوي. الحقن قد تطيل حياته بعض الوقت.

وكان جواب وليم جوابًا أمريكيًا آمراً:

– حدد أجرك..

ففقد السير هنرى صبره. وحملت الأسلاك عبر المحيط اِستياءه:

– ليس هناك ثمن يغري بالحماقة، وترك مرضاي في مستشفاي مهملين. أنصحك بالإعتماد على أطبائكم المحليين.

– أتنوي أن تترك أبي يموت؟

– الموت والحياة بيد الله وحده. الأطباء يصنعون الممكن فقط، ووالدك شيخ أنشب فيه المرض القاتل أظفاره.

– والدي سليل أسرة مِن المعمرين. ومقاومته الروحية عالية.

– التشخيص واضح. حقنوه بالأمتين، غذوه باللبن والموز والفراولة، وخلاصة الكبد، مع الراحة التامة. واستشيروا بارترام وصلّوا للرب. لا لزوم للرد.

وشعرَ وليم أمام هذه الصلابة الإنجليزية، بحقده يتجدد على زملائه التلاميذ الإنجليز المتعجرفين في مدرسة الصين. وأصدرَ أوامره لموظفيه

بوقف الاستعدادات، لإصدار الصحيفة الجديدة. وتركَ توكيلًا مُطلقًا لمديري التحرير على ألّايتصلوا به في أي أمر بالمنزل إلّا للضرورة القصوى.

كان يعلم في قرارة نفسه أن السير هنري على حق. وهذا أسوأ ما في الموضوع، بعد فكرة الموت نفسها.

إنّه الآن يجلس يوميًا بجانب فراش والده صامتًا، في بيت يُخيم عليه الصمت. وأمرَ الممرضات بالبقاء في الحجرة المجاورة، فلا يدخلن إلّا في مواعيد الحقن والطعام. وحرَّم دخول أي إنسان إلّا الدكتور بارترام. وكانت تطن في دماغه فكرة مؤلمة. إنّها لحماقة فعلًا مِن السير هنري أن يحضر. ولكن كان في اِستطاعته على كل حال أن يُحدد الأجر كما طلب منه. فكل رجل في العالم له ثمن. وكان مُستعدًا أن يدفع الثمن، بغير طائل، لمجرد إرضاء ضميره. أو بالأحرى إرضاء غروره. ولكنها إهانة إنجليزية جديدة، تُضاف إلى إهانات زملاء الدراسة المتعجرفين. ولسوف يلقي على هذه الجزر الصغيرة المتغطرسة درسًا لن تنساه، مستخدمًا كل قوته في إثارة العداوة الشعبية ضدها. وسيعلم هؤلاء البحارة عاقبة السخرية مِن بلده الجميل الفتيّ أمريكا.

لقد كان في صدرِ شبابه، يخجل من أن والده مرسل متواضع. ولكنّه الآن فخور بهذا المرسل الذي اِرتفع مِن الحضيض، لأنَّه وليم لين صاحب الملايين والقوة السياسية النامية والتأثير الاجتماعي والاقتصادي القوي.

وطفرت الدموع إلى عيني وليم. فأمواله لم تستطع أن تؤجل ساعة واحدة منية أبيه. ومالَ إلى الأمام على فراش المريض، ثُمَّ تناول يده. وهمس قائلًا:

– أبي.

– نعم يا وليم؟

وكان صوته واضحًا جدًا على شدة خفوته، وحول وجهه نحو ولده.

– أنت تعلم أنيّ أفعل كل ما في وسعى لك؟

– أجل يا بُني.. لا بأس.. لابد أن أموت كما تعلم.

– ولكنّي لا أستطيع أن أدعك تموت.

– هذا فضل منك عظيم يا وليم.. أُقدره كثيراً.

– أُريدك أن تعيش لأنيّ محتاج إليك يا أبي.

خرجت مِن فمه هذه الكلمات على غير قصد. وبغير تفكير. ولكنّه أدركَ على الفور أنها كلمات صادقة. إنَه لم يتحدث بقلب مفتوح إلى أبيه من قبل. والآن يخيل إليه أنّه لا يستطيع أن يفضي بذات نفسه إلى أحد غير أبيه. لا يستطيع أن يُحدّث غيره عن قلقه العظيم الذى يملأ جوانحه في الليل والنهار.

الآن وقد أنشأ هذه الألة الناجحة الضخمة مِن الصحافة الناجحة التي تدر عليه أكداس الأموال سواء تولاها بنفسه أو غاب عنها. ماذا بعد ذلك؟ الآن وقد أحرز القوة وطوع لنفسه ملايين النَّاس يتطلعون إلى الصور التي يختارها ويطالعون الكلمات التي يكتبها، أو التي يسمح بكتابتها. ماذا بعد ذلك؟

– أبي. إن تركتني.. إن كنت حقيقة تعتقد..

– بل أعلم يقينًا. الله أخبرني.

– إذن قل لي قبل أن تمضي. ماذا ينبغي أن أصنع؟

– تصنع ماذا؟

– بنفسي؟

فرأى أباه يفتح عينيه السوداوين ويحاول حصر ذهنه بمجهود أخير، ثُمَّ قال:

– يا وليم. يجب أن تصغى لصوت ضميرك.. إنّه هو صوت الرَّب مُنطلقًا من داخل صدرك. أذكر خالقك في أيام شبابك. فكل ما تملك، وكل مواهبك العظيمة يا ولدي وجهها لخدمة الرّب.يا إلهي إنّي أشكرك لأنّك أتيت بي إلى أحضان ولدي قبل الأوان.

وفي تلك الليلة، بعد منتصف الليل بعشرين دقيقة، خفتت أنفاس أبيه وهو نائم كما ينام الأطفال بغير حشرجة، وبغير حركة.

كان كليم واقفًا في وسط السوق يدعو النَّاس بلهجة خطابية إلى منافع مشروعه حينما تقدمت منه هنرييتا وفي يدها قصاصة صفراء. وكان من المألوف عنده أن يتلقى مِن معاونيه المنبثين في أطراف الريف برقيات بالمحصولات التي عقدوا صفقاتها. وكان نظام العمل يقتضي تسليمها إليه على الفور. لهذا قطع الخطبة وتناول البرقة من يدِ هنرييتا. فتبين له على الفور أنّها ليست من النوع الذي توقعه.

كانت البرقية إلى مسز لين. وموجهة إلى زوجته.

– والدك العزيز قضى نحبه ليلة أمس. الجنازة يوم الخميس.. والدتك.

وعلى الفور نسى كليم الجماهير وما اكتنف حفلة اِفتتاح هذه السوق من نجاح وسرور. وضايقه أن بناء السوق المرتجل ليس فيه مكان يسمح له أن يختلي بزوجته، كي يرفه عنها. ورأى الدموع تنهمر ببطء مِن عينيها فقال لها:

– اِذهبي فوراً إلى البيت. وسأُرسل معكِ وونج ليوصلك إلى القطار. وخذي معك نقوداً لتشتري ملابس سوداء مِن هناك. وسألحق بكِ غداً. وبرغمي أن أتركك تقضين الليلة في القطار وحدك.

– كم كنت أتمنى أن أراه مرة واحدة قبل أن يموت. كان يجب على وليم أن يُرسل إلي. أو على الأقل كان ينبغي لروث. ولكن الذنب ذنبي. فأنا التي كان يجب عليها أن تذهب لتراه بمجرد وصوله. إلّا أن كبريائي

أبت عليّ لأنّهما ذهبا إلى وليم وتجاهلاني. ومع هذا لم يُخبرني أحد أنّه كان مريضًا.

– كان مِن الواجب على ذويك أن يُخبروك بأي شكل.

– والآن أخشى ألّا أراه. فلا أستبعد على وليم أن يُمضي في جميع الإجراءات كأن كل من عداه ليس لهم وجود.

– عجّلي على كل حال بالذهاب.

ثُمَّ التفت إلى مساعده الصيني وونج، وخاطبه بالصينية:

– اصحب مِن فضلك مسز ميلر إلى البيت، وساعدها في إعداد حقيبتها. ثُمَّ خُذها إلى محطة سكة الحديد. واشترِ لها تذكرة بولمان إلى نيويورك بأول قطار. فوالدها المحترم توفي هناك.

وأدركَ الصيني الشاب مقدار الفجيعة، ما فطر عليه الصينيون مِن توقير الأباء. وكان قد سمع في الصين بسمعة الدكتور لين، وكيف أنَه يعتبر أطيب المرسلين قلبًا. فقال:

– الله معك يا سيدتي. فيوم وفاة الأب أسوأ يوم في حياة الإنسان.

– إنّي لم أره طول تلك السنين يا وونج. والآن لن أراه.

– وَآسفاه يا سيدتي. مِن أجلنا قطع نفسه عن ذويه وعن وطنه.

وبعد أن اِشترى لها التذكرة، وسلة صغيرة من الفاكهة، وأجلسها في القطار، ثُمَّ اَصلح لها ستائر النافذة، ووقف على الرصيف وقبعته فوق صدره إلى أن ابتعد القطار.

ولم تكن هنرييتا دخلت قصر وليم الجديد. ولما لم تكن قد أرسلت برقية تنبئ بحضورها، لم تجد سيارة في اِنتظارها فركبت عربية أجرة، وقفت بها عند باب القصر المبني مِن الحجر الأشهب في الشارع الخامس. ودقّت الجرس ففتحه الخادم الإنجليزي فقالت له:

– أنا شقيقة مستر لين الكبرى.

فبدا على الرجل أنه دُهش؛ لأنَّه لم يكن يعلم بوجودها ثُمَّ قال:

– تفضلي بالدخول يا سيدتي.

ثُمَّ أدخلها إلى حجرة واسعة، واَختفى دون أن يسمع لأقدامه صوت، لسمك البسط المفروشة. وجلست هنرييتا في مقعد عميق مكسو بالقطيفة المرجانية وقد أدهشتها فخامة الحجرة التي تناسقت فيها ظلال اللون الأشهب، والمرجاني والأزرق الدخاني، ما بين الستائر المخملية والبسط الفارسية. كانت حجرة ناعمة الذوق جميلة. إنّها تحاكي في لون جمالها طراز جمال كانداس. وفي وسط الحجرة مائدة مستديرة ضخمة، من خشب الموجنة تعلوها زهرية ضخمة من الخزف الصيني الأشهب المطعم بالفضة تتخلله عروق مِن اللون الرمادي الداكن وقد امتلأت بأزهار صفراء هادئة اللون.

هذه إذن حياة وليم في الوقت الحاضر. أو لعلّها حياة كانداس. فربما كانت هي المسئولة عن ذلك الثراء الفاحش.

ثُمَّ فكرت في وليم، وتذكّرته كما كان في بكين. فتى ضيق الصدر، سليط اللسان في البيت ومع الخدم. ولكن لماذا كان يبدو دائمًا غير سعيد؟ إنّه لم يكن يتحدث إليها إلَّا نادراً، وعندما كانا معًا في المدرسة الداخلية في تشيفو لم يُكلمها على الإطلاق تقريبًا حتَّى حين يلتقي بها في دهاليز المدرسة الضيقة. فإذا بعثت إليهما أُمها برسالة واحدة باِسمها، كان عليها أن تُرسلها إليه مع خادم صيني. ولم تحضر روث الصغيرة هذا العهد في المدرسة؛ لهذا لم تعرف وليم في أسوأ صوره.

وانفتح الباب، ثُمَّ دخلت كانداس تجر ذيول ثوبها المنزلي الفضفاض، وكان الوقت ظهراً تقريبًا. ومع هذا لم تكن قد اِرتدت ثيابها بعد. إلَّا أنّها كانت تبدو في غاية الآناقة والحلاوة في هذا الثوب الوردي. وشعرها الأشقر المتموج منساب على عنقها. أمّا هنرييتا فبدت مشعثة بعد الليلة التي قضتها في القطار. ومدّت كانداس يدها فتلألأت الجواهر في خواتمها.

– تأتين من غير أن تخبرينا بقدومك أيتها الخبيثة!

– خيّل إليّ أنكم ستتوقعون حضوري على الفور.

ثُمَّ استسلمت لقبلتها المعطرة، وجلست ثانية. وعندئذٍ تنهدت كانداس وتصاعدت الدموع إلى عينها البنفسجيتين الرقيقتي النظرة وقالت:

– وليم يرفض أن يتعزى. فهو جالس باستمرار هناك، بجوار والده ليلًا ونهاراً. لا يأكل ولا يشرب ولا يستريح. أمّا أُمك فنائمة لأنّها متعبة جداً. وقد ذهبت روث إلى بيتها لتمكث بعض الوقت مع أطفالها. فلا لزوم لها هنا.

– سيأتي كليم غداً.

– إنّه كرم منه أن يجشم نفسه الحضور.

– ليس كرمًا منه. فهو سيحضر مِن أجلي، والآن أُريد أن أذهب لأرى أبي يا كانداس. لأنّي لم أره من قبل كما تعلمين.

– لستُ أدري إن كان وليم..

– وليم يعرفني جيداً وسوف لا يلومك.

ونهضت، فنهضت كانداس أيضًا، ثُمَّ قادت هنرييتا الى حجرات ودهاليز، وأخيرًا، وصلت إلى أبواب ضخمة مِن خشب القسطل المصقول، ففتحت فرجة صغيرة في الباب. ومِن فوق كتفيها رأت هنرييتا مكتبة واسعة، في وسطها منصة عليها نعش وبجواره جلس وليم في مقعد جلدي بحيث يرى وجه أبيه. ومن الجهة الأُخرى زهرية حافلة بأزهار الزنبق، وأشعة الشمس تنساب فوق هذا المشهد مِن النوافذ الجنوبية الضخمة.

وعندئذٍ أزاحت هنرييتا كانداس بلطف، ودفعت الباب، ثُمَّ دخلت وقالت:

– ها قد أتيت يا وليم.

فنظرَ إليها وليم مأخوذاً، ثُمَّ نهض وقال بصوته العميق الأجش:

– أتيتِ مبكرة يا هنرييتا.

– أتيتُ بمجرد وصول برقية والدتي.

وكانت كانداس قد أغلقت الباب ومضت. فتقدمت هنرييتا مِن النعش، وأطلّت على وجه أبيها، فإذا به وكأنه تمثال مِن الثلج الأبيض. ويداه الهزيلتان معقودتان فوق صدره، وهما كوجهه في بياض الثلج. ثُمَّ التفتت إلى وليم، فنظرت إليه مليًا وقالت له:

– يسرني أنّك لم تنبذه.

– إن كل ما يُمكن عمله قد عُمل.

– إنّه شديد الهزال..

– لأنَّه كان مريضًا مُنذُ عامين. ولم تفطن أُمي إلى ذلك. وهو أيضًا لم يكن يشكو إليّ أن أكل الداء الوبيل أمعاءه، وانطفأ كل أمل.

ولم يبكِ أحدهما. ولم يتوقع مِن الآخر أن يبكي. ثُمَّ قال وليم:

– يسرني أنَّه لم يمت هناك.

– ربما كان يفضل أن يموت هناك. فقد كان يُحب الصينيين كثيرًا.

– لقد أضاعَ حياته مِن أجلهم.

وشعرت بالرغم من اِتزان صوته أنّه حزين حزنًا عميقًا. فقالت له:

– إنّه لما يعزيك أنّه جاء هنا ليموت.

– إنّه أكثر مِن عزاء. إنّها رسالته الأخيرة.

ولم يشعر بدافع ليفضي إليها بكلمات والده الأخيرة. ولا كيف أنه –بعد أن أعرب عن رغبته في أن يموت ويدفن في بكين– غيّر رأيه فجأة، وقال لزوجته ذات ليلة:

– يجب أن أرى وليم. يجب أن أرى ابني. عندي ما أقوله له.

وعندما سألته أُمه بعد أن مات أبوه ماذا قال له، لم يشأ أن يشركها في سرهما المشترك. ذلك السر الذي قطع والده، ألف الأميال ليقوله له في كلمات قليلة. ثُمَّ قالت هنرييتا:

– وليم. أمتأكد أنت أنّك لست مريضًا؟

– طبعًا متأكد. إنّي متعب بطبيعة الحال. ولكنّي لا أنوي أن أستريح قبل الجنازة غدًا. وأظن أنه ينبغي أن تذهبي لترى والدتي.

– قالت لي كانداس إنّها نائمة.

– إذن آنَ لها أن تستيقظ.

ثُمَّ قادها إلى خارج الحجرة. وفي البهو ضغط زرًا فظهر خادم إنجليزي.

– خذ شقيقتي إلى حجرة والدتي.

توجهت هنرييتا بنفسها إلى المحطة لتستقبل كليم، الذي وصل في آخر لحظة قبل تشييع الجنازة. وهمّ سائق وليم أن يحمل حقيبته فقاومه قائلًا:

– إني متعود حمل حقيبتي. شكرًا لك.

ثُمَّ وجه إلى الرجل ابتسامة مشرقة، ونسى أمره بعد ذلك.

– كيف أنت يا هنرييتا؟ ما أطيب أن يراك المرء ثانية.

– أسرع فالوقت ضيق..

وأقلتهما السيارة بسرعة إلى الكنيسة الضخمة في الشارع الخامس. وعند بابها اِستقبلهما حاجب قادها إلى مكان محجوز محاط بالسواد مخصص لأسرة الفقيد. ولدهشتها وجدت مقعد كام ومقعدها مجاورين لمقعد وليم وروجر كاميرون. وكانت هذه أول مرة يري فيها كليم وليم بعد مشاجرة بكين. فوجده على حاله مِن الصرامة والوجوم. فنسى الميت ولم يبقَ في ذهنه سوى خاطر واحد: وليم إنسان شقي. فحزنه على والده لا يُمكن أن يكون قد حفر بسرعة كل هذه الغضون. ولكن لماذا يشقى وليم؟ إنّ الشقاء شيء غير الحزن. إنّه نوع مِن القبح يتغلغل بجذوره إلى أعماق النفس.

وفي هذه اللحظة ارتفع صوت القسيس عميقًا واضحًا مصقولًا.

– الرّب أعطى والرّب أخذ.

فاستجمع كليم أفكاره وهز قدمه على عادته العصبية. وكان الجو في الكنيسة حارًا والأزهار الكثيرة تثقله بعطرها. ووجه نظره إلى جهة البيت، فتراءى له كتمثال مِن الرخام الأيض مجلل بالأزهار. ولم يرى فيه ذلك الرجل الطيب الودود البشوش، الذي عرفه في بكين، وخطر له أن وليم أمر بتجميل وجه والده بالمساحيق ليكون منظره مناسبًا. وشعر في أعماقه أن الدكتور لين لا يمكن أن يرضى عن هذه المظهريات كلها. وخُيل إليه أنّ الميت يتململ في مكانه ويهم أن ينهض لينصرف مِن هذا الجو المزخرف.

وأحسّ بهنرييتا تغمزه في ذراعه لأنَّه اِندفع مع تصوراته، فبدأ هو أيضًا يتململ في مكانه، فاعتدل، ووجه اِنتباهه إلى القس الذي كان يلقي كلمة في تأبين الفقيد. ثُمَّ اِختلس نظرة الى وجه وليم. ثُمَّ إلى وجه أرميا وروث ومسز لين ولم يكن قد رآهم من قبل. فهم من ذلك الطراز الذي لم يكن يعرفه أو يميل لمعرفته. وارتدَّ بصره إلى هنرييتا فلمح الشبه الواضح بأخيها. ثُمَّ فكر في المعجزة التي حملت هذه المرأة تولد وتنشأ بين هؤلاء ثُمَّ لا تكون مثلهم في شيء. فتنفر منهم وترغب في الزواج منه. إنّه يحبها كما يحب عمله وأحلامه. ولكنّه لم يُفكر فيها قط على أنها جزء منه أو شيء تابع له، لأنَّه لم يعتبر نفسه شيئًا أبدًا.

وذكر باِمتنان في هذه اللحظة أن هنرييتا لم تفاتحه أبدًا في مسألة إنجاب الأطفال. لقد شهد بعينيه أطفالً كثيرين يموتون جوعًا. ورأى في رحلته على قدميه من بكين إلى شاطىء البحر مئات الأطفال القذرين

يمرحون ويلعبون أو يبكون جوعًا. ففي العالم على كل حال أكثر مما ينبغي من الأطفال.

وما من مرة خطر الأطفال على باله إلَّا تذكر شقيقتيه كما التصقت صورتهما بذهنه وقد طارت رأساهما عن جسديهما. وما أحوجه إلى حريته الكاملة كي يستطيع أداء رسالته التي ولد لها. كلّا إنّه لا يريد أطفالاً.

وثاب إلى نفسه حينما وضعت هنرييتا يدها على ذراعه، فإذا صلاة الجنازة قد انتهت. فشعر بالخجل مِن نفسه لأنَّه لم يستطع تركيز ذهنه. وتبعها إلى حيث وقفت الأسرة لتستقل السيارات إلى المقبرة.

وبعد مراسم الدفن عاد الجميع إلى بيت وليم. وأسرعت كانداس تشرف على إعداد مائدة الشاي. وفيما هي تعبر قاعدة المائدة التقت بزوج هنرييتا. ووجدته لطيفًا يذكرها في شكله وحركته بالطيور، فعجبت في نفسها لماذا ثار غضب وليم حينما علم بزواج هنرييتا مِن كليم؟ فقالت له بصوتها العذب:

– أدخل يا كليم..

فأقبل عليها ويداه تعبثان في جيوبه بشيء له صليل، لعلّه مجموعة مِن المفاتيح أو مِن النقود المعدنية. كلّا بل هي زجاجة حبوب صغيرة أخرجها، ثُمَّ سألها:

– ألديكِ هنا ماء؟ فهذه الجنازة أثارت أعصاب معدتي.

فقدمت إليه الماء فشرب دواءه، ثُمَّ راحَ يقص عليها كيف التقى بوليم في بكين.

– هل كان يعرفك من قبل؟

– كلّا. ولكن كان يعرف من أنا. كل من في بكين كانوا يعرفونني.

– ماذا تعني؟

– كنت مشهورًا لأنني ابن البشر الوحيد المتسول. أما آل لين فهم كرام النَّاس. أُمراء الكنيسة. وكان الدكتور لين أجود النَّاس في صدقاته على أبي وعلينا يا مسز وليم.

– بل أدعني كاندي..

– كاندي! اسم يليق بكِ. معناه الحلوى. لقد كان والدي يا كاندي رجلًا جاهلًا. مثلي لم يذهب إلى مدارس. ولكن مع فارق واحد بيننا. أنا كنت أتمنى لو تعلمت. أمّا هو فلم يكن يرى للتعليم لزومًا، لأن الرّب يدبر كل شيء حتَّى الطعام بغير عمل وحتَّى الفهم بغير تعليم.

– أراكَ رجلًا سعيدًا. وأحسب هنرييتا مسئولة عن ذلك. فهي تعشقك فيما أعتقد. وحين تتحدث عنك يطفح وجهها بشرًا كمَن تتحدث عن طفلها الوحيد.

– ليس في العالم كلّه نظير لهنرييتا. ولست أدري ماذا عساي كنت صانعًا لولاها. إنّها أساس حياتي. ولم تخذلني في شيء قط. فليباركها الرّب كي تعينني في مسألة الطعام.

– الطعام؟ وماذا تنوي أن تصنع بخصوص الطعام يا كليم؟

– لاشيء. أُريد فقط أن أطعم العالم.

– أتقول تطعم العالم؟

– نعم العالم. هذه الكرة الأرضية التي نقف عليها.

– صه!

ووضعت يدها الجميلة على ذراع كليم وأصاخا السمع. ثُمَّ سحبت يدها ودخل وليم الحجرة فالتفتت إليه قائلة:

– كنّا نتحدث يا وليم في اِنتظار الجميع. فكل شيء على أهبة الاِستعداد.

– لست أدري أين ذهبوا؟

ثُمَّ جلس في مقعد بجوار النافذة.

– كنت أتحدث مع كليم عن إطعام العالم.

– أنت إذن تشتغل بصناعة التغذية؟

– أجل. وقد فتحت مِن يومين سوقًا جديدة كبيرة في دايتن.

– وما علاقة هذا بالعالم؟

– مجرد بداية..

– أنت إذن تفكر في إنشاء اِحتكار عالمي للغذاء؟

ولأول مرة بدا على وليم الاهتمام بالموضوع.

– لا وحق الجحيم! إنّي لا أهتم بالاحتكارات بل أُحاربها. وكل ما أهتم به هو إطعام النَّاس. وَمن لم يستطع منهم أن يدفع الثمن أعطيته الطعام بالمجان.

– ماذا تقول؟ تطعم النَّاس بغير مقابل؟

– طبعًا ماداموا جائعين.

– ولكنّك لا يمكن أن تستمر في السوق على هذا الأساس.

– هذا ما يدهشني، وما عجزت عن فهمه. فبالرغم مِن جهودي في محاربة الربح وتجنبه وجدت نفسي في الوقت الحاضر مليونيرًا.

وانطلقت كانداي تضحك، فرمقها ولم بنظرة قاسية وقال:

– ما الذي يضحكك يا كانداس؟

فغطت وجهها بيدها لتخفي الضحك. لأن ما أضحكها هو متظر وليم وهو يسمع كلمات كليم. بيد أنّها تحب لم تجسر أن تقول له ذلك. فقالت:

– شيء مضحك جدًا أن يثرى إنسان لأنَّه يهب الطعام بغير مقابل.

فهزّ وليم كتفيه، ثُمَّ نهض ليدعو الأسرة إلى المائدة. فلمّا جلسَ الجميع رفع رأسه وقال صوت ثابت وقور رسمي:

– لم تجر عادتنا في هذا البيت على الصلاة قبل الطعام. وربما كان ذلك اِهمالاً منّا. ولكن اِبتداءً من اليوم، وتذكارًا لوالدي، سأقوم بصلاة الشكر على المائدة في بيتي.

ثُمَّ سقط نظره على وجه كانداس فرأى فيه الحب والعطف والرثاء تتحول إلى دموع، فأحنى رأسه سريعًا، ليتحاشى هذا المنظر. ومدّت إليه أُمه يدها شاكرة فتجاهل تلك اليد، ثُمَّ بدأ مهمته بصوت منخفض عميق:

– يا أبانا الذي في السماء. مِن أجل الطعام الذي أعطيتنا تقبل شكرنا. بارك هذا الطعام وباركنا لنستحق ملكوتك. آمين

وكانت هذه الصّلاة بحذافيرها هي التي تعود والده أن يُليّها قبل كل وجبة طول سنوات حياته التي قضاها مرسلًا.

الحب الضائع

أثناء الحرب العالمية الأولى وما تلاها مِن سنوات الإزدهار، نمت أعمال وليم وثروته نموًا هائلًا. فصحفه هي أوسع الصحف اِنتشارًا في أمريكا كلها. حتَّى أنَّه أصدر طبعات أجنبية كثيرة. وهجرَ مكاتبه القديمة، وهو الآن يملك ناطحة سحاب هائلة على النّهر الشرقي.

ومع هذا كله لم يكن قانعًا ولم يكن راضيًا. فهو يُريد أن يرى وطنه أعظم الأوطان في العالم. لا بالكلام والخيال بل بالعمل والفعال. وكم سره أن يرى بنفسه في رحلته حول العالم السفن الأمريكية تمخر جميع البحار. والصّحف الأمريكية ولاسيما عنه منتشرة في جميع البلدان. والمؤسسات الأمريكية في شوارع المال والتجارة بجميع العواصم. والكنائس والمدارس الأمريكية في جميع القرى فوق ظهر البسيطة. إن أمريكا وطنه ولهذا يُريد أن تكون أعظم الأوطان.

كان هذا هو المحرّك الذي يبعث الحياة في كل حياته. ولهذا الغرض كان يتبرع بالمنح السخية للإرساليات إالأجنبية تمجيدًا لذكرى والده. كما أسس كلية في الصين سُميت جامعة لين التذكارية. مع أنّه رفض رفضًا قاطعًا أن يُقابل شخصيًا المرسلين الذين يدفع مرتباتهم. ووكَّل هذه الأمور لمؤسسة خاصة هي مؤسة لين الخيرية. وعلى كثرة ترحاله لم تطأ قدماه أرض الصين. مع أنّه كثيرًا ما كان يحلم بشوارع بكين حين يلم به التعب في بعض الليالي.

بيد أنّه كان ينفض تلك الأحلام البلهاء مِن ذهنه ويعود إلى مثله العليا المحسوسة.

أمّا كانداس فلم يكن لها مكان في هذا البناء الضخم. وقد أصبحت بالتدريج عديمة الإكتراث للمسئوليات العظيمة التي أخذها على عاتقه، بل حدث ذات يوم أن تشاجرت مع أُمه شجارًا عنيفًا. وعلى شدة اِجتهاده في معرفة سبب هذا الخلاف لم يصل إلى معرفة التفاصيل. وكل ما اِستطاع أن يعلم إجمالاً أنّه شخصيًا كان مدار ذلك الخلاف.

وزادت كانداس في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الأولى غرابة في السلوك وإمعانًا في عدم المبالاه. وبدأ يعترف بينه وبين نفسه أن كانداس لم تعنِ شيئًا كثيرًا بالنسبة إليه في يوم من الأيام. وقد اِنقضت سنوات مُنذُ اِنقطعت حاجته إلى روجر كاميرون. وفي العام الماضي عندما ماتت والدتها قال روجر العجوز لوليم:

– أُريد أن أبيع أسهمي في جرائدك.

– إن الأسهم في صعود مستمر.

– ولهذا السبب أُريد أن أبيعها.

ولم يفهم وليم مراده بيد أنّه لم يجب لأنَّه شعر بشيء مِن المضاضة. وثارت كبرياؤه فكتب مذكرة لوكيل أعماله، وطلب منه أن يشتري مِن البورصة جميع أسهم جرائده كي يغدو المالك الوحيد بغير مُنازع أو شريك.

وذات يوم مِن أيام شهر أكتوبر جلسَ يفكر في هذه الأمور في مكتبه الفسيح، فوق قمة ناطحة سحابه الخاصة. والمكتب يفضي إلى جناح بديع، تعود أن ينام فيه حين يمكث في مكتبه إلى ساعة مُتأخرة من الليل.

جلس وليم أمام مكتبه الدائري الضخم، وقد وضع قبضتيه فوق المكتب واستسلم للتفكير. لقد حصل على كل ما اِشتهاه في حياته ما عدا الصداقة والأنس. فهو بعيد بذات نفسه عن كل مخلوق بشري. حتَّى عن كانداس وأولاده. ومِن باب أولى عن أُمه وشقيقتيه.

أنّه إنسان مستوحش، متوحد ليس يقربه أحد، رجلًا كان أو إمرأة. قد اِطمأن إلى وظيفته في إدارة الصحف اِطمئنان زوجِ الأخت الخلي البال، الذي يعلم أنّه لا يُمكن أن يفصل لما يؤدي إله فصله مِن فضيحة وهزة في الإدارة. يُضاف إلى هذا أن أرميا لديه حاسة فنية وخيال واسع، يضفي على الصحف روح الفكاهة التي لا يمكن لأحد أن يمدّها بها. فوليم لا يمكنه ذلك لأنَّه لا يعرف كيف تكون الفكاهة. ورجال التحرير لا يمكنهم ذلك لشدة خوفهم منه، والفكاهة لا يمكن أن تعيش مع الخوف جنبًا إلى جنب. وكان في اِستطاعة أرميا أن يكون صديقًا له، بيد أنّه لا يريد. ووليم يعلّل ذلك الإعراض مِن جانب أرميا بأنّه لا يقدر أهداف وليم قدرها. ثُمَّ إن آل كاميرون جميعًا سطحيون. لا يبالون بشيء مبالاة جدية. فهذا روجر العجوز الأرمل قد أصبح شيخًا مرحًا لا يهتم بشيء أبدًا. وكانداس

أصبحت تُهمل زينها وقوامها، وتضحك مِن كل كلمة يقولها شقيقها أرميا. ولم ينفع معها التنبيه إلى مقتضيات الوقار.

إن أشبه النَّاس به هي روث في وقارها. ولكنّه يتساءل أحيانًا: ألا تضحك حينما تكون بعيدًا عن مرمى سمعه؟ إنّه على الجملة إنسان وحيد ليس له أحد. وأبناؤه لا يثيرون اِهتمامه. إنّه وحيد كالملوك. وحيد لأنَّه رجل كبير.

أجل إنّ العظمة تفرض عليه الوحدة. فهو كالملك لا يستطيع أن يمد يده إلى إنسان إلَّا ويساء فهم إشارته. إنّ الصداقة العادية شيء ممتنع عليه. وإنّه لفي حيرة مِن أمره. هل يُمكن أن تكون في العالم إمرأة تشعره بالأنس والصداقة؟ تكون معه بغير فارق؟

وكأنّما أراد أن يستوثق مِن جواب هذا السؤال، فخرج مِن مكتبه قبل موعده، ودخل سيارته التي كانت تنتظر أمام الباب. فدهش السائق وبدت على وجهه إمارات السرور. ولا شك أن الرجل كانت له أسرة، ولهذا سرّه أن يعود إليها مبكرًا. وذلك شيء لا يعلم وليم عنه شيئًا. ولم يُحاول أن يسأل، وإنما السائق عنده وظيفة لا شخص. فأشار برأسه للسائق أن يتوجه به إلى قصره.

ووجدها جالسة على مقعد طويل بجانب بركه الإستحمام. فنهضت لاِستقباله وذهبت فإرتدت ثوبًا مناسبًا، وعادت فجلست بجواره. ثُمَّ قالت له وقد مالت فوقه تقبله:

– لقد بدأ الصلع يدب إلى رأسك يا وليم.

وأدركت بعد فوات الأوان أنّها أخطأت. لأنَّه لم يجب وقطب جبينه، فبادرت تقول:

– ولكنه غير ظاهر.

– لو لم يكن ظاهرًا لما رأيته.

– ليكن لكَ ما تريد.

ووقعت منه ملاحظتها الحارة وقع الصاعقة. لأنَّها ذكّرته بأنّه اِكتهل، وأصبح في منتصف العمر. فإن كان عازمًا على أن يعتصر مِن الحياة شيئًا فهذا هو الأوان، أو يفوت الأوان. وكأنّما اِنبثق نهر جارف مِن المشاعر في صدره فجأة.

ليطلّقن كانداس! إن هذا ضروري إن كان مصممًا على التمتع بالآنس والمؤاخاة الروحية والذهنية قبل أن يموت. ولا شك أنّه سيجد في مكان ما مِن هذا العالم الواسع المرأة التي يريدها. هذا هو الأوان أو يفوت الأوان!

واضطجع في الشمس الدافئة، واسترخت عضلاته. لقد أُزيح عن كاهله عبء ثقيل بهذا القرار الحاسم. وكأنّه خرج مِن نفق مظلم إلى ضوء النهار. وأغمض عينيه، ثُمَّ تناول مِن يد كانداس كأس الشراب المثلج الذي

قدمته له، وراح يرشفه بِارتياح عظيم. ومَا إن فرغ من اِرتشافه حتَّى نهض ليعود إلى مكتبه، كي يتحاشى النظر إليها أو الإصغاء إلى حديثها.

وبعد أسابيع تلقت هنرييتا مِن أُمها على غير اِنتظار، خطابًا يحمل طابع بريد نيويورك. ومِن أول سطر عرفت نبأ الكارثة:

– أحمد الله يا عزيزتي أنّ أباكِ العزيز فارق هذا العالم، قبل أن يتحطم قلبه بتلك المصيبة. فما كان هذا العزيز ليحتمل وقوع شيء مِن هذا القبيل في أسرتنا المحترمة المتدينة. وأؤكد لك أنّني بكيتُ طويلًا، وتضرعت إليه، مع أنّني لم أكن معها على وئام. بيد أن وليم ظلّ على عناده، ولم يجعل لتوسلاتي إلّا دبر أُذنه. إنه إبني. وإنّي لأتمثله الآن فتى صغيرًا أحمله فوق صدري. ولكنّي حين أنظر إليه الآن لا أكاد أعرفه. رباه ماذا صنعنا كي تحيق بنا هذه اللعنة؟

وحملت هنرييتا الخطاب مُتجهة نحو كليم، وهي لم تتبين بعد نوع الكارثة.

فلمّا قرأت الجملة التالية أطلقت صرخة حادة، ففزع كليم وسألها:

– ماذا جرى؟

ولم يكن مِن عادة هنرييتا أن ترفع صوتها أبدًا، أمّا الآن فهي تحملق بعينيها الرماديتين في الورقة التي في يدها، وكأنها ترى عفريتًا مِن الجن. كان

لون عينها كلون عيني وليم. ولكنهما لم تكونا معدنيتي النظرة. كانت لهما أعماق، وليس مجرد سطح يشع وتنعكس عليه الإشعاعات.

– وليم بسبيل تطليق كاندايس!

وخرجت الكلمات من بين أسنانها في رعبٍ شديد. وتلقّى هو هذه الكلمات بمثل ذلك الرعب، ووقف كل منهما يحملق في وجه الأخر. ثُمَّ سألها بحدة:

– لا يجوز لرجل أن يطلق إمرأته إلَّا لعلّة الزنى. فما فعلت كانداس؟

– إنّها لا يمكن أن تكون فعلت شيئًا. وأمي لم تذكر..

ثُمَّ جرت عيناها بين سطور الخطاب وهتفت:

– بل ها هي تقول أن السبب كون كانداس لا تعجبه. وهي كما كانت دائمًا. وليس هذا عذرًا طبعًا لوليم. ولكنّك تعرفه لا يفكر حتَّى في اِلتماس عذر لنفسه يبرر به عمله. فهو يفعل ما يشاء ولا يبدي لذلك سببًا. وتعزو والدتي هذا السلوك مِن جانبه الى نزوة. فقد سلبت لبه إمرأة إنجليزية اِلتقى بها في بعض رحلاته إلى إنجلترا.

ولو أن في عيني هنرييتا دموعًا لذرفت تلك الدموع. وكل ما هناك أن قلبها اِزداد قساوة على وليم ونفورًا منه، ثُمَّ كورت الخطاب في قبضة يدها وألقت به في سلة المهملات. إنّها لم تحب كانداس في يوم من الأيام ولكنّها اليوم تكاد تحبها. أجل أنّها قد اِنفصلت مُنذُ زمن بعيد عن إيمان والدها

القوي، بيد أن لباب الدين الذي يترسب في السلوك والطباع والأخلاق والتفكير كان حيًا في قلبها، وقد نماه وغذاه ما في حياة كليم مِن إيثار ومناهضة للأنانية، وإخلاص حماسي لمبدئه الفريد. ثُمَّ إن آل كاميرون مِن كِرام النَّاس. وهم في جوهرهم يشبهون أباها في طيبة القلب ومازالت لمقتضيات الاِحتشام والتورع قيمتها على كل حال سواء كان المرء من المصلين الصائمين، أومن غير المصلين الصائمين. وليس لرجل يستحق الاِنتساب إلى الجنس البشري المتحضر أن يطلق إمرأته بغير علّة. بل إن كِرام الرجال حقًا مَن لا يطلقون زوجاتهم لأي علّة على الإطلاق. إلَّا أن وليم بعمله هذا قد أخرج نفسه من صفوف الفضلاء.

ورفعت وجهها إلى كليم وقالت له في عزم:

– لن أرى وجه وليم بعد اليوم! إنّه ليس أخي.

فنهضَ كليم، واتَّجه إلى مقعدها، ثُمَّ ركع بجواره. فألقت برأسها على كتفيه الناحلين وطوقها بذراعيه ليهدئها. قالت بصوت متحشرج:

– آه يا كليم. إنيّ لسعيدة لأنّكَ طيب وفاضل.

– ربما كنّا مخطئين يا هنرييتا لِابتعادنا عن الدين. فالإنسان ينمو بنعمة الرَّب.

– إنك حسن جدًا كما أنت. طيب بفطرتك.

– ربما كنت مخطئًا في اِختيار طريقي. ربما كان تفكيري في الطعام خطأ. فليس بالحب وحده يحيا الإنسان كما تعلمين.

– دع عنك هذا. فالمسيح نفسه أطعم الطعام لجموع الجياع. والآن أُريد أن أكتب خطابًا إلى عزيزتي كانداس.

وتلقت كانداس وهي في بيت أبيها ذلك الخطاب:

«عزيزتي كانداس

«لقد عدنا فورًا مِن المكسيك فوجدت خطابًا من والدتي. وأشعر أن كل كلمات العزاء والترفيه لا تُكفي. ولكن اِعلمي أنّي أشعر بالخزي، لأن وليم أخي. وما مِن أحد في بيتنا اِستطاع أن يفهمه. ووالدتي بحمد الله مسرورة لأن والدي مات قبل أن يشهد هذا العار. وأنا أُشاركها الرأي. اللهم إلّا إذا كان وجود أبي ربما أجدى في تحويل وليم عن هذه الهاوية.

لا أظن أن لي في الأمر حيلة. ولم أعد أُصلي كما كنت أصلي وأنا طفلة. ولو إنّني اِعتقدت اليوم أن الصلاة تُجدي لبادرت بالركوع. كم أشعر اليوم إنّني قريبة منكِ. وأولادك؟ لابد أنّهم يشعرون بالمقت الشديد لأبيهم. فهو شرير مع إنكِ لم تستوجبي شيئًا مِن هذا كله. ولا أستطيع أن أتصور عذرًا أو سببًا. فأنتِ آية في الجمال، وفي اللطف ودماثة الخلق ولين الجانب. كم أتمنى أن يعذب الله وليم لما فعل».

قرأت كانداس الخطاب، ثُمَّ ابتسمت اِبتسامة حزينة. ولم يفتها ما في الأمر مِن فكاهة. فهي لم ترتبط قط بهنرييتا إلَّا اليوم، وبسبب اِنفصام رباط القرابة بينهما!

ورفعت نظرها إلى الساعة الفضية الصغيرة الموضوعة على مائدة زينتها. إنّها الآن ليست زوجة وليم. لأن موعد صدور الحكم ساعة الظهر. وقد مضى على تلك الساعة ست دقائق. كانت تعد الزمن دقيقة دقيقة. ثُمَّ غفلت عن ذلك بُرهة تم فيها كل شيء. وتركت الخطاب يسقط من يدها على الأرض، ثُمَّ وضعت رأسها على ظهر المقعد، وأغمضت عينيها.

لم ترفع صوتها بكلمة اِحتجاج، وبذلك صانت كبرياءها. وأخوها أرميا تركَ العمل مع وليم إلى الأبد كما قال. حتَّى إذا اِلتقى بزوجته روث أقنعته بالعودة. إن روت طبعًا لا تُدافع عن وليم فهي أكرم وأرق مِن هذا. ولكنّها أيضًا لا تلومه. لأنَّه شرح لها ذات نفسه. وحاولت أن تنقل إيضاحه إلى أرميا وإلى كانداس بصوتها العذب الضئيل:

– لقد كان وليم على الدوام مختلفًا عن جميع النَّاس. كان يشعر دائمًا بالوحدة..

فقال أرميا محتدًا:

– الذنب ذنبه إن كان يشعر بالوحدة. فهو يُصر على أن يرتفع بنفسه فوق الجميع. أجل يا روث إنّه يترفع علينا جميعًا.

– إنّه يبدو كذلك فعلًا يا أرميا. ولكنّه في دخيلة نفسه إنسان ضائع ضال تائه.

– أجل هو فعلًا ضائع تائه. إنّه بحاجة إلى شيء لم يظفر به، وليس يُدري ما هو. وما مِن أحد منا يستطيع أن يمنحه إياه.

وعندئذٍ قالت كانداس:

– إن كان الأمر كذلك، وكانت «أمروي» تستطيع أن تمنحه السعادة فمن دواعي سروري أن تفعل وأتمنى له معها حظًا موفورًا.

زواج جديد

مع سنوات الأزمة العالمية بدأت الضائقة والجوع يزحفان إلى أمريكا. وإلى المدن بوجه خاص. ففكّر كليم في وسيلة يُطعم بها هذا الشعب الجائع. وصارحَ بامب بما في ذهنه:

– إن هذه الأزمة ستشتد وتغدو أشد أزمة عرفها تاريخ العالم. ويجب أن نستعد لإطعام النَّاس على نحو لم نفعله من قبل. أُريد أن أفتح مطاعم عامة يا بامب. ولا يكفي في الوقت الحاضر أن نبيع للنَّاس الطعام رخيصًا. بل يجب أن نكون مُستعدين لإعطائهم إياه بغير مقابل مطهوًا معدًا للتناول. حتى لا يأخذوه ويبيعوه.

– ولكنّنا لا نستطيع أن نطعم الأُمة كلها يا كليم.

– أنا لا أتكلم عن الأُمة وإنّما أتكلم عن الجائعين. أُريد أن أُنشىء مطاعم في المدن الكبرى في أسرع وقت. وستتولى أسواقنا الموجودة في جميع المدن تقديم الموادَ الأولية لهذه المطاعم. وكل مِن يقدر على الدفع سنقبل منه ما يدفعه طبعًا. وحتَّى الآن يستطيع معظم النَّاس أن يدفعوا ثمن الطعام الرخيص. ولكنّي أُفكر في يناير وفبراير القادمين، وفي الشتاء الذي بعد القادم حين تصبح الضائقة على أشدها.

وأدركَ بامب أن كليم قد صمم على رأيه ولن يرجع عنه. وكان مِن المستحيل طبعًا تنفيذ المشروع في جميع مدن أمريكا دفعة واحدة. ولكن بدأ في تنفيذه على كل حال، في وقت قصير جدًا. واشترى كليم طائرة صغيرة تعلمت هنرييتا كيف تقودها كارهة، لكي تحول بين كليم وقيادتها. وهو إنسان لا تؤتمن أعصابه على الألات لأنَّه يُطالبها بمعجزات لا تقدر عليها. ومِن العجيب أنّها اِكتشفت في نفسها طيّارة ماهرة. أمّا كليم فلم يدهش لذلك لِإعتقاده أنّها قادرة على عمل أي شيء. ثُمَّ شرعًا يطيران من مدينة إلى مدينة ويفتتحان فيها المطاعم مِن شاطىء المحيط الأطلسي إلى شاطىء المحيط الهادي.

وكان عدد المطاعم التي أسسها في أول سنة إثنى عشر مطعمًا. اِنتخب لها مديرين صينيين وخدمًا صينيين. وعلى هذاالاختيار لهنرييتا قوله:

– الصينيون وحدهم يعرفون كيف يصنعون أحسن الطعام من أرخص المواد. فقد تخصصوا في ذلك مُنذُ ألاف السنين بحكم كثرة النسل.

ولما كان يعرف قيمة الروح في العمل فقد دعا معاونيه إلى مؤتمر في شيكاغو، وراحَ يحاضرهم في كيفية مقاومة الجوع. وقدم إليهم قائمة بمائة صنف مِن أصناف الطعام يمكن عملها مِن المواد الرخيصة التي تفيض عن حاجة الأسواق. ووضع لهم القواعد التي كان يجب في رأي الاِقتصاديين أن تقضي عليه فكانت سببًا في ازدياد ثروته ضخامة.

– إذا أرادَ أي إنسان أن يتناول وجبة مجانية في أي مطعم مِن مطاعمكم يسروا له ذلك. وليس لهم بطبيعة الحال أن يطلبوا سلطة روسية وعصيدة الفراولة بالقشدة. ولكن في وسعهم أن يحصلوا على خضار باللحم وخبز وأرز وتفاح مطبوخ. والمهم أنّه يجب ألا يعلم أحد من رواد المطعم إن كان هذا الشخص دفع ثمن طعامه أو لم يدفع. فالإيصال يقدم إلى الجميع على السواء. ثُمَّ يتجه الشخص إلى الصراف ويسر إليه أنّه لا يملك نقودًا.

فسأل المستر ليم مدير مطعم سان فرانسسكو:

– وكم مرة يسمح للشخص بطعام مجاني؟

– هذا سؤال لا يجب أن نسأله. فكل جائع يجب أن يأكل. وفي الوقت نفسه سنقدم أطعمة فاخرة متقنة جدًا بحيث يقبل مَن معهم مال على شرائها. ويجب أن تبدو مطاعمنا في أبهى زينة حيث تهفو نفوس النَّاس إلى دخولها ولا تكون كالمزابل المنتنة.

وتبادل المعاونون الصينيون الإبتسامات فمرتباتهم مضمونة. وهذا الأمريكي المجنون يبدو مسليًا جدًا. ومادامَ قد لجأ إلى شرفهم فسيبذلون قصارى جهدهم في تقليل النفقات مع إتقان العمل. وتقبل كليم وعوده بكل ثقة. وهكذا رتّب كليم أسواقه ومطاعمه في سلسلة مترامية بين أرجاء البلاد. ولم يكن يتوقع الكمال في النظام. وقد اِكتشف في مطعمين

التّلاعب والِاختلاس ففصل المديرين وعيّن غيرهما في الحال وغير مجموعة الخدم والطهاة التي كانت تتواطأ مع المديرين.

وانتشرت فكرة مطاعم الإخوة الإنسانية. واشتهرت بغير إعلان فأنقذت ألاف النَّاس من الجوع مِن غير أن يدري إنسان. واتّضح مِن إحصاء تقريبي أن ثلاثة في المائة ممن لم يدفعوا من طعامهم كانوا قادرين على دفعه. ولكن كان يُقابل ذلك مبالغ إضافية يدفعها القادرون لسرورهم من الطعام. وكان كليم بارعًا في تحصيل هذه المبالغ الإضافية. ففي قاع قائمة الطعام كتب بحروف ظاهرة هذه العبارة:

– أثماننًا أقل مِن أن تكفل ربحًا. فإن كنت تشعر أنَك أخذت أكثر مما تساويه نقودك لجودة الطعام في أي صنف، فتفضل بدفع ما تظن أنه يوازي ما حصلت عليه من اللذة. وهذا المبلغ سينفق في إشباع الجياع.

وكان عدد الذين يدفعون هذه المبالغ الإضافية مُثيرًا للدهشة. ولكن كليم لم يتعجب لذلك. لأنّ إيمانه بالبشرية صارَ ينمو مع مرور الأيام وتقدمه في السن والتجربة.

بيد أن نجاح هذه التجربة قوى إيمانه وجعله يفكر في تنفيذها على نطاق أوسع تتولاه الحكومات. ولكن مَن الذي تكفل بنشر الدعاية بين صفوف النَّاس والتمهيد لها في الرأي العام وحمل الساسة على اِعتناقها؟

الرجل الكبير! صاحب مجموعة الصف الهائلة!

وطالع هنرييتا ذات يوم على غير اِنتظار بقوله:

– عندى فكرة. سأذهب لمقابلة أخيك وليم.

فاعتدلت في مقعدها ورمقته بنظرة فاحصة، ثُمَّ قالت:

– أنت تعلم يا كليم أنّه ليس وراء ذلك طائل.

– بل ربما كانت هناك فائدة. فقد اتّخذ زوجة جديدة كما تعلمين.

– لا يمكن أن تكون أفضل مِن كانداس.

– ربما. فقد كانت لطيفة حقًا. ولكن وليم يحب هذه المرأة الجديدة. إذن فمِن المحتمل أن يكون حبها قد أحدث في نفسه تغييرًا. ربما يكون قد أذكى قلبه.

– إنّك حالم يا كليم. فهو الآن رجل خطير جميع النَّاس يطالعون صحفه.

– ولهذا فمِن الواجب أن يعمل شيئًا للنَّاس.

– بالعكس. إنَّه يكره النَّاس ويزدريهم وإلَّا لما أخرج لهم مثل هذه الصحف الهزلية. وأنا أعرف لماذا يخرج هذه الصحف. إنّه يشغل بسخافاتها النَّاس عما هو أجدى وأسمى. كما يعيش الصينيون على الأفيون. ومتى تعودها النَّاس وأحبوها تبعوا الرجل الذي يقدمها إليهم.

– لستُ متشائمًا مثلك يا هنرييتا. وأرفض أن أرسم لوليم هذه الصورة القاتمة. وسأذهب لأتأكد بنفسي.

كانت أمروي تعزف على البيانو عندما فتح هنري الخادم الإنجليزي الباب وتنحنح، فرفعت رأسها دون أن تتوقف عن العزف.

– مِن فضلك ياسيدتي. زوج أخت المستر لين هنا.

– مستر أرميا كاميرون؟

وكانت قد قابلت أرميا وروث واستلطفتهما كثيرًا، وإن كان أرميا للأسف هو شقيق زوجة وليم الأولى. وكان أرميا مِن البراعة حين قال لها عند أول لقاء:

– أرجو ألّا يضايقك أنّني شقيق كانداس. وأؤكد لكِ أنّها تفهم الموقف على حقيقته. ولا مانع عندها من مقابلتك. فهي إنسانة سمحة طيبة القلب.

ولكن هنري سعل مرة أخرى وقال:

– إنّه ليس مستر أرميا يا سيدتي. بل زوج شقيقته الآخر. مستر ميلر.

فتركت ليدي أمروي المعزف. لأنّها كانت قد سمعت عن هنرييتا التي تزوجت شخصًا غريب الأطوار اِسمه كليم نجح نجاحًا هائلًا في اِحتكاراته الغذائية. وبينما هي تفكر هل تستقبله أو لا تستقبله، وجدته ينظر إليها

مِن فرجة الباب وقد تشعث شعره الأشيب. وأذهلتها نحافته وشدة وميض عينيه الزرقاوين.

– تفضل بالدخول. إنّك تبدو بحاجة إلى فنجان ساخن من الشاي. أحضر شايًا ساخنًا يا هنرى من فضلك.

– أجل ياسيدتي.

ورأى كليم أمامه سيدة غاية في الرقة واللطف. وكان في الواقع يشعر بدوار خفيف لأنَّه لم يأكل شيئًا مُنذُ الصباح، فابتسم وقال لها:

– أظنّني جائعًا.

فأجلسته على الفور في مقعد مريح، ووضعت وسادة تحت قدميه. وكانت النار مشتعلة في المدفأة بالقرب منه فشعرَ بالراحة وأخلد إليها. ولما دخل الخادم بإبريق الشاي صبت له فنجانًا وقالت لهنري:

– أحضر له بيضة نصف مسلوقة.

– أنا لا أهضم البيض.

– ولكنّك في حاجة إليه فأنتَ شديد الشحوب.

– لا تضعي لبنًا في شايي مِن فضلك.

وأقبل على الشاى فشرب فنجانين كبيرين مُتلذذًا بطعمه الفاخر. ثُمَّ شريحتين من البسكويت الساخن. وأكل بعد ذلك البيضة المسلوقة بشهية

فشعر بتجدد نشاطه. وابتسم لها اِبتسامة الأطفال، فابتسمت له، وعندئذٍ قال لها:

– إن الطعام يصنع الأعاجيب. لست أدري كيف أناديك؟

– إمروي طبعًا. وأنت كليم فيه أعلم.

– ألستِ تحملين لقب ليدي؟

– بلى. ولكني الآن أمريكية.

– عرفت الآن بالتجربة أنكِ إنسانة تهتم بإطعام الجائعين وتجد في ذلك لذة. وقد أتيت لأقابل وليم بهذا الصدد.

– أظنّك تشتغل بالأطعمة؟

– بل أشتغل بالنَّاس وأهتم بإطعامهم.

ثُمَّ مال في مقعده إلى الأمام واشتعلت حماسته، وراحَ يشرح لها فكرته. وكان قد عول قبل حضوره ألَّا يحبها، إكرامًا لكانداس ولكنّه نسى هذا التحفظ وأحبها فعلًا. فكانداس كانت لطيفة عطوفًا. ولكن عطف الأطفال ورقتهم. أمّا هذه فتبدو شخصًا ناضجًا يفهم ويقدر.

– هل فهمت مرادي يا إمروي؟

– فهمته. وأعتقد أن فكرتك رائعة. بيد أنّك سابق لزمنك. وهذه هي مصيبة جميع الأفكار العظيمة. لهذا فلن تعيش حتَّى ترى فكرتك وقد اِعتنقها النَّاس وصاروا يرون الطعام حقًا طبيعيًا كالماء والهواء.

– أنا لا أكتفي منكِ بهذا الفهم الجيد بل كل من يفهم مطالب بالعمل. وواجبنا الآن أن نوصل هذه الحقيقة إلى أفهام النَّاس. ولهذا حضرت لأُقابل وليم فإنَّ له تأثيرًا عظيمًا على الملايين.

وفي هذه اللحظة وصلَ وليم، فما رأي كليم ظهرت على وجهه علائم الدهشة والإمتعاض. فقالت إمروي على الفور:

– أدخل يا وليم. فإنِّي أصغى لأروع مَن قابلتهم مِن النَّاس. إنّه كليم.

فلم يجد بدًا من حمل نفسه على الدخول والتلطف إليه مادامت هذه رغبتها. فقد اِلتقت عيناها بعينيه لحظة قصيرة، فأذعن كعادته لها ذلك الإذعان الذي لم يعرفه في حياته لأحد غيرها. وصافح كليم وحياه، ثُمَّ جلس وتناول فنجان الشاي مِن يد إمروي.

– الحقيقة يا وليم أنّني جئت لمقابلتك. ولكن أسعدني الحظ بالتّحدث إلى زوجتك الفاضلة. وقد أحسنت اِستقبالي وأطعمتني لأنِّي لم أكن تناولت غدائي بعد.

وبادر كليم ببسط نظريته. فوضع وليم فنجانه مِن يده وقال:

– إنّ ما تقترحه خليق أن يقلب نظام الحكومة إن هي نفذته بحذافيره. فالقاعدة الإِقتصادية السليمة أن منَ ليس معه نقود لا يمكن أن يشتري. وفكرتك مقتضاها أن تتجاهل النقود وقيمتها وقوتها ونعطي النَّاس الطعام بالمجان. فمَن الذي يدفع ثمن الطعام لمنتجيه من المزارعين وغيرهم؟

– ولكن الأزمة تجعل المنتجين لا ينالون فعلًا أي مقابل للطعام الذي ينتجونه، لأنَّه يفسد لكثرته وعدم قدرة النَّاس على شرائه فيضيع عليهم.

– من الخير ألف مرة أن يترك الطعام يتعفن من أن نقلب نظامنا الإِقتصادى كلّه.

– ليكن لك ما تُريد يا وليم. ولندفع الثمن للمنتجين. ندفعه مِن أموال الضرائب.

فظهر الذعر على وجه وليم وصاحَ:

– أنت تُريد الحكومة أن تطعم الشعب؟ هذه إذن دولة خيرية!

– ماذا تقول يا رجل؟ إنني أفكر في الشعب الجائع يا وليم. وما الدولة بغير شعب؟ وما التجارة إن مات جميع المشترين؟ وما الحكومة إن مات جميع الرعايا؟

– هذا هراء فارغ.

ثُمَّ نهض وقال لزوج أخته:

– إنَّا لن ننفق. وأنا أوجه صحفي كما يتراءى لي. صدقني أنّه يؤسفني أن أرى أي إنسان جائعًا. ولكنّي أعتقد أيضًا أنّه ما مِن جائع إلَّا وهو مسئول عن جوعه. فبلادنا بلاد تكافؤ الفرص. وحياتي نفسها دليل على ذلك. فما مِن أحد ساعدني على النجاح. وما اِستطعته بمفردي يستطيعه الآخرون. وهذه عقيدتي كأمريكي.

فنظرَ إليه كليم نظرة ثائرة، ثُمَّ قال:

– إنّك لا تدري ما أنت فاعل.

ثُمَّ دار على عقبيه وخرج كمَن يهرب مِن الجحيم. وانطلق لا يلوي على شيء إلى الفندق حيث كانت هنرييتا تنتظره وقد أقلقتها غيبته الطويلة. وقبل أن تقول له حرفًا واحدًا هتف بها:

– اِجمعي حاجياتك بسرعة. فسنركب أول قطار إلى وشنطن. لأنّي أنوي مقابلة ساكن البيت الأبيض ولو شقت طريقي إليه بالقوة.

وتكررت المأساة في وشنطن، فقد قال له وزير المالية أن سياسة الحكومة ترمي إلى تحديد الإنتاج. ثُمَّ أطلق ضحكة مدوية عندما عرض عليه كليم فكرته.

وهكذا عاد كليم الى بيته في أوهيو مخيب الأمال محمومًا.

مشكلة الجوع

ظلّ كليم يُكافح، وقد اِتسعت أمامه المشكلة، وقامت الشركات الجشعة بخلق المتاعب له ومضايقته بمنازعات قضائية خاضها بكل أعصابه ووصل بها إلى المحكمة العليا. حتَّى إذا اِندلع لهيب الحرب العالمية الثانية وطد العزم على تجاهلها وقال لهنرييتا:

– دعيها تتلظى وتشتعل وتتسع رقعتها. فقد فرغ جهدي.

– ألستَ عازمًا على إغلاق مطاعمك الآن، وقد وجد جميع العاطلين عملًا في صفوف الجيش أو مصانعه؟

– لقد فكرت في ذلك فعلًا. فهذا العمل لا يستهويني لذاته. وأحسبني سأتركه لمن يديرونه كمكافأة. بشرط أن يعدوني وعد الشرف بالاستمرار في تقديم الأطعمة المجانية لكل مَن يحتاج إليها في جميع الظروف.

– لا أظنّهم يمانعون في ذلك ما داموا يربحون. والصينيون كما نعلم فيهم حذق بالفطرة الوراثية.

وذاتَ يوم تلقى كليم دعوة لمقابلة الرجل العجيب المصاب بشلل الأطفال، والذي تعهد بشفاء فرانكلين روزفلت مِن الشلل. فانطلق إليه كليم خفيفًا، وشرح له نظرياته بكل حماسة. والرجل مقبل عليه ببساطة الانسان العظيم الذي لا يستحي أن يكشف عن جهله بما لا يعلم. حتَّى

لقد نسى كليم أن هذا الجالس أمامه وراء مكتب كبير حافل بالتحف الصغيرة، هو رئيس جمهورية الولايات المتحدة وراحَ يُحدثه ببساطة ويروي له ذكرياته عن بلاد الصين وعقلية شعبها.

وقد دهش الرئيس عندما سمع من كليم أن الصين مِن الدول القليلة المكتفية بمواردها ولا تحتاج لِاستيراد غذاء من الخارج.

– عجبًا، يبدو لي أنّني لبثت طول حياتي أسمع عن مجاعات في الصين.

– ذلك لأن أصقاعها النائية معزولة، لا تربطها بسائر البقاع طرق حديثة. فلا يستطيعون نقل المحصولات الفائضة إلى مناطق المجاعات. فمشكلة الجوع في الصين هي بعينها مشكلة الجوع في العالم مصغرة. وثق أنّك لن تستطيع تحقيق سلام ثابت الأركان ما لم تحل مشكلة نقل الفائض إلى مناطق القحط وبذلك تقضي على الجماعات قضاءً تامًا.

– إنَّ الصين لا تعنينا الآن. ولكن يهمني كثيرًا الموقف العالمي ومشكلة الجوع في وطننا. ولذا أرجو ألَّا تحرمني من خبرتك.

فلمّا عاد كليم إلى جوار هنرييتا بدأ بحماسة يكتب سلسلة خطابات جليلة القيمة ليثقف بها ذلك الرجل الباسم الطيب القلب، الذي لم يكن قد أدركَ بعد أن العالم كلّه كوكب واحد وأن الحدود إنّما هي خطوط وهمية.

وعندما أصدرَ روزفلت قرارًا في بداية الحرب بتقديم الطعام المجاني للمحتاجين إليه، لم يعلم الكثيرون إلى أي حد هم مدينون بذلك القانون لكليم ميلر. وعندما دخلت أمريكا الحرب بصفة فعلية تطوع ليشرف على إدارة التغذية التابعة للجيش. ومِن هناك اِستمر في تثقيف ساكن البيت الأبيض. كما وجد الوسائل الفعالة لإقامة عشرات المطاعم الكبيرة على نفقات الجيش زينها بأقفاص العصافير ونغمات الموسيقى. فالطعام في نظره يجب أن يكون من أسباب السعادة كي يشعر الإنسان بنعمة الحياة.

وظلَّ كليم يحصي الأيام، عسى أن تنتهي هذه الحرب فيجمع آراءه في إنجيل واحد يهديه إلى البيت الأبيض وإلى شعوب الأرض. وفي الوقت نفسه راح يُجري التجارب لاِستخراج غذاء جديد رخيص، يكفل الصحة والشبع لسكان العالم، ويقضي على المجاعات نهائيًا. وكانت هنرييتا بتخصصها في الكيمياء تساعده في هذا العمل وتجري معه التجارب على فول الصويا.

أمّا وليم فلم يفلح زواجه الجديد في تخليصه مِن قلقه الداخلي. كان يشعر في أعماقه بخوفٍ دائم. كان بحاجة إلى سلطة عليا ليست من هذا العالم تعطه الأمان والطمأنينة، وقد أثر ذلك على علاقته بإمروي. أمروي اللطيفة النقية الناضجة التي لا تُقيم وزنًا كبيرًا لأمور الجنس فلم يُقلقها التغير الذي طرأ على وليم بقدر ما أقلقها على أثره في نفسه. وأخيرًا وجدَ

وليم نفسه يواجه مشكلته الكبرى. هل هناك سلطة عليا في هذا العالم يستطيع أن يتلقى منها بِاستمرار التأكيد بأنه على صواب؟

إنّه يؤمن بإله. ولكنَّ الإله الذي يؤمن به على ملة والده إله وسيط بينه وبين البشر. وهو مفتقر الى سلطة هذا الوسيط وإلَّا أحس بأنّه تائه ضال وسط الضباب. ولا يمكن أن يجد ذلك الوسيط إلَّا في الديانة الكاثوليكية. وصارَ يلم في كل يوم تقريبًا بمكتب الكردينال يفرغ بين يديه شكوكه وقلقه ويتلقى منه زاداً مِن الطمأنينة. حق اِسترد ثقته بنفسه عندما اطمأن بمتانة الصلة المحسوسة بينه وبين قوة الكون العظمى.

ومُنذُ ذلك اليوم شفيّ وليم مِن علته العارضة. وفسّرت أمروي المسألة بأنّه وفق، ونجح مشروع مِن مشروعاته فأشاع ذلك الغبطة في قلبه. والواقع أن الكردينال عرف كيف يدخل في ذهنه إنّه رجل العالم الجديد. فعصر الرأس المالية التقليدية قد اِنتهى. وهو ممثل الرأس مالية الجديدة التي تقوم على تحري حاجات الشعب. وليس شيء أمس بالشعب مِن حاجته الى التسلية وإلى القيادة الرشيدة. وهو خير من يقوم بهذه المهمة المزدوجة.

وفي عصر يوم كان كليم جالسًا بجوار هنرييتا يُطالع الصحف. وكان الوقت صيفًا. أول صيف عقب اِنتهاء الحرب. ذلك الاِنتهاء الذي كان محنة شديدة لكليم. فإنَّ المسكين كاد يموت غمًا على أثر إلقاء القنابل الذرية على المدينتين اليابانيتين. وقد فوجئ المسكين مثل غيره من سواد الأمريكيين بوجود هذه القنابل الجهمية عندما فتح الصحيفة مُنذُ عام

واكتشف الحقيقة البشعة. فطفرت الدموع من عينيه للمئات وألالاف مِن الضحايا الآن لم تقع عليهم عينه.

لم يكن له كسائر الأمريكيين يد في هذه الجريمة. ومع هذا كان يشعر أنّه مسئول ومذنب لأنَّه أمريكي.فقام مِن مكانه وهو لا يكاد يرى موطىء قدميه مِن كثرة الدموع المنهمرة مِن عينه وبحث عن هنرييتا حتَّى وجدها في المعمل. فوقف ومدّ إليها الجريدة لأن البكاء كان يخنقه فلا يستطيع الكلام. فلمّا قرأت العناوين الضخمة طوقته بذراعيها ووقف الِاثنان يبكيان خزيًا ورعبًا.

ومضت أسابيع طويلة وهو طريح الفراش لا تتقبل معدته طعامًا لشدة غثيانه. ثُمَّ عندما قامَ من الفراش أضرب عن مطالعة الصحف وانكب على تجاربه لصنع الطعام الجديد. ورفض نصيحة الطبيب بإجراء فحص بالأشعة. وكان الرجل الكبير ساكن البيت الابيض قد مات وحلَّ محله رجل صغير. فشدّ كليم الرحال إليه، وبشره بمشروعه. فغمره الرجل الصغير بِابتساماته وصرفه وهو يعتقد أنّه أقنعه.

وفي الربيع التالي أعلن عن رغبته في الذهاب إلى سان فرنسسكو ليشرح لجمعية الأُمم مشكلة الجوع وكيف ينبغي القضاء عليها إن كانت النية معقودة حقًا على تحقيق سلام دائم. وبصعوبة شديدة إستطاعت هنرييتا أن تمنعه من الذهاب لأنَّها تعلم كيف يُسخر رجال الأمم المتحدة منه ويسمونه المجنون.

أشربت هنرييتا كراهية النَّاس لأنَّهم يسخرون من كليم، فجعلت همها في إبقائه في البيت مشغولًا بأبحاثه. وكانت تعاونه بحماسة لأن ذلك على الأقل يحميه من اِستهزاء النَّاس.

وفي هذا الصباح وهو جالس معها يقرأ الصحف صاحَ بها فجأة:

– يا هنرييتا.. لقد خسرنا الحرب!

– ماذا تعني بحق السماء؟ لقد اِنتهت الحرب مُنذُ سنة.

– في هذه الصحيفة تعلن الحكومة أنَّها لن تساعد الشعوب المحتلة ومعنى هذا قيام حرب عالمية ثالثة.

– لا يصل الخطر إلى هذا الحد يا كليم.

– بل يصل، لأن الإنسانية في مفرق الطرق. ولن يرجع النَّاس دون الحصول على حريتهم بأي ثمن. لابد لنا من إطعام الشعوب الجائعة ولو كانت داخل الستار الحديدي. هذا ما يجب أن تصنعه وإلَّا فلن يكون في العالم سلام.

وفي شهر مارس سنة ١٩٥٠ توجه كليم لمقابلة وليم للمرة الثالثة والأخيرة. وكان الكثير مما تنبأ به في المرتين السابقتين قد تحقق بحذافيره حتَّى لقد خطر له أنّه سيجد مِن وليم في هذه المرة أُذنا صاغية. بيد أن وليم لقيه على النحو الذي عرفناه فخرج مِن عنده خائب الرجاء.

وبعد ثلاثة أيام رأته هنرييتا مُقبلًا يطوح حقيبته في يده. فلم يستطع الوصول إلى الباب فجلس على العتبة. وأسرعت إليه فزعة.

– ليس بي شيء. وإنّما خذلتني قدماي.

فحملته حملًا إلى فراشه.

ووجدت المسكينة صعوبة كبيرة في حمله على ملازمة الفراش. ولم تنفع معه التوسلات في دخول المستشفى. لأن خاطرًا واحدًا كان مستوليًا على رأسه.

– يجب أن أُتم تحضير الغذاء العالمي الجديد قبل أن أموت.

ومِن فمه عرفت هنرييتا كيف رفض وليم أن يبلغ رسالته إلى العالم. ولهذا فليس أمامه إلَّا أن يخرج على العالم بالغذاء الجديد الذي سيفرض نفسه فرضًا بغير حاجة إلى دعاية.

وبعد بضعة أيام كان في العمل يعمل بإنهماك في تحضير مزيج من اللبن الجاف وفول الصويا وشرائح البطاطس. ولم تحاول هنرييتا معارضته في شيء. لم يكن عندها شك في مرضه ولكن لا حيلة لها. تحول العمل إلى سباق مع الزمن والموت. فكان مشغولًا بالتجارب لا يأكل ولا يشرب. فتقدم إليه بين الحين والحين فنجانًا مِن الشاي به بيضة نيئة مضروبة. فيرتشف رشفة بين الحين والحين.

وأقبل الصيف ولم تظهر بوادر النجاح. وفي ذات يوم وهو يهم بالخروج مِن الفراش وقع على الأرض. ونظرت إليه هنرييتا فوجدت وجهه محتقنًا وعينيه حمراوين، فرفعته بيدها:

– ألا تفكر فيّ قليلًا يا كليم؟

– ومتى لم أُفكر فيكِ يا هنرييتا؟

وبدا صوته خاويًا أجوف.

– لا تُغادر الفراش إلى أن يحضر الطبيب.

واتصلت بالطبيب تليفونيًا وطلبت منه الحضور فورًا. ثُمَّ جلست بجواره صامتة وقد أخذت إحدى يديه النحيلين بين يديها لأنَّها لم تجد مِن المناسب تبديد قواه في الحديث. بيد أنّه أبى أن يسكت.

– يا هنرييتا. إن آخر تركيب وصلت إليه في هذه الكراسة الصغيرة في الدرج الأيمن بمكتبي. فأرجوكِ يا هنرييتا إذا لم أستطع أن أُتم البحث.

– طبعًا لن تتمه. لأنّي لن أُبقيك هنا. سآخذك إلى كاليفورنيا.

وكانت تقول ذلك لتحمله على السكوت. وقد أدرك ذلك فلمّا سكتت اِستطرد يصف لها فكرته عن ذلك التركيب الجديد. إلى أن صرخ فجأة تحت وطأة ألم حاد، ثُمَّ غشى عليه.

وبعد ساعتين كان قد تم فحصه على أثر نقله إلى المستشفى وخرج الدكتور وود فاتَّجه نحو هنرييتا وقال لها:

– لابد مِن نقله إلى المستشفى المركزي.

– ماذا به على وجه التحديد؟

– ليس المهم ما به بل ما ليس به.

– ماذا تعني؟

– إن المسكين لم تعد له معدة. كان مِن الواجب أن تُجرى له عملية جراحية مُنذُ سنوات طويلة فطبيعته القلقة سببت أصابته بقرحة، أهملها وتفاقمت بمزيد مِن القلق حتَّى أصبحت شيئًا خبيثًا أكل معدته أكلًا.

– إن طبيعته ليست قلقة. وإنّما هو فقط يرى نفسه مسئولًا عن العالم كلّه. فيجوع مع كل رجل جائع وإمرأة جائعة وطفل جائع. إنّه ظل يصلب نفسه في كل يوم مدة سنوات طويلة.

– وهذه هي الطبيعة القلقة يا سيدتي. وقضيته قضية خاسرة. فما في العالم مِن متاعب لا يُمكن لرجل واحد أن يُعالجه.

– حاشاي! لم أخذله أبداً. ولم أفقده الإيمان بصواب رأيه.

– أرى على كل حال أن تعودي إلى دارِكِ وسنتصل بكِ عند الضرورة.

– لا يُمكن لأحد أن يفرق بيني وبينه في هذا الوقت.

لم تطل به الحياة بعد ذلك أسبوعًا ولم تكن واثقة أنّه شعر بوجودها لأنَّهم كانوا يخدرونه على الدوام ليخففوا عذابه. وكلّما عرض عليها الممرضات الطعام كانت تأكل ولا تتردد لأنَّها تشعر أن كليم يريدها أن تأكل. فرسالته الوحيدة في الحياة أن يأكل النَّاس حتَّى يشبعوا. ولو أنّه أفاق لدعاها بنفسه أن تأكل.

كانوا يغذونه بحقن في العرق. وقد أخبرتها الممرضة أن الطبيب وجد صعوبة في حياكة معدته بعد العملية لأنَّها كانت بالية.

– وإنّا لنعجب كيف ظلَّ حيًا حتَّى الآن يا مسز ميلر؟ ألم تعرفي قبل الآن حقيقة مرضه؟

– إنّه كان لا يحب الحديث عن نفسه ولا يشكو مِن أوجاعه. وأظن أنّه كان في اِستطاعتي أن أنقذ حياته بالحيلولة مُنذُ البداية بينه وبين مشروعاته المضنية. ولكنّي لم أقترف هذه الجريمة. لأنّي كنتُ أعلم يقينًا أن هناك ما هو أهم عنده بكثير من الحياة نفسها.

وتغامزت المرضات فيما بينهنَّ أنها امرأة شريرة لا تحب زوجها. وأنها دفعته إلى الموت لترثه وها هي تجلس بجوار فراش موته ولا تذرف عليه دمعة.

وكانت وفاته في الساعة الثانية صباحًا بعد غيبوبة مستمرة. وكان الطبيب قد سألها قبل ذلك في أول الليل:

– أتحبين يا مسز ميلر أن أوقف المخدر ليثوب إلى نفسه قليلًا ويعرفك؟

– وهل يتعذب.. إذن لا تفعل.

فما لحظة بالقياس إلى السنوات الطويلة التي عاشتها معه. وإلى السنوات التي لا مناص لها من أن تعيشها من دونه؟

ماتَ كليم في هدوء. وهي جالسة بجوارِهِ لا تتحرك وفي فمها مرارة شديدة سرَت إلى جسمها كلّه. فمُنذُ اِنتصاف الليل وهي تشعر بملك الموت يرف بأجنحتهِ في الحجرة. وفي الساعة الثانية تمامًا أحسّت أن الواقعة وقعت، فاِقشعر بدنها وتلقى فؤادها الصدمة.

كانت يده في يدها خفيفة هزيلة باردة، فمالت فوق الفراش وقربت وجهها مِن وجهه. كلّا، لا جدوى مِن ملامسة الشفتين الآن بعد أن فقدت القبلة معناها ولم تعد صلة بين نفسين. خير من ذلك ألف مرة أن تستبقى حية في وجدانها ذكرى صور الحب التي كانت بينهما، فذلك أفضل مِن أن تطبعها بختام قاتم لا تتلقى عليه جوابًا.

لقد كان مُحبًا كاملًا لطيفًا رقيقًا غير أناني. ما أكثر الساعات التي كان لا يفكر فيها على وجه التحديد. ولكنّه في ذلك كمن لا يُفكر في ذات نفسه عندما يشتغل بمهم أمره.

وعندما دخلت الممرضة بعد قليل وفحصته قالت لها:

– أخشى أنّها النهاية يا مسز ميلر.

فوقفت هنرييتا وكادت تخونها ركبتاها، ثُمَّ قالت بصوت متحشرج:

– هل لكِ في أن تنظري إلى النَّاحية الأخرى قليلًا؟

وأشاحت الممرضة بوجهها وعضت على شفتها. وانحنت هنرييتا فوق كليم، ثُمَّ ألصقت خدها بخده، ووضعت فمها في أُذنه، وهمست قائلة:

– شكرًا لكِ أيّها العزيز. لأنَّك مَلأت حياتي نورًا.

أوهام

وجدت هنريبتا في بامب خير مُعين. فساعدها في تصفية الأسواق. لأنَّه لم يعد لها مأرب في العمليات الواسعة التي اِهتم بها كليم مِن أجل أهدافه العظيمة. فسهل عليها أن تبيع كل شيء بسرعة لأنَّها عرضتها بأثمان بخسة جداً. ورأت أن تمنح سوق أوهيو لبامب نظير خدماته ومنحته أيضًا بيتها، ثُمَّ شدّت الرّحال إلى نيويورك لتقيم بالقرب مِن العلامة بركارد فلت الخبير الألماني المشهور في الكيمياء الغذائية؛ لتستعين به في إتمام حلم زوجها.

وكان هذا العالم المسن قد هاجر مِن ألمانيا بعد اِستيلاء هتلر على مقاليد السلطة فيها. ومِن حسن الحظ أنَّه كان يقيم بمفرده مع زوجته وليس لهما أولاد. فسهل عليه أن يهاجر غير آسف. وبعد قليل ماتت زوجته. فحَزِنَ عليها حزنًا عظيمًا، وانكب على سلوته الوحيدة في الحياة وهي التجارب العلمية. وفي فرنسا استطاع أن يعيش من إيراد الترجمات الفرنسية لمؤلفاته، وأشهرها كتاب عنوانه (الكيمياء الغذائية وعلاقتها بالطبيعة البشرية)

ومِن باريس اِنتقل الى لندن حيث اِلتقى بأصدقاء، يسروا له الهجرة إلى نيويورك، واِستطاع أن يستأنف أبحاثه في معمل للتجارب، تملكه شركه

مِن شركات التغذية. وكان الدكتور فلت لا يكترث للمغانم المادية، ويكتفي مِن الشركه بمرتب يكفي ضرورياته.

وقد اِكتشفت هنرييتا عنوان الدكتور فلت بين أوراق كليم، فانتعشت لديها الآمال في اِستئناف رسالة زوجها على يد هذا العبقري، وكتبت إليه مِن فورها، فجاءها منه رد رقيق شجعها على السفر لمقابلته. ولما اِلتقت هنرييتا بالعالم الشيخ وعرضت عليه آراء زوجها العزيز، راقها منه أنّه لم يهزأ ولم يسخر كسَائر النَّاس. بل اِستصوب اِتَّجاهه لاِكتشاف صيغة غذائية كاملة، أساسها نبات الفول. وأكَّد لها أن الاِكتشاف قد يحتاج إلى مجهود سنوات قليلة. وراقها أكثر مِن ذلك أن الرجل كان يؤمن إيمانًا وطيدًا بما آمن به كليم.

– يا عزيزتي فراو ميلار. لابد للعالم في السنوات القليلة المقبلة أن يلتفت لهذه المشكلة، ويبحث عن وسيلة لإطعام الملايين مِن الأيتام والجياع. وعندما يستيقظ ضمير العالم سيجدنا في اِنتظار يقظته، وفي اِنتظار الغذاء المنشود!

فامتلأت عينا هنرييتا بدموع الاِمتنان، لحماسة هذا العالم الشيخ.

ولم يخطر لهنرييتا أن تُخبر أحدًا مِن أعضاء أُسرتها بوجودها في نيويورك. بل لم يخطر لها على الإطلاق أن تخبرهم بوفاة كلم. بيد أنهم عرفوا النبأ مما نشرته الصحف. فقد كان شخصية معروفة. ووصلتها رقية تعزية مِن وليم. أمّا روث فأرسلت باقة مِن الزهر. وكانت والدتها في إنجلترا

فبعثت مِن هناك خطابًا تعزية. ولم يخطر لهنرييتا وهي في نيويورك أن تزور أحدًا سوى كانداس. وبعد أن خرجت مِن الفندق على قصد زيارتها فكّرت أن تمر بعمل الدكتور فلت، ومعها كراسة مذكرات كليم. وراحَ الرجل يتصفحها بأناة، ثُمَّ سألها:

– ما هو حظ فقيدك مِن التعليم؟

– سنوات قليلة في المرحلة الإبتدائية. ثُمَّ لا شيء.

– لابد أنّه كان ملهمًا يا سيدتي.

– إن عبقريته تنحصر في قدرته الخارقة على التعلم مِن ملاحظة النَّاس. كان يشعر باِحتياجاتهم، ويؤسس معلوماته على هذا الأساس. فاِحتياجات النَّاس كانت فلسفته وديانته وأبحاثه العلمية كانت نوعًا مِن الصّلاة. ولو أنَّك اِلتقيت بهِ يا سيدي لحسبته إنسانًا أقل من العادي. ساذجًا جداً.

– وكذلك يُحسب أينشتين مِن يلقاه.

ثُمَّ تطرق الحديث بعد ذلك إلى أسرار الحيوية في الإنسان. وأكّد لها أن الطريق الذي سارَ فيه زوجها لابد أن يؤتى ثماره؛ ولهذا سيستمر في البحث حتَّى يُحقق ما رمى إليه. ووعدته أن تساعده في البحث بنفسها.

وبذلك وضع أساس التعاون المشترك في ذلك المعمل الخاص. ثُمَّ تركته وذهبت لزيارة صديقتها كانداس.

وِاستقبلتها كانداس مفتوحة الذراعين، وقالت لها:

– هذا يا هنرييتا أجمل صنيع أقدمت عليه في حياتك. اِجلسي ودعيني أنظر إليكِ. لقد بكيت كثيرًا عندما سمعت بوفاة كليم، وفكرت في الكتابة إليكِ لكنّي لم أستطع.

– لا بأس. دعيني أنظر إليكِ. هل أنتِ سعيدة يا كاندي؟

– أسعد مِن أي يوم مضى في حياتي. ولا أُريد أن أقول إنّي لم أكن سعيدة مع وليم. بل كنت سعيدة معه أيضًا. فأنا إمرأة مِن السهل جدًا أن تشعر بالسعادة. ولكنّي كنت سعيدة يومئذٍ وحدي، لأنّني لم أكن أشعر أنَّه قريب منّي مطلقًا، أمّا الآن..

– أراكِ قد تزوجت يا كانداس؟

– إن سيث إنسان طيب جدًا. يُحبني أكثر مِن كل شيء في الحياة. ولكنّي لا ألوم وليم. ولا أسمح لسيث أن يناله بكلمة سوء. إنّه شعر بالحاجة إلى شريكة تفهمه. وقد وجدت أنا في سيث شريكًا يفهمني لأنَّنا أبناء بيئة واحدة وننتمي لعالم واحد.

– المهم يا عزيزتي أنكِ سعيدة. فالسعادة أهم ما في الحياة. ولستُ أعرف شرًا حقيقيًا في الدنيا سوى الشقاء.

– كم يسعدني أن أسمعك تقولين هذا. وطالما قلته لوليم ولكنّه لم يفهم مُرادي. وهذا ما أقوله لأولادي الآن. إلَّا أنهم أبناء وليم أيضًا. وهم به جد فخورين.

وفي هذه اللحظة دخل سيث. وهو رجل وسيم بشوش الوجه أشيب الشعر. فلمّا عرف مَن هي رحب بها كثيراً. فقالت له:

– إنّي شديدة التعلق بكانداس. وقد أردتُ أن أطمئن لحسن رعايتك لها.

– لا تتعجلي الحكم. واصبري قليلًا تكتشفي بسرعة كثرة عيوبي.

فلم تدرِ هنرييتا ماذا يقول لأنَّها لم تتعود هذه الأحاديث المازحة الفارغة. بل نظرت إلى كانداس وقالت لها:

– يا عزيزتي. إنِّ لم أذق شيئًا مُنذُ ساعة الغداء.

فأمرت كانداس الخادم بإعداد الشاي على الفور. فشربت وأكلت بكل شهية، ثُمَّ اِنصرفت وهي تشعر بالسعادة.

ووليم لين لم يعد شابًا، لقد كبر أبناؤه وتزوجوا وأنجبوا. فلماّ رأى نفسه جداً؛ شعر بوطأة السن دفعة واحدة. ولكنّه في الوقت نفسه كان يرى أُمه شديدة الحيوية، وهي في عنفوان الثمانين فيشعر أنّه ما زالَ شابًا. ومِن عجب أن اِغتباطه بكونها مصدر اِعتقاده بصغر سنه، جعله شديد الإعجاب بها، يقنع نفسه أنّه شبيهها في كل شيء. وفي طول العمر والعافية ضمنًا.

ولكن هذا لم يمنعه من الإستياء لبعض تصرفاتها، وعدم مبالاتها بالمسئوليات. فقد حدث أن اِختلفت روث مع أرميا. فلم تبُالِ وشدت الرحال إلى إنجلترا. وشكى الأمر إلى أمروي التي أنصتت كعادتها، ثُمَّ اِقترحت عليه أن يُرسل برقية يدعو والدته للعودة فورًا، كي تعيش مع روث. فأطاع إشارتها في الفور.

وتلقت مسز لين البرقية في اليوم التالي وهي مقيمة في بيت كبير مِن البيوت الريفية أعجبها موقعه فقررت البقاء فيه ما بقي مِن عمرها. وعندئذٍ هزّت كتفها الضخمتين، وقالت لزائرتها الكونتس بورلي:

– يبدو أن زوج اِبنتي الصغيرة أُصيب بخبل ونُقِلَ إلى مستشفى الأمراض العقلية. ولكن ليس هذا مبررًا لإزعاجي في حياتي الخاصة. إنّي حريصة على التمتع بحريتي ما بقى لي من العمر. ولكن ما دام وليم قد وضع في رأسه أن أعود فلا أرى لنفسي مناصًا مِن العودة.

وبعد أسبوع اِستقلت الباخرة الى نيويورك. وأخذت روث بين أحضانها:

– لا تهتمي. فسأقم معكِ. ولن تشعرى بحاجتك إلى أحد. سأُقيم معكِ أنتِ فأنتِ أحوج إليّ من هنرييتا. وبهذه المناسبة أين هي؟

– لست أدري فهي لم تتصل بنا.

– ولكن كيف تدهورت حالة أرميا إلى هذا الحد؟

– لقد خدعنا يا أُماه. والإطباء يشخصون الحالة بأنه يشعر بالتّعاسة؛ لهذا انهمك في الشراب بصورة متلفة. كان يزعم لي أنّه ذاهب إلى المكتب. ثُمَّ يستأجر حجرة في الفندق وينهمك في الشراب بمفرده. وأؤكد لكِ أنّني لست السبب في تعاسته إن كان تعليل الأطباء صحيحًا.

– هراء، فبعض الرجال يحبون شرب الخمر لذاتها. وليس لنسائهم دخل في ذلك.

وكانت أمروي جالسة ترقب الأم وإبنتها في صمت، وهي تبتسم اِبتسامتها الوديعة. ولكنّها كانت تعلم يقينًا سبب كارثة أرميا. إنّه فعل ذلك بنفسه اِنتقامًا مِن وليم. كما ينتقم الرجل الضعيف من رجل قوي لا يُغلب. لقد أثبت وليم أنّه الرجل الأقوى. والمسيطر الذي لا يُبالي في سبيل تمكين سلطانه بشيء. وحزّ ذلك في كبرياء أرميا الذي يعلم أنّه أفضل الرجلين عنصراً وأنبلهما نفسًا.

كان عطفها مع الضعيف النبيل. لكنّها كانت أعقل مِن أن تتخلى عن الرابح القوي. ثُمَّ إنّها هي أيضًا قوية لا تقهر في سيطرتها على وليم. ولئن أشفقت على روث ورثت لها إلَّا أن إعجابها كلّه بوالده وليم التي تجلس هادئة الأعماق لا تذرف دمعة على سوء حظ اِبنتها الشابة. ولا سيما حين سمعتها تقول:

– لا فائدة في البكاء يا بُنية. وكوني عملية وضعي العواطف جانبًا. إن الحل الموفق أن تترك أرميا في ذلك المستشفى. وفي وسع شقيقته

كانداس أن تزوره إن شاءت هناك، أو تأخذه عندها. وعليكِ أن تستأنفي الحياة على أساس جديد وبدونه.

وعندما حضر وليم مِن مكتبه لم يتردد طويلًا في إصدار قراره:

– أنيّ أنصح روث أن تطلب الطلاق. وهذا سهل لأنَّها ليست كاثوليكية. أمّا عن نفسي فإنيّ مستريح للخلاص مِن أرميا، لأنَّه كان عالة وكان مُدللًا.

ثُمَّ اِلتفت إلى أُمه ورمقها بإعجاب. وقال:

– أنكِ تُبدين رائعة يا أُماه.

– لقد استفدت صحيًا من إقامتي القصيرة في إنجلترا.

– إنيّ مسرور بعودتك ووجودك بقربي.

– إذن أُريد منك مكرمة.. أُختك هنرييتا. إنّها تعيش وحدها، ولا ندري كيف. وقد بلغني إنّها مندفعة في طريق زوجها الجنوني عن خزعبلات الطعام.

– سأُحاول الاِجتماع بها وردّها إلى الصواب. وإن كنت يائسًا مِن إقناعها لما أعرفه من عنادها القديم.

وعندئذٍ تدخلت أمروي في الحديث، قائلة:

– ما رأيك إذن أن تتصل بها، وتدعوها لعشاء عائلي يجمع الأسرة كلها، بمناسبة عودة والدتك مِن رحلتها. ثُمَّ ننتهز هذه الفرصة لتخلو بها، وتحدثها؟

وكالعادة وجدَ وليم فكرة زوجته الحكيمة رائعة وخف لتنفيذها.

وبعد بضعة أيام اِجتمع شمل الأسرة فعلًا حول مائدة وليم. وجلست هنرييتا، وكأنها بمعزل، تسمع الأحاديث اللبقة عن السياسة وعن الحرب الكورية، وعن الصين الوطنية، التي يؤيدها وليم بكل قوته. وعن قرينة النمر شيان كاي تشيك صديقة إمروي الحميمة، وكيف أنّها مِن أجمل النّساء وأظرفهنّ، وأكثرهنّ لباقة وثقافة.

ثُمَّ نهضت إمروى بعد العشاء فعزفت على البيانو ألحانًا عذبة رقيقة مثل صوتها وحركاتها الناعمة. وبعد أن فرغت أومأت بعينها إلى وليم فقال لهنرييتا:

– لي معك كلمة يا هنرييتا.

ثُمَّ قادها إلى المكتبة، تلك المكتبة التي رأته في المرة السابقة يُلازم فيها جثة والدها. وبعد أن اِستقرت في مقعدها سألها عن طريقة حياتها الراهنة:

– إنّك مليونيرة. ولكنّي سمعت أنكِ تقيمين في مسكن حقير مع عالِمٍ ألماني، طاعن في السن. تأكلين أحقر الطعام وترتدين مِن الملابس ما لا

يُليق بكِ. إنّني مستعد أن أدبر لكِ مكانًا تعيشين فيه. والأوفق أن تعيشي مع والدتك وروث التي أصبحت الآن وحيدة. فذلك أصون لكرامة العائلة.

– إن حياتي ليست شيئًا منفصلًا عن رسالة حياة كليم. وسأستمر في حمل أمانة تلك الرسالة، إلى أن أنجح في تحقيق ما عاشَ له.

وبهت وليم فلم يدرِ بماذا يجيبها. لقد ظنّ أن كليم كان أحمق متعصبًا ضيق العقل. ولكن ها هو يرى هنرييتا متأثرة به بعد موته، وهو الذي كان يأمل أن تتحسن أحوالها، وتستقيم حياتها بعد أن تخلصت منه.

– إنَّ مِن الحماقة أن تضيعي عمرك وموارد المحترمة جريًا، وراء وهم من أسخف الأوهام. ويكفي أن تعلمي أنّنا إذا وفرنا للشعب الطعام بغير مقابل، والطعام هو الحاجة البشرية الأساسية. فمعظم النَّاس لن يفكروا في مزاولة أي عمل.

– المسألة يا وليم أعمق جدًا مِن مسألة الطعام. إنّها ليست مجرد حشو مصارينهم بالمواد الغذائية. فأنا أعتقد –وكذلك كان كليم يعتقد أيضًا– أن الشعب ما لم يحصل على كفايته من الطعام ، كفيل أن يثور في وجه أي حكومة قائمة دون أن يُفكر في صلاحيتها أو فسادها. والحكومة التي تفهم قبل غيرها معنى هذا الغضب المتأجج في قلوب الجياع، وتعمل على تهدئته بتوفير الطعام هي التي تربح المعركة، معركة البقاء. إنَّ النَّاس يشعرون أنَّهم لا ينبغي أن يتضوروا جوعًا مهما كانت الأسباب. وقد أخبرني

الدكتور فلت أن وعود هتلر للشعب بتوفير الغذاء كانت هي أول درجات السر. الذي صعدَ به إلى مقاليد السلطة في ألمانيا.

فنهضَ وليم، وراحَ يتمشى في المكتبة بقلق شديد. وهي تنظر إليه بإمعان، إلى أن وقف أمامها وقال لها:

– إنّها فكرة خرافية. تصوري أنّنا نُطعم شعبًا كشعب الصين مثلًا؟ هذا شيء مِن رابع المستحيلات!

– ولكن لابد مِن عمله، إن عاجلًا أو آجلًا. ثُمَّ لا تنسَ يا وليم أن هناك شعوبًا أخرى غير شعب الصين يجب أن نُطعمها. هناك شعب الهند وسائر شعوب العالم.

– أوهام. محض أوهام!

– إنها ليست أوهامًا يا وليم. وإنّما هي المنطق السديد، والتفكير السليم. أتدري لماذا لا توافق على هذا الرأي؟

– لماذا؟

– لأنّك أنت وكليم على طرفي نقيض. فهو يؤمن أن العالم يمُكن أن يرقى ويتحسن إذا تحسنت أحوال النَّاس. ومتى تحسنت أحوال النَّاس وتحرروا مِن الجوع، سعوا مِن تلقاء أنفسهم إلى الرقي والحرية. هذه هي عقيدة كليم. أمّا عقيدتك فعلى خلاف ذلك. أنتَ تؤمن أن الشعب يجب أن يُكره على الخير، وعلى الاِرتقاء بالأمر، وبالسيطرة وبالتشكيل. فالواقع

أنّكما تهدفان إلى غرض واحد، هو إيجاد عالم أفضل. ولكنّكما تختلفان في الوسيلة. هو يؤمن بالإنسان الحر. وأنت تؤمن بعبودية الإنسان. وأنّه لا يصلح لتحقيق الحرية إلّا مُكرهًا عليها منقاداً.

فثار غضب وليم. وقدحت عيناه بالشرر وصاحَ بها:

– إنّي أرفض يا هنرييتا هذه المقارنة الفاضحة بيني وبينه. لقد كان كليم رجلًا خطرًا على الإنسانية. أو على الأصح كان يغدو خطرًا على الإنسانية لو أنّه نجح. لقد كان يعمل على تقويض وطننا مِن أساسه. ولم أكن أحب أن أقول لكِ هذا يا هنرييتا. ولكنّها معلوماتي السرية. وليست الأموال الضخمة التي تجمعت لديه إلّا ثمن خيانته. وقد كتمت الحقيقة مِن أجلك. لأنّني لم أنسَ أنّكِ شقيقتي. أمّا الآن وقد مات فمِن الخير أن تعرفي الحقيقة.

وحافظت هنرييتا على هدوئها ثُمَّ قالت له:

– حسنًا يا وليم. لقد فشل كلٍ منا في فهم صاحبه. وهكذا كنّا دائمًا. ولكن سيأتي يوم يثبت فيه أن كليم كان على صوابه. هذا هو اِعتقادي. وعندما يتضح صواب رأي كليم سيكون معنى ذلك اِندحارك أنت يا وليم ومن معك مِن أمثالك.

– أنك تقولين يا هنرييتا كلامًا رديئًا جدًا. فيه سوء وشر.

– ربما. ولكنها عقيدتي..

وأثاره هدوؤها وعنادها حتَّى لقد همَّ أن يثور بها مثل ثوراته عندما كانا صغيرين في بكين. بيد أنّه تمالك زمام نفسه وتبعها إلى البهو ثُمَّ ساعدها على اِرتداء معطفها الأسود.

وعندما نبّهها إلى أنها لم تودع والدتها وسائر الأسرة، قالت بهدوء وإيجاز:

– لا داعي لإزعاجهم. فليستُ لدي رغبة في رؤيهم.

فصحبها إلى الباب بنفسه ثُمَّ وقف يرقبها، فرآها لا تستوقف سيارة أجرة بل تمضي سائرة على قدميها مرفوعة الرأس والهواء يعبث بشعرها إلى أن وقفت عند محطة الأوتوبيس.

وكانت الليلة صافية وضياء القمر يملأ الجو. فشاهدها وهي منتظرة تقترب مِن مصباح الشارع وتفتح حقيبة يدها، وتخرج منها نقودًا تُعطيها لمتسول. فهزّ كتفيه وأقفل الباب وعادَ أدراجه إلى المكتبة حيث خلا بنفسه إلى أن تهدأ أعصابه.

إنها حمقاء وهو لا يطيق الحمقى! كم كان يود لو لم يثر في نفسه ذكرى كليم. ها هو يتمثله كما رآه أول مرة في شوارع بكين غلامًا ممزق الثياب، قذر الوجه. ها هو يراه يقتحم عليه مكتبه بغير إذن. لقد كان على الدوام فتى سيء التربية لا يعرف حدود اللياقة. ولكن ها هو أخيراً قد مات وترك له الدنيا على سعتها ينفرد فيها بالنفوذ والسلطان.

وفتح عينه عندما سمع الموسيقى التي أخذت تعزفها أمروي مِن جديد. ورويدًا رويدًا شعر بالشك القديم يراوده وينخر في قلبه.

ترى هل مِن الممكن أن يكون كليم على صواب؟

ومدّ يده إلى التليفون فاتّصل بمرشدهِ الروحي الكردينال. وبعد خمس دقائق كان في طريقه إلى ذلك المصدر الذي يلتمس منه القوة واليقين. وبعد ساعة أخرى عادَ مِن هناك وقد اِسترد هدوءه وثقته، وكبرياءه الظافرة.

وفي هذه الساعة كان الكردينال منفرداً بنائبه يتحدثان في أمر هذا الرجل الكبير بنفوذه وماله، وكيف أنّه لا يستطيع الحياة يومين متعاقين بغير معونة كنسية. قال الكردينال:

– لقد تعودت الكنيسة أن يطرق أبواها كثير مِن الجياع في أيام القحط والمحنة. فمِن واجبنا كما تعلم أن نغذي الجسد والروح. ولكن في بعض الأحيان يوجد رجال أقوياء بنفوذهم. والواحد منهم أنفع للكنيسة، وأثمن لديها من عشرة آلاف آخرين. ومِن هؤلاء وليم لين. إن محنته مصدر قوته. إنّه قوي جداً. بحيث لا يدري ماذا يصنع بهذه القوة. إنّه يسعى لتوجيه النَّاس، بيد أنه هو نفسه في حاجة إلى قيادة. ومن أجل هذا تزوج للمرة الثانية في ساعة سخط وضيق. ولكن النساء ليست عنده شيئًا ذا خطر لأن جوعه في الواقع جوع روحي.

– إن له نظرات وحشية في بعض الأحيان. والقسوة التي في صوته ترسل الرعدة في دمي.

– إنه إنسان عاشَ في بيئة غير متجانسة مع نفسه. عاشَ بين أقوام رحماء فيهم وداعة وليست فيهم صلابة أو أنانية. فلم يألفهم وشعر وهو في وسطهم بالسأم والغربة.

– إلَّا تستحسن يا سيدنا أن تنصحه بالتخلي عن الترف الذي يعيش فيه. فربما نفعه الركون إلى التقشف.

– إن وليم لين في حقيقته إنسان زاهد. إنّه يملك الكثير ولكنّه لا يأكل إلَّا قليلًا. واِحتياجاته محدودة. لا يحتسي الكثير مِن الخمر، ولا يُدخن كثيراً. واعتقد أننا نستطيع أن نجعل منه قسيسًا لو أفردناه قليلًا في البرية. ولكن آفة لين الحقيقة ليست في الترف. وإنّما في عجزه عن أن يحب النَّاس فمحبته للناس عمومًا وكما هم ومن أجل أنفسهم في بداية الصلاح ورأس البر.

– فماذا نصنع له إذن؟

– أعتقد أنّه محتاج لكاهن يقيم معه في بيته ليجد في ملازمته القوة التي ينشدها.

– ولكن أتعتقد أن هذه الملازمة تفيده وتشفيه؟

– لا أعتقد ذلك. ولكن منفعة الكنيسة الرسولية شيء يجب علينا أن نسعى لتحقيقه. وليم لين رجل واسع النفوذ جدًا. ومِن مصلحة الكنيسة الرسولية أن يظل بصفة دائمة خاضعًا لسلطانها لا يستغني عن معونتها وسندها ليتمكن من مواجهة الحياة.

وهكذا صدرت الأوامر إلى قسيس طيب صالح، لم يكن معروفًا بتوقد الذكاء أن يحمل حقيبته، ويقيم في قصر وليم لين ليحاول إيقاظ روحه إلى أن تصدر له أوامر أخرى. فذهب الراهب الطيب القلب وأقام في القصر. وفي اليوم التاّلي اِلتمس مقابلة الكردينال وقال له بسذاجة:

– سيدنا. لقد أعطوني فراشًا ناعمًا، لم أستطع أن أنام فيه لحظة واحدة. فحاولت النوم على الأرض، ولكنها كانت ناعمة أيضًا بما فوقها من البسط السميكة. ولولا أن هداني التفكير إلى أن حمامي الخاص خالٍ من البسط، لما اِستطعت النوم في تلك الليلة. ولكنّي اِستيقظت وأنا أحس في ظهري وكتفي ألمًا شديداً. فأرجو أن تعفيني يا سيدي من هذه المهمة وتعهد بها إلى سواي.

– ليس من حقك أن تناقش الأوامر الصادرة إليك.

– إن هذا الترف يا سيدنا يُفسد النفس الصالحة.

– إن نعم الله كلها طيبة. فاستمر إلى أن تصدر إليك أوامر جديدة.

وعادَ الراهب مكرهًا إلى القصر الكبير وهو يتوجس من تلك الحياة.

أمّا وليم لين فبدأ ينقاد لتأثير ذلك الراهب ويصغي لكلماته، وصلواته في لهفة وتعلق، كما يتعلق الغريق بحبل النَّجاة. لأن صوت شقيقته كان لا يترك له ساعة هدوء. كان يدوي في أُذنيه مِن بين أخبار العالم التي يصوغها ويقدمها للناس:

– كليم على حق. وسيأتي يوم ينتصر فيه. وتندحر أنت ومَن على شاكلتك يا وليم لين!

إنَّ حوادث العالم المضطَّرب تتمخض عن مستقبل للبشرية جديد، ينتفي فيه الظلم، وينمحي فيه الجوع، ويعيش النَّاس في وئام وسلام.

الفهرس